مؤتمر تونس وأمجاد المؤتمرات العربية

بعيداً عن كل مساس بالحفاوة الكريمة التي أبدتها الحكومة التونسية ، والاهتمام الحاشد من قبل اتحاد الكتاب التونسيين .. ومع الشكر العميق للفرصة الذهبية التي أتيحت لي شخصياً – بصحبة اعضاء الوفود طبعاً – لكي أرى تونس للمرة الثانية بعد عشر سنوات – فقد شاهدتها عام ١٩٦٣ بمناسبة الجلاء عن بنزرت – مما أطلعني على جوانب هائلة من التنمية السياحية بتجربة في التطوير تكاد تونس تنفرد بها.. بعيداً عن كل مساس بكل تلك النواحي العظيمة والمشرفة ، ومع التقدير البالغ لمناسبة قومية جددت صلة الرحم وأواصر القربى بين مغاربة العرب ومشارقتهم ، أريد أن أورد بعض الملاحظات التي لاعلاقة للتونسيين بها لأنها تتعلق بتنظيم المؤتمر وبنيته والموضوعات التي تعالج به ..

نجح .. لم ينجح :

فالسؤال الأول الذي يبادر به من لم يحضر المؤتمر من حضره هو : « هل نجح المؤتمر ؟ » والسؤال في رأيي غير وارد لأن من الصعب الاجابة عنه ، بل هو يحتمل اجابتي النفي والاثبات : فقد نجح المؤتمر بالصيغة المتعارف عليها للمؤتمرات العربية ، نجح كمناسبة للتعرف على قطر عربي وأدبائه – دون أدبه – وللالتقاء بعدد من الكتاب الأصدقاء ، القدامى منهم والجدد . كما أن المؤتمر نجح اذا نظر اليه على أنه وسيلة لملامسة خارجية لموضوعات هامة تمس الأدب العربي والحياة العربية في الصميم .. ملامسة خارجية بحيث يصدق من قال ان المؤتمر عالج هذه الموضوعات كما يصدق من قال انه لم يعالجها !! ولو أن المؤتمر – أي مؤتمر – يقتصر في أبحاثه على ناحية واحدة وموضوع

واحد لكان لنا شيء من الكسب الفكري يربو على هـذا الطلاء الرقيق الذي تطلى به ، وتتلى ، موضوعات متعددة ،كثيرة، عظيمة ، ومتنوعة . لذلك سوف أعالج الجوانب السلبية في المؤتمر كعيوب تتكرر في كل المؤتمرات العربية مـا لم تتغير صيغة هـذه المؤتمرات .

فقد فرض على المؤتمر أن يعالج ثلاثة موضوعات هامة وعريضة هي :

١ ــ تقييم الاتجاهات الادبية العربية المعاصرة ، وأثرها في مستقبل الادب العربي وطنياً وقومياً وانسانياً .

٢ ــ الادب العربي والثورة التكنولوجية في النصف الثاني من القرن العشرين .

٣ ــ الادب العربي والصراع ضد الصهيونية والامبريالية .

الموضوع الاول فاقد للاتساق « Consistency » ولا تمكن معالجته معالجة علمية بسبب احتياجه للعديد من المناهج ثم قفزه بالعلم ــ المزعوم ــ الى مشارف التنجيم . فهو يحتاج الى ناقد وسياسي وعالم اجتماع ومؤرخ للافكار ومنجم :

وليس على الله بمستكثر أن يجمع العالم في واحد ..

وقد استهل جميع المحاضرين بحوثهم بالشكوى من غموض الموضوع واتساعه وتباعد أطرافه ، مما اضطر الاستاذ عبد الكريم غلاب رئيس الوفد المغربي أن ينهض في نهاية اليوم الاول ويذكر أن اللجنة التحضيرية للمؤتمر ابتغت من الموضوع الاول فقـــط « تقييم الاتجاهات المعاصرة في الادب العربي » لاستكناه أثر الادب العربي في خـــدمة المستقبل العربي .. أما الاضافات التي شوشت الموضوع فهي اضافات هامشية، لعل سببها أن الذين صاغوا الموضوع الاول يفتقرون الى المصطلح النقدي، او انهم من هواة الصحافة الادبية اللبنانية التي تميع الامور حباً منها في افساح مجالات القول واملاء الصفحات الفارغة ..

كذلك كان الامر في الموضوع الثالث ، فهو فضفاض بحيث يتسع لأي قول. ولعل المقصود منه اراحة بعض الضمائر التي تظل عاتبة على الناس وحاملة جهودهم على محمل سوء النية ، كما سنرى بعد قليل .

الموضوع الثاني وحده فاز بأفضل الابحاث وافضل العقول لأن أبرز الذين عالجوه من خيرة المثقفين، وان كنا بذلك نظلم النقد والنقاد. فقد كان بحثا الاستاذين العظيمين علي الشوك وانطون مقدسي ثمرة من ثمار عقل معاصر شامل .

وإذن ، كان ، وسيظل ، من الواجب قصر المؤتمر على بحث موضوع واحد ، فيتسنى بذلك توفيته حقه من المعالجة والمناقشة .

لا ديمقراطية في الثقافة :

وإذا كانت الاساءة الاولى الى كل المؤتمرات الادبية حشد الموضوعات وعدم تحديد زاوية تناولها ، فان الطعنة القاتلة للمؤتمرات الادبية العربية جهـل معظم اعضاء الوفود جهلاً موسوعياً بكل نواحي المعرفة . لقد كان معظم اعضاء الوفود امـا شباباً متمتعين بكامل صفات الامية الثقافية . وإما كهولاً توقفت ثقافتهم تمام التوقف منذ منتصف الخمسينات ، أو الأربعينات . فاذا أضفنا الى ذلك أنهم احترفوا التعليم وتأليف الكتب المدرسية ، أدركنا مدى محدودية نظرتهم خاصة حين يؤطرها ايمان بكليشهات عقيدة أو مدرسة فكرية . عند ذلك حدث ولا حرج عن الجمود والتصلب ، فلا عجب أن بدأ كل من طرقوا البحث الاول - عدا اثنين - بثورة البارودي وتجديد شوقي ..

ونظراً لكثرة الابحاث فقد اتفقت اللجنة التنظيمية على أن تعطي لكل قطر الحق في القاء بحث واحد مهما كان مستواه ومهما كان مساسه بالموضوع قرباً أو بعداً .

وأخيراً فقد تعممت ديمقراطيـة الجهل عن طريق المناقشة ؛ لكل عضو الحق في أن يناقش فوراً الموضوع الذي سمعه لتوه : صورة لامعة عن الارتجال العربي والزجل الفكري الفصيح ؟!

وتبريراً لبرمنا بما رأينا وسمعنا ، نحيل القارىء إلى عدد نيسان من « الموقف الأدبي » لأن الزميلة سوف تنشر البحوث ، أما نحن ، في هذه العجالة ، فسوف نقتصر على ايراد جوانب من المناقشات كما سجلناها حين سمعناها :

كان ممن ألقوا بحوثهم في اليوم الأول - الاثنين ١٩/٣/٩٧٣ - الدكتور أحمد أبو سعد من لبنان . وقـد عالج الموضوع الأول في تقييم الاتجاهات الأدبيـة العربية المعاصرة في الشعر فقط . كان بحثه مدرسياً الى حد الفجاجة ، بشهادة جميع من ناقشوه - وبينهم خلدون الشمعة من سوريا ، عبد الكريم غلاب ومليكة العاصمي من المغرب ، عبد العزيز الدسوقي من مصر . فقـد بدأ بحثه بالبارودي ثم شوقي ثم مدرستي أبولو والمهجر ثم الرمزية في لبنان ، وحين وصل الى الخمسينات كان نفسه قـد انقطع فرأى

الكمال التام في القصيدة الحديثة : فهي ذات نمو حي وملائمة لروح العصر وصورها من نسيج موحد .. حتى كأنه أوصد باب الشعر للاجيال التالية . كما أنه قسم الشعر الحديث بحسب مضمونه ، وهذا منطلق غير نقدي ...

.. إلا أن ما يهمنا في هذا المجال بعض التعليقات الطريفة التي تفصح عن عقول أصحابها وطريقة مناقشتهم :

ألمح د . أبو سعد الى أن شوقي ليس من أصل عربي وأن شعره قصر عن شأو العالمية، فانبرى له شاعر مصري مخضرم وذكره بأن شوقياً قد قال «إن في أصولاً عربية وتركية ورومية وجركسية » ..

كما ذكره — وهذا بيت القصيد — بأن شوقياً « قد تكلم عن شكسبير وزلزال طوكيو وبكى دمشق وسينا .. وهذه هي العالمية » !! ترى لو تحدث شوقي عن كواكب المريخ وعطارد والزهرة والمشتري أما كان اديباً « كوكبياً » ؟ ولو تحدث المتحدث عن النولب او الجورب فهل يصبح شاعراً « لولبياً » ام شاعراً « جوربياً » ؟؟!

وفي اليوم التالي القى الناقد علي الشوك من العراق بحثاً ممتازاً عن الأدب العربي والثورة التكنولوجية في القرن العشرين ، الم فيه بأطراف التحدي التكنولوجي للأمة العربية وتهديده للإنسانية بالقوى النووية ثم الانعطاف الحالي في الأتمتة — الآلات التي تسير نفسها اوتوماتيكياً — وما رافق كل ذلك من تغير في صميم الفنون التشكيلية وكذلك ابتكار الموسيقى الاليكترونية وربط خوف الانسان من الآلة بطبيعة المجتمع الطبقي الذي يفرض على الانسان الاستلاب لمصلحة الآلة ومالكها ، ثم عرج على الادب العربي المعاصر وذكر كيف استفاد الشاعر من طريقة التقطيع السينمائي والكولاج كما استفاد القصاص من وعيه العلمي لتخطي الطبيعة النوعية للأشكال الادبية ، « في مجتمع ما يزال ثلاثة ارباع سكانه لا يعرف القراءة والكتابة » .

فنهض الشاعر الخطير من الوفد الفلسطيني وقال :

— « جهد علي الشوك خارجي ولا علاقة له بما يجري في وطنه ؛ طرح موضوع التكنولوجيا تغييب متعمد لقضية فلسطين. ظاهرة التأثير التكنولوجي تعبير عن الانهيار الحضاري في المجتمع الغربي ، تحدث علي الشوك عن الذرة ليخوفنا من الحرب » .

ولما كانت كل هذه الانتقادات مدخلاً لتسييس الموضوع فقد وصل المعلقالشاعر الى النتيجة — التعريف :

« التخويف من التكنولوجيا عملية سياسية وليست أدبية . وعلاقة الادب بالسياسة كعلاقة اي شيء بأي شيء » .

« علاقة الادب بالسياسة كعلاقة أي شيء بأي شيء » هذا هو التعريف الجامع المانع الذي خرجنا منه وبه في هذه المناقشة .

ولكي تخرج المؤتمرات العربية من ديمقراطية المناقشة ومن الديمقراطية بين البلدان العربية ، نقترح — بعد قصر المؤتمر على موضوع واحد — أن يتم سلفاً تكليف باحث في الموضوع من قطر وتكليف ناقد او اثنين بمناقشته من قطر آخر ، دون أن يكون لكل اعضاء الوفود حق المناقشة ، فعندما يعد البحث سلفاً وتعد مناقشته سلفاً يمكن حصر الاسفاف والغاء الارتجال الى حد ما ..

د . سهيل ادريس وما وراء الكواليس :

.. وأخيراً فلا بد في كل مؤتمر عربي من يسعى الى تعكير المياه العكرة .. وقد جاء الدكتور سهيل ادريس الى المؤتمر ومعه وفده العجيب بنية تسجيل موقف على حساب الوفود العربية جمعاء مما حولها ضده بأكلها ، وقد تابع مسرحه العابث حتى النهاية ، حين انسحب وجماعته ولم تنسحب معه ذبابة ، وحين وصل الى بيروت اضطر الى الكذب في « النهار » زاعماً بأن المؤتمر اضطرب لانسحابه وأن فلاناً والوفد الفلاني انسحبوا معه . كذب وافتراء . لقد غادر وحده ، مأسوفاً على اتزانه ، وعلى كونه فوت فرصة ذهبية لبحث حرية الأديب العربي وتحديد الضمانات له .

وتفصيل ذلك أنه دعا في كلمة الافتتاح — مما يبين انه جاء ليتشاطر ويسجل نقطة على المجتمعين — الى الاعتصام في سفارة عربيــة ريثما يتم الافراج عن أدبائها ، وهاجم مصر ثم غطى هجومه بذكر البحرين والمغرب . وقد مكث في تونس طيلة أيام المؤتمر ، لم يتغيب عن دعوة إلا دعوة المحاضرات ومهرجانات الشعر . فلما انتهى المؤتمر زعم انه انسحب ، والواقع أنه غادر تونس ولم ينسحب ، لأن الذي ينسحب ، ينسحب في أول المؤتمر لا في ختامه .

وقد وافقه الحضور جميعهم بأن حرية الأديب العربي بلا ضمان ، واقترحوا عليه تخصيص يوم للبحث في حرية الأديب واتخاذ الضمانات اللازمة لها فأبى واستكبر وأرادأن يحصر الموضوع ضمن دائرة واحدة للبحث في أحوال افراد معينين في قطر واحد. وعبثاً ماحاولوا اقناعه بأن مامن أديب الا واصطدم وسيصطدم بالسلطة فلابد لبحث الموضوع بشموله ، ثم اتخذ المؤتمر توصية بتأليف لجنة لبحث أوضاع الأدباء في البلاد العربية فلم يوافق عليها .. كل ذلك منه باسم حرية الأديب .

مهرجانات الشعر :

وكما حدث في المهرجانات السابقة ، امتد القاء القصائد الطوال ساعات أطول من أيام الهجر ولياليه . لم تكن القصائد تخلو من الجيد والمبتكر بل والرائع،الا ان اكتشاف ذلك يحتاج الى صبر أيوب وجلد الفرزدق الذي كان ينحت من صخر . فهل هان الشعر على العرب وهانت اسماعهم عليهم الى هذه الدرجة ؟ ألا يتم تخصيص ساعة واحدة لشاعرين من كل قطر ؟ او يتم توزيع الشعراء على كل قطر بحسب عدد السكان ؟ ان احترام الشعر واجب ، غير أنه لاطريقة تنظم المهرجانات ولاعدد الشعراء الكبير يفسح المجال لتذوق هادىء يتناسب مع جلال الشعر وعذوبته ، لذلك لاأبالغ ان قلت ان اجمل القصائد كانت الكلمة الرفيعة الثقافة التي افتتح بها السيدالشاذلي القليبي وزير الثقافة التونسي مهرجان الشعر ، فهي نتاج ثقافة عميقة متزنة قادرة على استيعاب المشكلات وطرح البدائل وتقديم استبصارات بومضات من الفكر الأصيل الشامل . وقد أعدنا نشرها هي وتعليق السيد محمد المصمولي كأحلى هديتين من تونس العربية الخضراء .

رئيس التحرير

الوحدة العربيّة

وكيف يمكن أن تتحقق في الواقع والحياة

ظهير عبد الصمد

في أيلول وتشرين أول ١٩٧٢ أصدرت مجلة « المعرفة » عدداً خاصاً عالجت فيه قضية الوحدة العربية . وقد كتبت في هذا العدد بحثاً أشرت فيه الى أن الوحدة العربية هي اتجاه تاريخي له طابع الحتمية ، وأن هناك عوامل مختلفة متناقضة تفعل فعلها في تسريع أو في عرقلة هذا الاتجاه التاريخي ، كما أشرت الى ان الجماهير العربية في مختلف أنحاء الوطن العربي ، والقوى الوطنية والتقدمية فيه هي القادرة من خلال التنسيق

والتعاون والعمل الموحد على تحقيق هـذا الاتجاه التاريخي بحكم العوامل الموضوعية المتوفرة أو التي يمكن أن تتوفر، وبحكم الحاجات الملحة التي يتطلبها تقدم البلدان العربية وتطورها في مختلف المجالات ، وأشرت أيضاً الى ان السير نحو الوحدة يتم عبر صراع طبقي حاد بين قوى الوحـدة والتقدم والاشتراكية وبين قوى التجزئة والامبريالية والصهيونية والرجعية .

واليوم أود ان اعالج كيفية المساعدة على تسريع عملية توحيد البلدان العربية والاشكال التي يمكن ان تتحقق فيها الوحدة العربية ، في ضوء الظروف الموضوعية المتوفرة في البلدان العربيـة ، وفي ضوء دروس بعض التجارب والنماذج التي تمت في الوطن العربي .

آراء القوى المعيقة لعملية توحيد البلدان العربية :

ان هناك قوى معيقة لعملية الوحـدة العربية تكونت وتتكون بفعل ظروف خارجية واخرى داخلية . بفعل الامبريالية والصهيونية والرجعية الداخلية . والنضال ضد هذا الثالوث الاسود والانتصار عليه هو نضال ضد هذه القوى المعيقة في عمليـة الوحدة العربية .

في ظروف التجزئة التي تعيشها البلدان العربية ، كيف يمكن السير نحو الوحـدة؟ وهل هناك امكانيات واقعية لتحقيق الوحدة العربيـة او لتقارب حقيقي بين البلدان العربية ؟ أم ان الوحدة والحديث عنها لا يخرج عن نطاق الاحلام أو الرغبات ؟.

ان هذا الموضوع كان ولا يزال مجال حوار ونقاش بين صفوف العديد من القوى الوطنية والتقدمية ، بـين صفوف الشيوعيين والتقدميين من مختلف المدارس الفكرية وخاصة خلال ابحاثهم ومناقشاتهم الداخلية ومع الآخرين،ومن اجل وضع برامجهم السياسية. وقد اتيحت لي فرصة المشاركة في أكثر من ندوة ومع أكثر من فريق تقدمي .

ان فلاسفة التجزئة يؤكدون انطلاقاً من التطور الظاهري للبلدان العربية قبيل وبعد الحربين العالميتين الاولى والثانيـة ، ومن فشل بعض التجارب الوحدوية ، بان العرب لايسيرون نحو الوحدة ، وانما نحو الانفصال وتكوين دويلات« مستقلة »، ويشيرون الى اتساع وتزايد عدد الدول والامارات العربية حتى وصلت الى مـا يقرب من ١٧ دولة وامارة ، ويقولون ان « الحبل عـلى الجرار » ! كما يشيرون الى ان العرب لم يعرفوا في

تاريخهم القديم والحديث دولة مركزية واحدة تشمل كافة الاراضي العربية الا في عهد الخلفاء الراشدين وفي العهد الاموي ، وانه منذ ذلك الوقت وحتى الان ظل العرب شيعا متفرقة وقبائل متقاتلة ودويلات متطاحنة تحارب بعضها البعض ، وان الحاضر كالماضي او الماضي كالحاضر ، وينطلقون من ذلك الى نفي اية امكانية للوحدة العربية في الحاضر وفي المستقبل ، وكأنها ضد تطور الاشياء ومخالفة للمنطق والقوانين .

وبعض هؤلاء يشيرون الى ان الوحدة العربية في حال تحققها في الظروف الراهنة هي خطوة الى وراء ، وانه لايمكن السير نحو الوحدة العربية الحقيقية الا في ظل الاشتراكية، والاشتراكية فقط ، وانه فقط بين دولتين عربيتين اشتراكيتين أو أكثر يمكن السير نحو الوحدة العربية ، أما قبل ذلك وحتى بين بلدين عربيين تقدميين كسورية ومصر (خلال الوحدة المصرية السورية) فالوحدة التي تتم بينها لاتتسم بطابع تقدمي ، وعلى القوى التقدمية في البلدان العربية ، في رأي هؤلاء ، أن تناضل اولاً من أجل الاشتراكية وبعد تحقيقها يمكن الحديث عن الوحدة العربية ، أما قبل ذلك فالوحدة العربية قد تعرقل تحقيق الاشتراكية. أي أنهم يضعون قضية الاشتراكية بمعارضة الوحدة العربية ، ويربطون قضية الاشتراكية بقضية التجزئة، ويرون امكانية الوصول الى الاشتراكية فقط في ظل التجزئة والدويلات الصغيرة .

ويرى هؤلاء ان من مضيعة الوقت والجهد ، النضال لتحقيق الوحدة العربية، وأنه من الأفضل في رأيهم العمل لتحسين الظروف المعاشية للجماهير في اطار كل قطر ، وعدم الاهتمام بقضايا الاقطار العربية الاخرى ، ويقولون « ان العامل والفلاح يهمها تحسين شروط حياتها المادية والمعاشية اكثر من اهتمامها بفلسطين او بتحرير الاراضي المحتلة في عدوان ١٩٦٧ » فكأن هناك تعارضاً في رأي هؤلاء بين تحسين الشروط المادية للجماهير وبين حماية أوطاننا من الاعتداءات الامبريالية والصهيونية ، وتحرير الأراضي العربية المحتلة من قبل اسرائيل .

ان ضيق الافق الوطني والأممي عند هؤلاء يعكس روحاً من العدمية القومية، روحاً لاوطنية، روحاً كوسموبوليتية ، تتستر زوراً وبهتاناً بالأممية والطبقية، انهم يظلمون العمال والفلاحين عندما يتنطعون للكلام باسمهم ، ان العامل والفلاح إبنا هذا الوطن ومستعدان للذود دائماً عن حدوده ، والتضحية في سبيل ذلك ، وهما لايريان أي تعارض

بين النضال من أجل تحسين شروط الحياة المادية للعمال والفلاحين ، والنضال من أجل تحرير أراضينا المحتلة . ان هاتين المهمتين تكملان بعضهما البعض .

وبعض هؤلاء انطلاقا من خوفهم من الوحدة العربية يعملون لاخافة القوى التقدمية والاشتراكية في العالم من هذه الوحدة ويزعمون ان اقامة الوحدة العربية سيكون مركزاً معادياً للتقدم ومناوئاً للاشتراكية ، مركزاً يضعف من تعاون حركة التحرر العربية مع قوى السلم والاشتراكية في العالم . وينسى هؤلاء عمق ارتباط حركة التحرر العربية العضوي بالتقدم الاجتماعي ، وان هذه الحركة في حال تحقق الوحدة العربية وتشكل دولة عربية كبيرة ستكون اكثر ارتباطاً بالتقدم الاجتماعي لأنها ستكون اكثر تأثيراً وتفاعلا مع الحركة الثورية العالمية ، واكثر تعاوناً معها .

وهناك من يربط قضية الوحدة العربية بالاسلام ، وينظر اليها كرديف للاسلام ، انطلاقاً من ان الاكثرية الساحقة من الامة العربية تدين بالاسلام . مع ان الواقع، هو ان الاسلام كدين شيء والوحدة العربية كمفهوم شيء آخر. ان هؤلاء تحت ، تأثيرات دينية وطائفية ضيقة، يقفون من الوحدة العربية موقف الحذر والخوف أو موقف الشك والكره، وقد ينزلق بعضهم عن العداء والمحاربة .

ان أغلب فلاسفة التجزئة ينفون وجود الامة العربية في الماضي والحاضر والمستقبل، وبعضهم يقر ويوافق على انتماء « شعوب » البلدان العربية الى القومية العربية، وبعضهم ينفي حتى هذا الانتماء الى القومية العربية ، والموافقة على انتماء هذه « الشعوب » الى القومية العربية لايعني أبداً الاعتراف من قبلهم بوجود الامة العربية ، فالانتماء الى قومية معينة شيء ، ووجود الأمة شيء آخر . ان بعض هؤلاء يقرون ان شعوب هذه البلدان هي من أصول وسلالات عربية أو تفاعلت مع العرب واندمجت معهم من خلال التمثل ، ولكنهم لايرون في مثل هذه الشعوب انها جزء من الامة العربية .

ان بعض الاوساط التقدمية ، وخصوصاً بعض عناصرها اليسارية ، لايرتاحون الى البحث في قضايا الوحدة العربية أو الأمة العربية أو القومية العربية ، ويحاولون الابتعاد عن كل مايمت بصلة الى قضايا العرب والعروبة وقضايا حركة التحرر العربية (الا اذا اضطروا الى ذلك اضطراراً) انطلاقاً من أن هذه الابحاث وهذه الاحاديث هي قضايا بعيدة عن « الأممية» ،بعيدة عن أفكار الماركسية اللينينية والأممية البروليتارية،وكأن

الماركسية اللينينية في عقلية هؤلاء هي طراز محدد من التفكير خارج عن اطار الزمان والمكان ، ولايجوز تجاوزه أو ابحاث محددة لايجوز الخروج عنها ، كما لايجوز التصدي لابحاث جديدة . او كأن أفكار الماركسية اللينينية محصورة في أناس معينيين لاتخرج عنهم أو في حزب معين من الاحزاب، ونسي هؤلاء ان افكار الماركسية اللينينية هي علم غير محصور او محتكر من قبل فئة من الناس او حزب من الاحزاب . او كأن قضايا الأمة العربية والوحدة العربية والقومية العربية في رأي هؤلاء وامثالهم من الابحاث التي لايجوز معالجتها من قبل الماركسيين والشيوعيين .

ان الخوف من القيام بهذه الأبحاث ، سواء أكان ذلك من قبل التقدميين واليساريين أو من قبل الرجعيين واليمينيين ، يعكس الخوف من الوحدة ومن الوصول الى استنتاجات تدعم الاتجاهات الوحدوية التقدمية ، كما يعكس لدى البعض ميولا كوسموبولوتية «عدمية قومية » أو ميولا اقليمية أو طائفية أو ميولا قومية ضيقة ، أو دفاعاً عن مصالح مادية ، مصالح طبقية اقطاعية أو رأسمالية ، أو عن مصالح قبلية عشائرية .

ان فلاسفة التجزئة هؤلاء يقومون بتبرير « الواقع الراهن » ، واقع التجزئة ، بشتى المبررات الرجعية والتقدمية والدينية والطائفية والاقليمية والتاريخية والطبقية والعشائرية ، ولا شك أن كل هذه التبريرات – رغم استنادها الى بعض الوقائع الملموسة – ليست واقعية ، وهي تأخذ الواقع الجامد وتعطيه طابع الديمومة والاستمرار ، تأخذ جزءاً من الواقع وتنسى أو تتجاهل حركة المجتمع المستمرة والتغيرات الهائلة ، هذه الحركة التي هي غير مرئية أحياناً ، ولكنها موجودة دائماً وأبداً .

صعوبات أمام تحقيق الوحدة العربية :

لاشك ان هناك صعوبات أمام الوحدة العربية ، صعوبات جدية ، فالبلدان العربية في صورتها الراهنة تعيش في تمزق مؤلم ، وأجزاء واسعة من أراضيها محتلة من قبل اسرائيل ، ومؤخراً من قبل ايران ، ولا تزال بعض الاراضي المحتلة في المغرب العربي بيد الاسبان ، والثروات النفطية العربية لاتزال كميات كبيرة منها في يد الاحتكارات الامبريالية الأمريكية والانكليزية والفرنسية ، وكذلك ثروات باطن الأرض المختلفة ، والتخلف مازال بنوعيكلكله على الامة العربية ويعوق مسيرتها نحو التقدم ونحو العصر الحديث والطبقة العاملة . والقوى التقدمية ، مازال بعيدة عن الوحدة ، أو عن التقارب

الحقيقي فيا بينها ، والصراعات الحادة بين الدول العربية التقدمية لاتزال قائمة ومستمرة، والحفاظ على الكينونات الصغيرة والدويلات هو السائد عملياً ، ومن أجل ذلك وبسبب ذلك ، لايبدو في الافق القريب المنظور أن الوحدة العربية ستتحقق ، أو أن البلدات العربية تسير عملياً نحو الوحدة ،رغم أن كل القوىوالاحزاب الوطنية والتقدميةتتحدث عن الوحدة العربية وتشير اليها كهدف لكل نشاطها وأعمالها وسياستها ، وبسبب ذلكيبدو أيضاً لدعاة التجزئة ومتفلسفيها أن مايقولونه ويبشرون به ينسجم مع واقع الاشياء ومع تطور الحوادث ، وأن الوحدة كهدفهي شيءمثالي وخيالي ، رغبات عاجزينوضعفاء، رغبات لاتنبثق من الحياة والواقع ، وانما تنبع من أوهام التاريخ .

الوحدة العربية حاجة موضوعية :

ان الوحدة العربية وتحقيقها عملياً في الواقع والحياة ، حاجة موضوعية ، حاجة ملحة ، فبدونها لا يمكن العرب أن يحققوا أهدافهم الوطنية والاجتماعية ، أهدافهم في التحرير والديموقراطية والتقدم الاجتماعي بصورة كاملة ، وبدونها سيظل العرب ضعفاء وعرضة للاعتداءات من قبل الدول الامبريالية والصهيونية ومن قبل بعض الدول المجاورة للأراضي العربية ، وكما حدث مؤخراً في مناطق الخليج ، واحتلالايران لبعض الجزر العربية ، وكما حدث أيضاً لبعض الجزر في البحر الأحمر واحتلالها من قبل اسرائيل ، كما تشرفي الصحافة مؤخراً ، وبدونها لايمكن للبلدان العربية أن تحمي أراضيها وثرواتها النفطية ، كما لايمكن لها أن تدخل بقدمثابتة العصر الحضاري وتتغلبعلى التخلف وبقايا القرون الوسطى وعلى العلاقات القبلية والاقطاعية .

ان الوحدة العربية لاتعنيفقط ضم بلد عربي الى آخر، وتشكيل دولة من اقليمين او أكثر وانما تعني ايضاً وبالاضافة الى ذلك : ١) اقامة علاقات اوثق بين جماهير البلدان العربية ، تبادل الخبرة والمعونة والتعاون من اجل الارتفاع معاً الى مستوى اعلى في سلم التقدم والتنمية وفي مجالالثقافة والتصنيع، والافادة من مختلف الطاقات والامكانيات للسير بخطى احزم واسرع نحو اقامة مجتمع عربي متطور ومتقدم اجتماعياً ، ٢) كما يعني ثانياً، اقامة حكومة مركزية عربية، تسير فيخط التقدم والاشتراكية وفق تخطيط علمي مدروس ، وليس هناك مثل الحكومة المركزية من يعمل لصهر الفوارق وازالتها والقضاء على التشتت والتبعثر ويزيل بقايا الاقطاع والروح القبلية والعشائرية .

وواضح ان السير نحو الوحدة ليس سهلا ، فالقوى المعيقة لهذه الوحـدة ليست ضعيفة، وهي تنشط دفاعاً عن مصالحها الطبقية والاقليمية، وبالاستناد الى الدعم الامبريالي والصهيوني والرجعي تستطيع أن تحافظ على وجودها وتحمي « الواقع الراهن » القائم في البلدان العربية وتحقق بعض « الانتصارات » الجزئية على قوى التقدم .

ولكن تطور الحوادث السريع في المنطقة العربية ، وازدياد خطر اسرائيل على حركة التحرر العربية ، ونشاط الاحتكارات النفطية العالمية لابتلاع ونهب الثروات العربية ، وبقاء الاحتلال الاسرائيلي للمناطق العربية في سيناء وغزة والقدس والضفة الغربية والجولان ، وعدم وجود آفاق منظورة قريبة لازاحة هذا الاحتلال ، كل ذلك يضع امام الجماهير العربية في مختلف اقطارها ، وخاصة في بلدان المواجهة ، أكثر من سؤال عن فائدة وجدية بقاء هذه الدويلات العـاجزة عن رد العـدوان ، عن استرداد الاراضي المحتلة ، عن حماية الثروات المنهوبة ، عن حماية المواطنين العرب والاراضي العربية وتحقيق الأمن والطمأنينة لهم .

قد لا تكون هذه الاسئلة والاستفهامات واردة تماماً هكذا ، ولكنها بمحتواها ومضمونها موجودة في اعماق كل مواطن عربي ، في اعماق كل عامل وفـلاح وكل مثقف ثوري .

فالى متى تبقى الامة العربية هكذا عرضة للتهديـد ، عرضة للشتات والتمزق ؟ الى متى ؟

نحن نشكل أمة « ممزقة » مجزأة تتطور اجزاؤها بأشكال مختلفة ، وبأشكال غير متناسبة وغير متناسقة ، من جهة ، وتجري محاولات التنسيق والتوحيد فيما بين أجزائها المختلفة من جهة ثانية ، ويمكن القول ان هـاتين العمليتين المتغايرتـين لأشكال التطور تسيران معاً وبصورة مطردة في البلدان العربية، منذ ماقبل الحرب العالمية الاولى وحتى الآن ، ولكن فيما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية وقبلها كانت البلدان العربية مغلوبة على امرها ومحتلة ؛ وكان النضال من اجل الوحدة العربية يبرز ويتجلى من خلال العمل لطرد المحتلين وتشكيل حكومات وطنية مستقلة ، وكان هذا النضال يشغل كل وقتهـا تقريباً . اما بعد ذلك ، بعد الحصول على الاستقـلال ، وتشكل الحكومات الوطنية ، فالسير نحو الوحدة لم يتحقق عملياً ، وظلت كل دولة أو دويلة او امارة تعمل لتوطيد « واقعها » وتعزيز « وجودها » بسبب ان الطبقات التي وصلت الى الحكم بعد الاستقلال ،

كانت الطبقة البورجوازية او الطبقة الاقطاعية التي سلكت سبيل البورجوازية واندمجت معها ، وبسبب فقدان المنظمات السياسية للطبقة العاملة وجماهير الفلاحين او ضعفها ، والتطور غير المتناسب الذي بدأ في عهود الاحتلال استمر في عهود الاستقلال، واستمرت التجزئة ولا تزال .

تشكل الجامعة العربية

واتجاه الوحدة والحاجة اليها تجلى في برامج بعض الاحزاب السياسية التقدمية في العديد من البلدان العربية . كما تجلى في أشكال التضامن والدعم المتبادل بين جماهير البلدان العربية خلال المعارك الوطنية ضد المحتلين ، فاي حدث وطني في أي بلد عربي في شمالي افريقيا أو في مصر أو في العراق وسورية ، كان يهز الجماهير العربية ويحركها بسلك واحد . وكذلك تجلى في تشكيل الجامعة العربية ، وقد بنيت لدى البعض آمال كبيرة في البدء على الجامعة العربية ومؤسساتها ، والمنظمات التابعة لها ، ولكن سير الأحداث الواقعية أزال ماتكون من أوهام حول الجامعة العربية ، وبين أنها لاتعدو ان تكون خطوة على الطريق نحو الوحدة العربية ، فيما اذا لم تعط أكثر من حجمها ، وفيما اذا استفيد من مؤسساتها في تحقيق نوع من التنسيق في مختلف المجالات بين البلدان العربية .

ان الجامعة العربية لم تنشأ بالاستناد الى حركة شعبية ، وانما بالاستناد الى قرارات من فوق،قرارات حكومية عربية وغير عربية ، وكان يمكن لها أن تحظى بدعم جماهيري واسع — رغم الشكل الذي تشكلت فيه — لو أنها استندت الى الجماهير الشعبية في أعمالها وقراراتها ولو أنها وثقت بهذه الجماهير وصارحتها بالحقائق الحلوة والمرة .

والجامعة العربية وميثاقها واسلوب عملها وممارساتها ، بدلاً من أن تقوي الاتجاه نحو الوحدة العربية أخذت لأسباب مختلفة ، عربية وداخلية ولأسباب دولية ، تعمل في اطار « الواقع الراهن »، واقع التجزئة ، وكأن هذا « الواقع الراهن » هو واقع ثابت وأبدي ، وأخذ العديد من الحكومات العربية ، وبالاستناد الى الجامعة العربية وميثاقها ، يدافعون عن وجود أماراتهم ودويلاتهم وأقاليمهم ، وكأن من مهام هذه الجامعة العربية ، الدفاع عن الكيانات الصغيرة والأقاليم الصغيرة والدويلات الصغيرة .

مع أنه من الواضح الجلي أن هذه الكيانات والدويلات والدول ، لاتستطيع ،

وليس بقدرتها لا الآن ولا في المستقبل، الدفاع عن وجودها في زحمة المعترك الدولي ، في زحمة الاطماع الامبريالية والصهيونية ، كما أنه ليس في قدرتها ولن تستطيع لا الآن ولا في المستقبل أن تحقق تنمية حقيقية ، وهي ستظل كما هي الآن تشكل اما امتداداً للدول الامبريالية وسوقاً لبضائعها ومورداً للمواد الأولية والطاقة ، كما هو الحال بالنسبة البلدان العربية غير التقدمية ، أوتشكل عبئاً على حلفائها وأصدقائها ، في شؤون الدفاع والتنمية والتصنيع ، كما هو الحال بالنسبة للدول العربية التقدمية .

ان روح المحافظة على الواقع الراهن الذي يسود عمل الجامعة العربية ، وفقدان روح التغيير الثورية في أعمالها ، واتجاهاتها ، لن تجعل منها أداة السير نحو الوحدة ، وهي في أحسن الظروف لن تكون سوى أداة تنسيق ، وتسويات بين البلدان العربية ، وأداة تعبير عن المواقف العربية المشتركة المواقف السياسية والاقتصادية ، ومثل هذا الدور في الظروف الحالية فيه كثير من الفائدة وضروري .

الوحدة المصرية السورية

والخطوة العملية الثانية باتجاه الوحدة بعد الجامعة العربية ، كانت الوحدة المصرية السورية ، وهذه الوحدة تمت بالاستناد الى حركة شعبية واسعة في سورية ، والى دعم برلماني وحكومي في مصر وسورية ، وكانت موضع الأمل بالنسبة لحركة التحرر العربية، وفيها تحقق العديد من الانجازات الوطنية والاجتماعية ، في ظلها صدرت قوانين الاصلاح الزراعي ، كما تمت تدابير التأميم وتحت تأثيرها جرت التغيرات الهامة في العراق واليمن ... الخ ، وكان ذلك كله نقاط استناد قوية لحركة الوحدة العربية ولحركة التحرر العربية .

وقد دفع هذا كله الأوساط الرجعية الداخلية المدعومة من قبل الرجعية العربية، ومن قبل الأوساط الامبريالية للتآمر على الوحدة وفصل البلدين العربيين مصر وسورية عن بعضهما البعض وتم ذلك في ٢٨ أيلول ١٩٦١، وبذلك أجهضت أول تجربة عملية للوحدة ، ولكن حدوث ذلك لايعني أبداً أن الوحدة العربية كهدف وكشعار قد فشل ، ان الوحدة العربية لاتزال كما كانت مطمحاً جماهيرياً وحاجة موضوعية لحركة التحرر العربية والحركات التقدمية فيها .

ان اجهاض الوحدة المصرية السورية ، يعود الى أسباب عدة داخلية وعربية

ودولية ، فالوحدة المصرية السورية ، التي استندت بقيامها الى الجماهير الشعبية الواسعة ، لم تعتمد تماماً على هذه الجماهير المؤمنة بالوحدة والتقدم والاشتراكية في ممارسة شؤون الادارة والحكم ، لم تعتمد على القوى والأحزاب الوطنية التقدمية وانما اعتمدت على أجهزة الحكم البيروقراطية واستخدمت أساليب غير ديموقراطية ، وسلطت أجهزة القمع على القوى الوحدوية والاشتراكية ، وأوجدت مايشبه الحاجز معها وبذلك عزلت نفسها نسبياً عن القوى الثورية في العالم . وتمكنت خلال ذلك القوى الرجعية والانفصالية من أن تتسلل الى مختلف أجهزة الحكم ، وأن تتلبس لبوس « الوحدوية » وتتآمر في الخفاء لنسف هذه الوحدة .

وهذه الوحدة لم تعتمد الاسلوب الفيدرالي وانما سلكت أسلوب الوحدة الاندماجية ، ولم تراعي بشكل مرن وذكي ظروف سورية ومدى تطورها وأدى ذلك الى بعض الممارسات التي أسيء فهمها من قبل البعض واستغلت من قبل البعض الآخر ، ولم يكن في مراكز المسؤولية الأساسية في سورية عناصر مؤمنة حقاً وصدقاً بالوحدة والاشتراكية وانما كانت عناصر اما معدومة الكفاءة واما عناصر رجعية تعمل للتخريب أكثر مما تعمل للبناء .

ولكن مآثر ومنجزات هذه الوحدة لاتزال عالقة في أذهان الجماهير في سورية ، رغم بعض السلبيات التي ظهرت خلال الممارسة ، ولا يزال اتجاه الوحدة في أوساط الجماهير الشعبية حياً وقوياً ، وهو مرتبط بالتقدم الاجتماعي والاشتراكية ، والطبقة العاملة السورية كانت ولا تزال تعمل وتناضل من أجل الوحدة والاشتراكية .

اتحاد الجمهوريات العربية

والتجربة الثالثة لقضية الوحدة العربية هي ، « اتحاد الجمهوريات العربية »الذي يضم مصر وسورية وليبيا ، وهذا الاتحاد يعتمد الاسلوب الكونفيدرالي ، فالى جانب مجلس الأمة والحكومة المركزية،لايزال في كل من مصر وسورية وليبيا حكومات ومجالس شعب ورؤساء جمهورية ، ويجري من خلال اللقاءات بين الرؤساء الثلاثة للجمهورية ، تنفيذ دستور هـذا الاتحاد ، والاتفاق على عمل الحكومة المركزية ومجلس الامـة ، وتنسيق العلاقة بين حكومات الاتحاد الثلاث في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية ... الخ .

ومن السابق للاوان القول ان هذا الاتحاد قد اكتمل شكله النهائي ، فهناك مفاوضات تدور من زمن بين مصر وليبيا من أجل اقامة وحدة اندماجيــة بينهما في اطار دولة اتحاد الجمهوريات العربية .

ان هذا الاتحاد لايزال موضع الأمل ، والخطوات التي يسير فيها ، والأعمال التي يقوم بها ، هي موضع اهتمام الجماهير العربية في مختلف الأقطار العربية ، وهناك ثقة واملا بان الصعوبات التي تواجه هــذا الاتحاد — مهما كانت كبيرة أو صغيرة — سيتم تجاوزها والتغلب عليها سواء أكانت في الميادين الفكرية أو السياسية والاجتماعية أو في أي ميدان آخر .

ان هذا الاتحاد لايزال موضع الأمل ، وهو قد يصبح نقطة ارتكاز واقعية لدولة الوحدة ، فيما اذا استطاع أن يجتذب اليه الجماهير العربيــة الواسعة في مختلف البلدان العربية ، وفيما اذا استطاع ان يحقق انجازات واقعية في ميدان تحرير الأراضي العربية المحتلة من قبل اسرائيل في عدوان ١٩٦٧ ، وفي مجال التخطيط والتنمية على نطاق دولة الاتحاد وعلى نطاق كل دولة فيه وفي مجال تكوين سوق عربية واحدة لدولة الاتحاد أولاً ومن ثم للدول العربية الأخرى من أجل تحقيق الاستقلال الاقتصادي وتحقيق مثل هــذه الخطوات وخاصة الخطوة الاولى المتعلقة بازالة عدوان اسرائيل على اراضينــا المحتلة ، تشكل نقطة انطلاق كبرى لاتجــاه الوحدة والتقدم ، وضربة قاتلة للاتجاهات الانفصالية والاقليمية والعشائرية ، والقوى الامبريالية والصهيونية والرجعية .

والقوى التقدمية في سورية تعمل من أجل تعزيز هذا الاتحاد وتقوية دوره عربياً ودولياً ، والتغلب على الصعوبات التي قد تنشأ فيه ، وكذلك العديد من القوى التقدمية العربية والقوى الثورية والاشتراكية في العالم .

ولكن القضية التي تطرح نفسها هي أن هذا الاتحاد لايزال خطوة على الطريق وهو لايلبي تماماً أهداف الجماهير العربية ، ولكن هذا هو المتوفر في الظروف الحاليــة وينبغي الافادة منه وتعزيز دوره اكثر فاكثر في خدمــة حركة التحرر العربيــة وجماهيرها الواسعة .

كيف يمكن السير نحو تحقيق الوحدة العربية ؟ :

ان القضية المطروحــة الآن هي كيف يمكن السير بخطى اكثر حزماً نحو تحقيق

الوحدة العربية ؟ وكيف تحققت الوحدات بالنسبة للشعوب المختلفة ؟ هـل تم ذلك عن طريق المجالس الشعبية فقط ، أو عن طريق قرار من الدول والحكومات التي اتحدت مع بعضها ؟ أم تم ذلك عن طريق حركات شعبية واسعة ، وتنظيمات سياسية في مختلف هذه الدول والحكومات؟ كيف اتحدت البلدان العربية سابقاً ، وكيف توحدت المانيا وايطاليا والولايات المتحدة ؟.

الأسلوب الألماني لا يمكن سلوكه الآن :

واضح أن الاسلوب الالماني في عملية التوحيد غير متوفرة شروطه الآن بالنسبة للبلدان العربية ، وكذلك النموذج الايطالي والامريكي والقوى الدولية لن تسمح بذلك الآن ، ولا توجد حكومة عربية قادرة على تحقيق هـذا الاسلوب في الظروف الراهنة ، والرأي العام العربي غير مهيأ لهذا الأسلوب ، وكذلك الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين في مختلف البلدان العربية . ومثل هـذا الاسلوب لم تكن له فرص مناسبة في الماضي ، الا خلال حملة محمد علي باشا على سورية (بمعناها الواسع ، أي بلاد الشام التي تضم فلسطين والاردن ولبنان وسورية وبعض مناطق العراق وتركيا) وعلى الجزيرة العربية ، ولكن الضغط الأجنبي أدى الى احباط هذه العملية التوحيدية ، ولا ندري هـل ستتوفر ظروف وامكانيات لمثل هذا الاسلوب في المستقبل البعيد نسبياً ؟ ولكن الواضح أن هذا الاسلوب ليست له مبررات الحياة في الظروف الراهنة أو في الآفاق القريبة المنظورة .

القرارات من فوق لا تكفي لتوحيد البلدان العربية :

وواضح أيضاً أن اتخاذ القرارات من فوق، بمعزل عن الجماهير العربية ومنظماتها التقدمية وأحزابها السياسية، من أجل توحيد البلدان العربية أو بعضها، وايجاد حكومات وحدوية أو اتحـادية ، ليس بالاسلوب الناجح ، فهو اذا لم يفشل وينتكس ، يواجه صعوبات وعقبات . ان مثل هذه القرارات تكون مفيدة ، وهي لا بد منها ، اذا سبقها اعداد شعبي وتحضير جماهيري، واذا كانت مدعومة ومؤيدة من القوى السياسية التقدمية أو من قسم كبير منها ، وتمت وفق تخطيط علمي مدروس ، وأخـذت الظروف الدولية والعربية بعين الاعتبار ، واستفادت من كافة امكانيات الدعم المتاحة والمتوفرة دولياً وعربياً، واذا أخذت اولاً وآخراً نسبة القوى الفعلية والحقيقية داخلياً وعربياً ودولياً.

لا بد من جبهة وحدوية وبرنامج وحدوي :

ان العمل لتحقيق الوحدة العربية لا يمكن أن يرتجل ارتجالاً ، فهو بحاجة الى دراسة معمقة لظروف كل بلد عربي وأوضاعه السياسية والاجتماعية والتركيب الطبقي فيه ودور كل طبقة ، كما هو بحاجة الى تنظيم دقيق يشمل مختلف البلدان العربية . انه بحاجة الى جبهة وحدوية منظمة تضم كل القوى العاملة من أجل الوحدة العربية والتقدم الاجتماعي والاشتراكية او حزب اشتراكي وحدوي له فروع في كافة البلدان العربية . انه بحاجة الى برنامج وحدوي يتفق عليه مع قوى الوحدة والتقدم الاجتماعي والاشتراكية، سواء أكانت هذه القوى موجودة داخل الحكومات العربية التقدمية أو داخل الاحزاب التقدمية أو في صفوف الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين والمثقفين الثوريين .

وهذا البرنامج الوحدوي ينبغي أن يتم اعداده وتحضيره من خلال لقاءات القوى الوطنية التقدمية في ندوات أو مؤتمرات ، واذا تم الاتفاق على الخطوط الاساسية الرئيسية لهذا البرنامج ، وهو سيتم حتماً ، فينبغي أن يجري العمل لتشكيل حركة وحدوية اشتراكية ، حركة جبهوية على نطاق البلدان العربية ، حركة تضم كل المؤمنين والمناضلين من أجل قضية الوحدة والاشتراكية وهذه الحركة الجبهوية يمكن أن تكون الاداة العاملة والداعية لقضية الوحدة ، وتأمين الدراسات اللازمة ، وأشكال النضال المختلفة ، وفق الظروف الملموسة داخل كل قطر ، وعلى النطاق العربي وفي ضوء الوضع الدولي والعلاقات المختلفة مع الدول الأجنبية .

أهم أفكار البرنامج الوحدوي :

ويمكن أن تكون أهم بنود البرنامج الوحدوي في رأيي هي البنود التالية ، وأذكرها هنا كأفكاروليس كبنود محددة تماماً .. أو مصنفة وفق ترتيب معين :

١ ـ البلدان العربيةالمختلفة من مراكشوموريتانيا حتى العراق تشكل امةواحدة هي الامة العربية .

٢ ـ مصلحة هذه البلدان العربية الوطنية والاجتماعية تتأمن بتعاون هذه البلدان مع بعضها البعض ، وفي السير نحو تحقيق دولة عربية مركزية تؤمن مصالح الجماهير العربية ، مصالح الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين والحرفيين والمثقفين الثوريين وتسير باتجاه التقدم والاشتراكية .

٣ – العمل وفق تخطيط علمي مدروس بدقة لاستخدام الثروات العربية والطاقات العربية من أجل التنمية والتصنيع ومن اجل الخلاص من التخلف وبقايا القرون الوسطى والعقلية الاقطاعية والعشائرية والقبلية والاقليمية .

٤ – حل القضايا القومية للشعوب غير العربية والتي تعيش مع العرب في أراضي متجاورة او مشتركة بشكل ديموقراطي، والاسلوب السوفيتي لحل هذه القضايا يصلح ان يكون النموذج الذي تسير وفقه الدولة العربية سواء اكانت اتحادية او غير اتحادية .

٥ – العمل لايجاد تنظيمات عربية موحدة للطبقة العاملة وكذلك للفلاحين والحرفيين، ويمكن الاستفادة من التنظيمات القائمة حالياً ، وهذه التنظيمات تقوم بعد دراسة علمية شاملة بوضع الخطط الموحدة لكل تنظيم على النطاق العربي .

٦ – ايجاد فروع لهذه الجبهة الوحدوية في كل بلد عربي تعمل لنشر الوعي الوحدوي الاشتراكي واعداد الجماهير فكرياً وتنظيمها لتكون عنصراً فعالاً في خدمة قضية الوحدة والاشتراكية .

٧ – ايجاد نوع من الانضباط لهذه الجبهة الوحدوية ، نظام داخلي، يجري اعداده وبحثه بصورة مشتركة مع مختلف الفرقاء الذين يشكلون هذه الجبهة الوحدوية .

٨ – وفي حال وجود عناصر او فئات او احزاب وطنية تقدمية لم تدخل في الجبهة الوحدوية ، فينبغي العمل باستمرار لاجتذابها الى هذه الجبهة والحوار معها وتفهم مواقفها . وكلما كانت هذه الجبهة اكثر اتساعاً كلما كان ذلك أفيد لقضية الوحدة والاشتراكية .

٩ – قضية الديموقراطية داخل دولة الوحدة قضية أساسية الديموقراطية للقوى الوطنية التقدمية ، للقوى المؤمنة بالوحدة والاشتراكية ، وكل اعتداء على هذه القضية سيضعف من دور دولة الوحدة وسيؤدي لعزلها عربياً ودولياً .

١٠ – من مهام هذه الجبهة الوحدوية ، العمل على النطاق الدولي وبين القوى التقدمية والاشتراكية لشرح أهمية الوحدة العربية في المعركة المعادية للامبريالية بشكلها القديم والحديث ، وان هذه الوحدة ستكون قوة للحركة الثورية العالمية وسنداً للحركة الاشتراكية في العالم . ولايمكن لهذه الوحدة أن تقوم بمعزل عن القوى التقدمية العربية ، ثم لايمكن لها ان تقوم بمعزل عن دعم القوى الثورية والاشتراكية في العالم

١١ – على هذه الجبهة الوحدوية ان تخوض معارك النضال بقوة ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية وان تكون أداة التغيير الشوري باتجاه تحقيق الوحدة العربية ، وباتجاه طرد المحتلين الاجانب من الاراضي العربية ، وباتجاه تحرير الاراضي العربيةالتي احتلتها اسرائيل،وباتجاه دعم حركة المقاومة والدفاع عنها وحمايتها من المؤامرات والضربات التي تتعرض لها .

١٢ – تعميم التجارب الناجحة في البلدان العربية التقدمية والعمللابرازجوانبها الايجابية وفائدتها لحركة التحرر العربية ولقضية الوحدة والتقدم الاجتماعي.

١٣ – العمل بجد من اجل تكوين سوق عربية حقيقيــة تؤمن الاستقــلال الاقتصادي وتحقيق التعاون الاقتصادي الواسع بين مختلفالبلدانالعربية ، لتشدالروابط الاقتصادية فيما بينها اكثر فاكثر ولتشعر كل دولة بحاجتها القصوى الى البلدان العربية الأخرى .

وهناك أشياء أخرى يمكن ان يتضمنها البرنامج الوحدوي وبشكل عام أو مفصل.

ومثل هذا البرنامج بحاجة الى جهود الاحزاب السياسية التقدميــة والمفكرين التقدميين والاقتصاديين ، وحبذا لو قامت مجلة المعرفة ووزارة الثقافــة في الجمهورية العربية السورية باعارة هذا الموضوع الاهتمام الكافي ، فالبحث فيه قد يضع اللبنــات الأولى الضرورية لهذا البرنامج .

والقضية في الأساس هي قضية الناس المؤمنين بقضية الوحدة والاشتراكية، ولابد لهذه القضية من أن تجد المعبرين عنها والعاملين لأجلها . والدول العربيــة التقدمية بحكم وضعها وامكانياتها قادرة اكثر من غيرها على السير في هـذا الطريق والعمل لانجازه .

الدكتور عزة مريدن

طواعية اللغة العربية وغناها في التعبير عن العلوم

مما لاشك فيه ، أن لغتنا العربية من أقدر اللغات على التعبير وحسن الأداء ،بل من أقواها على الاشتقاق والنحت والتصريف ، وأغناها في المفردات والصيغ والأوزان، فلقد أدت منذ الماضي السحيق ، على لسان الشعراء والادباء والخطباء ، كل ما يريدون قوله ، وتهجس به نفوسهم ، كما أنها لم تعجز في عصر العرب الذهبي ، عصر الاسلام والدولتين الأموية والعباسية ، عن أن تكون لغة العلوم التي جاء بها العرب ، في الطب

والفلسفة والكيمياء والجبر والفلك والعلوم الاجتماعية المختلفة ، فلقد انتشرت اللغة العربية في تلك العصور ، حتى عمت معظم الشرق وبعض الغرب ، مما جعل الكثيرين من العلماء غير العرب ، يختارونهــا للدراسة والتأليف ، لتفردها بالمزايا الكثيرة التي جعلتهــا من أصلح اللغات للتعبير عن المسائل العلمية المختلفة ، فهي التي جعلت ابن سينا والفارابي والرازي والطوسي والأهوازي وكثيرين غيرهم ، يؤلفون ويدرسون ويعلمون باللغــة العربية ، مع أنهم جميعاً ليســوا من العرب أصلا ، وقد بتنا نعتبرهم عرباً ، لأنهم تثقفوا بلغة العرب ، وألفوا بلغة العرب ، وعاشوا ونشروا آراءهم وعلومهم ومصطلحاتهم في بلاد العرب ، فهل كان هؤلاء جميعاً ، يتحولون عن الانتاج بلغاتهم الأصيلة السهلة ، لو كانت اللغة العربية ، فقيرة ضحلة مجدبة ، أو لم تكن ينبوعاً ثراً غنياً بالبذل والعطاء ، وكيف استطاع التراجمة الغربيون كـ (جيرار دوكريمون) وهو من اكبر مترجمي القرن الثاني عشر ، أن ينقل الى اللاتينية قانون ابن سينا ، وان ينقل كتاب الجراحة لأبي القاسم الزهراوي ، وان ينقل غيرهما أيضاً ، ثم نقول بعجز اللغة العربية اليوم ، عن نقل العلوم والمصطلحات الحديثة ، بل كيف يقر العقل والمنطق والتاريخ ، امكان الترجمة من العربية الى اللاتينية ، ثم ينكر هذه الامكانية المعكوسة ؟

ولقد ترجم (ريمون داجه ن) رئيس أساقفة طليطلة ، رسالة الروح لابن سينا الى الفرنسية ، ثم اخذ بقية التراجمة ، ينقلون تراث العرب اليا ، حتى فاق مــا ترجموه (٣٠٠) مجلدة ، وبذلك انتقلت علوم العرب الى الغرب ، كما أحصى (لوكلرك) بين هذه الكتب المترجمة في الطب والجراحة نحواً من (٩٠) مجلدة ، لكبار الاطباء والجراحين العرب ، كالرازي وابن سينا وابن زهر وأبي القــاسم وغيرهم . يقول الفيلسوف الالماني (هومبولد) : « لم يقتصر العرب على حراســة كنوز المعارف التي عثروا عليها ، أو الاكتفاء بنقلها الى لغتهم ، بل أضافوا اليها الشيء الكثير ، في مختلف العلوم ، وفتحوا طرقاً جديدة للبحث في أسرار الطبيعة ، كيف لا وأبو القاسم ، كان أسبق الجراحين الى سد الشرايين النازفة ، وصاحب طريقة فريدة في تفتيت الحصى في المثــانة ، وأول من أشار بالبتر حين حدوث المثوات (غنغرينا) » ولعمري بأية لغة درس أو نقل أوالف هؤلاء العرب الذين عناهم (هومبولد) إن لم يكن باللغة العربية . ويقول المؤرخ الفرنسي الكبير (جرمان) : « إننا نشهد لعلماء العرب ، الذين كتبوا في الموضوعات العلميــة والطبية ، بمزية الإيضاح التام والطريقة التعليمية » أفكان يشهد (جرمان) وامثــاله

بمزايا العرب في مؤلفاتهم وطرائقهم التعليمية ، وينعتونها بالإيضاح التام ، لو لم تكن في الواقع كذلك ؟

وهذا الشيخ الرئيس ، أبو علي بن سينا ، لو لم تلق اليه اللغة العربية مقاليدها ، ولو لم تطعه في التعبير وحسن الأداء ، لما بلغ به البطر والسرف ، أن يصنع أراجيزه الطبية الكثيرة ، أو يجيب المرضى شعراً ، أو يؤلف كتاب الشفاء في الفلسفة وما فيها من مصطلحات ورموز ، أو كتاب القانون وما يضم بين صفحاته من كلمات وأسماء ومصطلحات علمية في التشريح والامراض والادوية ، أو ينظم قصيدته العينية الرائعة في وصف الروح ، وهي من عيون الشعر ، تضمنت أقصى ما يراود عقل الفيلسوف المفكر ، من شوق الى معرفة الحقيقة ، يقول في وصفها جبران خليل جبران : « قد نجد المطالع فيما نظمه كبار الشعراء الغربيين ، مقاطع متفرقة ، تذكر بما جاء في قصيدة ابن سينا ، ففي روايات (شكسبير) الخالدة ، أبيات تشبه بمعناها قول ابن سينا :

وصلت على كره اليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع

أو في أقوال (شيلي) ما يماثل :

سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجّع

أو في تأملات (غوته) ما يضارع :

وتعود عالمة بكل خفيّة في العالمين وخرقها لم يرقع

أو فيما قاله (براوننغ) ما يضاهي :

فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

ولكن الشيخ الرئيس ، قد سبق هؤلاء جميعاً بقرون عديدة ، ووضع في قصيدة واحدة ، ما هبط بصورة متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة » .

هذا الشيخ الرئيس لم يكن عربي الأصل ، وتتنازع نسبته اليها أمم كثيرة ، فنحن ندّعيه منا والينا ، ونقيم الدليل على ذلك بكتبه ومؤلفاته الكثيرة ، ولا سيما بقانونه الذي ظل نبراس الأطباء في الشرق والغرب ، اكثر من ستة قرون ، ويدّعيه الفرس والأتراك والروس ، ويقيم كل منهم له مهرجاناً ايضاً .

وفي مؤتمر الأدباء العرب الثاني ، قال عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين : « لقد أثبتت اللغة العربية أنها لغة طامحة حريصة ، تسيغ وتهضم كل ما تلقاه أمامها من أنواع البحث والعلم والحضارة ، على اختلاف فروعها ، فكل ما كتبه اليونان والرومان ، أساغته اللغة العربية ، وحولته الى ثقافة واحدة ».

ويقول العالم (تاردو) : « لقد كانت المدنية أول نشأتها يونانية لاتينية ، فاقتبسها العرب ، وترجموا الآثار اليونانية والفارسية والهندية ، وأتقنوا تعلّمها ، وما عتّم غير قليل ، حتى طبعوا هذه الثقافة بطابعهم ، وأضافوا اليها كثيراً من مبتكراتهم وآرائهم ، ذلك أن العرب ، بعد أن وطدوا دعائم الملك العريض ، الذي استولوا عليه بفتوحاتهم ، أضحى همّهم أن يضموا الى عظمة الفتح ، عظمة العلم » .

ويقول العالم (لوكلرك) : « لم يكد ينقضي القرن الثامن ، حتى كان العرب قد ملكوا جميع علوم اليونانيين ، وحتى أضافوا اليها الكثير مما ابتكروه أو نقّحوه أو جددوه ، وحتى اجتمع لهم في خزانة قرطبة وحدها ، زهاء (٦٠) الف مجلد ، في مختلف العلوم والفنون ، واللغة والآداب » . فليت شعري كيف استطاع العرب آنذاك ، أن يلكوا جميع العلوم اليونانية ؟ والى أي لغة ترجموها إن لم تكن اللغة العربية ؟ وكيف امتلأت بطون هذه الكتب بالعلم ومصطلحاته ؟ وكيف عجزت أساطين الطب والرياضيات والفلك والكيمياء عن آرائهم ؟ وهل عجزت اللغة العربية آنذاك ، عن نقل جميع المصطلحات العلمية أو وضعها أو نحتها أو تعريبها ؟ ويقول (لوكلرك) ايضاً : « لم يكن العرب نقلة فحسب ، بل ساروا سريعاً الى طور التوليد ، وظهر منهم نوابغ في الطب والجراحة ، كأبي القاسم الزهراوي ، الذي كان في علمه وفي الجراحة خاصة ، منقطع النظير ، وآية من آيات عصره ، حتى انتهت اليه رئاسة الجراحة في القرون الوسطى ، وبعد

كتابه المصور في الجراحة، الذي وضع فيه طرائقه ومبتكراته في الفنون الجراحية، مع مختلف الآلات والأدوات التي صوّرهـا أحسن تصوير، آية كبرى بين المؤلفات العربية الرائعة.

وإذا تركنا العلم والطب، الى الأدب والشعر والبيان، لرأينا كثيراً من فحول الشعراء والأدباء والكتّاب لم يكونوا في الأصل عرباً، بل وجدوا في اللغة العربية، كل ما يرضيهم للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم، فأبو نواس، وبشار بن برد، وأبو العتاهية وابن المقفّع، وسيبويه، كلهم كانوا فرساً، وابن الرومي، الشاعر المفلق، كان أبوه رومياً وكانت أمه فارسية، ومع هذا كله، فان هؤلاء جميعاً، حينما عاشوا في البيئة العربية، واختلطوا بها وتثقفوا بلغتها، انطلقت من كوامن نفوسهم عيون الشعر وروائع الأدب، وصنفوا في نحو اللغة وصرفها، ونظموا الدواوين، وأنشأوا من المصنفات، ما لا يزال خالداً على الزمان، وأني لأتحدى أن أديب في العالم، أو أي لغوي في أي لغة من لغات العالم، أن يكون في أدبه أو لغته، من يستطيع أن يؤدي بأقصر عبارة وأرق أسلوب، تضمن الكثير من العواطف والمشاعر والأحاسيس، في سطر واحد، بل في بيت واحد من الشعر القصير، ما أداه الشاعر العربي الرقيق في قوله:

وتلفتت عيني فمذ خفيت ... عني الطلول تلفّت القلب

وفيما قاله عنترة العبسي في معلقته:

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ ... مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

أو فيما قاله فيلسوف المعرة في احدى قصائده:

خفف الوطء ما اظن أديم ... الارض الا من هذه الاجساد

وفي كتاب اعجاز القرآن، للكاتب العربي الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي، وصف خلاّب، لما جاء في الآيات الطويلة أو القصيرة من رائع المعاني، وكبير القدرة على جليل الوصف وحسن الاداء، بأقصر أسلوب وأروع بيان، واذا كانت اللغات تحيا وتنمو بروائعها الأدبية والشعرية، فانها تحيا وتنمو أكثر وأكثر بعلومها ومصطلحاتها.

فلقد تطور العلم بفروعه كافة ، ونشأت عن هذا التطور وجوه جديدة للقول فيه ، وصفاً وتعريفاً أو شرحاً وتصنيفاً ، لهذا كان لابد من تزايد مفردات اللغة ، بعد وضع المصطلحات العلمية ، وضمها الى صميم اللغة العربية ، واذا كانت لغتنا قد نمت فيما مضى من الزمن ، بالاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب ، فقد نمت اليوم ، بعد تطور المعارف والعلوم والحضارة ، بهذه الوسائل نفسها، حتى تستوعب خلجات النشاط العقلي والنفسي، وتساير ركب الحضارة العلمي السائر حثيثاً نحو الأمام . وللعلامة اللغوي المرحوم الأمير مصطفى الشهابي ، بحوث مستفيضة في كتابه عن المصطلحات العلمية وكيفية وضعها وتوحيدها ، وهو تحفة رائعة تنير السبيل أمام الباحثين والمحققين ، فهو يقول مثلاً في كتابه هذا : (لقد اشتق العرب من الفلس فعل أفلس ، ومن الذهب فعل ذهّب ،ومن البحر فعل أبحر ، مثلما اشتقوا أمطر وأثلج ـ وهندس وفهرس وكثيراً غيرها) وأني لأتساءل ، هل علينا بعد هذا لوم أو تثريب إذا قلنا في لغة الطب اليوم : أفاد ،وأمعد، وأكبد ، وأمثن ، للمصاب بقلبه أو معدته أو كبده أو مثانته .

ثم قال : (و كيف دار على ألسنتنا اليوم ، ما اشتققناه من الكهرباء والمغناطيس والبستان والديوان ، فقلنا الكهربة والمغنطة والبستنة والتدوين ، ثم لم نجد على اللغة ضيراً في هذا الاشتقاق ، بل لقد كانت هذه الاشتقاقات ، خير وسيلة للدلالة على المعاني المشابهة لها باللغات الأجنبية) .

ولقد قاس العرب قطر الأرض ، وخطوط الطول والعرض،وابتدعوا علم الجبر ، واشتغلوا بالكيمياء والفلك والرياضيات والطب والفلسفة ، وعرضوا جميع ذلك بلغة عربية سليمة ، إذ كانت هذه اللغة ، تملأ الدنيا أيام الأمويين والعباسيين ، أيام الوليد والمأمون ، وفي عهود العلماء العرب وغير العرب ممن تثقفوا بلغة العرب وعلومهم ، وكانت خزائن الكتب تكتظ بالمصنفات والمؤلفات ،وليس يعلم غير الله ، عدد الكتب التي ألقيت في نهر دجلة ، في حملة التتار على بغداد ، آخر أيام المستعصم العباسي ،حتى روى الراوون — وان كان في ذلك شيء من المبالغة — إن مياه دجلة ، ظلت سوداء اللون خلال أيام ، ومما لاشك فيه ، أن مجموعة من هذه الكتب ، كانت تختص بالعلوم والفنون الى جانب اللغة والشعر والأدب ؟

واذا كان القرآن العظيم ، قد نزل بلسان العرب ، وقد وسعت لغتهم كلام الله ،

وهو أسمى وأجـل من أن يحصر ويحد ، أنها تتسـع لحاجات البشر في جميـع مرافقهم العلمية والاجتماعية ، ويرحم الله شاعر النيل حين قال على لسان اللغة العربية :

وسعتُ كتاب الله لفظاً وغاية   وما ضقتُ عن آيٍ به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن   فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

الى أن يقول :

أرى لرجال العرب عزاً ومنعةً   وكم عزّ أقوام بعز لغات

وإذا كانت العلوم المختلفة ، ومنها الطب والفلسفة والرياضيات والعلوم الأخرى ، تدرس في البلاد المختلفة ، بلغات أهلها، فهل يجوز لنا نحن العرب أن ندرس هذه العلوم بلغة غيرنا من الأمم ؟ ففي فرنسا يتعلمون بالفرنسية ، وفي ألمانيا بالألمانية وفي اليابان باليابانية ، وفي الصين بالصينية وفي تركيا بالتركية ، فهـل يجوز لنا أن نـستسيغ التعلم الا بلغتنا العربية الاثيرة ؟ وما الذي يمنع بعد هـذا ، أن يتقن رواد العلم ، ولا سيما في عصرنا الحاضر ، لغة أو لغتين ، ليتصلوا بالعالم الآخر، بحيث لا يفوتهم شيء من الاطلاع على مستحدثات العلم وتطوراته .

وإذا قيل إن كثيراً من الكلمات الأجنبية والمصطلحات العلمية الحديثة، قد لا يوجد لها ما يقابلها في اللغة العربية ، أو قد نحتاج لترجمتها الى اكثر من كلمة ، فليس هذا مما تعاب عليه اللغة العربية ، ففي كل اللغات اشباه لذلك ونظائر ، هذا فضلاً عن أن في اللغة العربية ، كلمات كثيرة مقتضبة ، تفيد معنى مستقلاً ، وقد لا تتألف من أكثر من ثلاثة أو أربعة حروف ، مع أن ترجمتها الى لغة أجنبية ، قد تستلزم استعمال ثلاث كلمات أو أكثر أحياناً، فنحن نقول مثلاً – جئت، ويترجمها الفرنسيون بقولهم (Ge suis venu) ومثلها ذهبت – وأكلت وما أشبه، وكلمة يعمل، يقابلها بالانكليزية (He is working) وستكتب (You will write) وذهبنا (we had gone) والأمثلة على ذلك كثيرة في اللغات المختلفة .

وان قال قائل ، ان بعض الكلمات الموضوعة اشتقاقاً أو مجازاً أو نحتاً أو تعريباً لا تنطبق تماماً عـلى المعنى المقصود ، رددناه الى الكثير ممـا يجري على ألسنة الكتّاب

والأدباء والشعراء ، مما لم يكن في الأصل موضوعاً للمعنى المراد منه ، ولكن جريانه على اللسان ، واستعماله في الكتابة والشعر ، وادخاله في عداد المصطلحات الاجتماعية ، التي وضعها العلماء والأدباء ومجامع اللغة العربية، جعلها في الموضع الذي انتهت اليه، الا ترى كثيراً من الكلمات والمصطلحات العلمية والطبية والاجتماعية ، قد أضحت بعد تداولها على كل شفة ولسان ، معروفة ومفهومة ، لدى العلماء والأطباء والمهندسين والكيمياويين والطلاب وسواهم ، بل وكثير من سواد العامّة ، ولا ضير على اللغة العربية إن هي أدخلت في صميمها بعض الكلمات الدخيلة أو المعربة أو المنحوته ، ولا سيما متى تواتر استعمالها عند المتقدمين ، فدرجت على ألسنتهم وألسنة المتأخرين ، دون أن يفطن الى غرابتها الا الباحثون في أصل الكلمات والتحقيق فيها ، ومثال ذلك بعض الكلمات الفارسية ، كالنرجس ، والديباج ، والدرهم ، والدولاب ، والبريد ، والديوان ، حتى لقد اشتقت من بعضها أفعال كثيرة كما نقول مثلاً دوّن اشتقاقاً من الديوان ، بل انه لتوجد في القرآن الكريم — وهو المرجع الأكبر للغة العربية — بعض الكلمات الدخيلة مثل سندس ، وجهنم ، واستبرق وغيرها ، وليقضي الواجب علينا أن نضع كلمات جديدة بالمعاني المستحدثة ، للتعبير عما جدّ من المستحدثات من جراء تطور العلم في نواحيه المختلفة ، وقد فعل هذا كثير من الأمم فادخلوا في لغتهم كلمات جديدة مستعارة، فحينما دارت على الألسنة منذ سنوات ، تلك الكلمة الانكليزية ، التي وضعها أحد الاطباء الامريكيين وهي كلمة ، (stress) ، وقد ترجمناها نحن بالشدة ، فان الافرنسيين قد صرفوا من هذه الكلمة — الدخيلة فعلا فقالوا(stresser)و(maladie stRessante) وغير ذلك . وقد استعمل اجدادنا العرب كثيراً من المصطلحات العلمية ، التي لم تكن معانيها الاصلية، تدل على معانيها الاصطلاحية كالحج والزكاة فقد جاء في لسان العرب: (الحج هو القصد . وحج الينا فلان ، قَدِم) ونقول نحن في لغة الطب حج الجمجمة أي قصدها وفتحها حتى يصل الى الدماغ ، والشائع على الالسنة أن الحج اصطلاح هو القصد الى بيت الله الحرام ، وجاء في اللسان ايضاً : (الزكاة : الصلاح وزكاة المال تطهيره وأصل الزكاة في اللغة ، الطهارة والنماء والبركة ، فالزكاة طُهْرة للأموال وهو معناها الاصطلاحي المعروف .

ومثل ذلك ما اطلقه رياضيو العرب على العلم الذي ابتكروه : علم الجبر ، وهو العلم الشائع المعروف مع أن كلمة الجبر في الاصل ، معناها الاغناء من الفقر ، وجبر

العظم التحامه واصلاحه ، فاستعيرت هذه الكلمة للدلالة على هذا العلم ، للتشابه بين المعنى الاصلي والمعنى الاصطلاحي ، وقد شاعت هذه الكلمة في اللغات الاجنبية بهذا الاسم نفسه فقيل (algebre) ، ومثلها كلمة التشريح التي يعرف الاطباء معناهــا بمجرد سماع الكلمة ، ومع أن عـلم التشريح لم يكن معروفاً عند العرب القدماء ، فـان هذه الكلمة الموضوعة ، أضحت كافية للدلالة على المعنى المقصود منها ، عند الاطباء والعلماء بـل سائر الناس .

يقول العالم (كاجوري)»: ان العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر، فكثير من النظريات المتأخرة ، جاءت على ألسنة علماء العرب وذكروها في مصنفاتهم ، وللفارابي نظرية في الجاذبية تشبه كثيراً نظرية (اينشتاين) فيها ؛ فهل كان هذا من توارد الخاطر مع تفاوت الزمن ، أم أن القبس الذي شع من علوم العرب، مهّد الطريق أمام المتأخرين ، فالتقت خواطر (إينشتاين) بخواطر الفارابي ، مثلمــا التقت آراء (دانتي) في رواية الجحيم ، بفلسفة ابي العلاء المعري في رسالة الغفران ، إن لم يكن قد اخذها عنها » وليس يملك احدنا اليوم الا الدهشة وشديد الإعجاب والإجـلال ، حينما يسمع الفارابي وهو يتنبأ بغزو الفضاء فيقول :

محيط السموات أولى بنا فلِمْ ذا التزاحم في المركز

ولا شك أن العلماء العرب ، قد أوجدوا لمكتشفاتهم في العلوم والفنون ، اسماء ومصطلحات ، سواء أكان ذلك في الفيزياء التي جاءت في كتب الكندي أو البيروني أو ابن يونس الذي كان أول من أوجد الرقاص قبل (غاليلو) بسبعة قرون ، وسواء فيما أورده الطبري ، صاحب (عيون المسائل في أعيان الرسائل) من شرح واف للأثقال النوعية في جدول تضمن الذهب والفضة والزئبق والرصاص والنحاس والحديد والزيت واللبن ، وقد قاسها بالنسبة إلى المـاء العادي، فجاء فيها اختلاف بسيط عما هي عليه اليوم ، إذ تقاس بالنسبة للماء المقطر ، ولا مجال للتساؤل عما اذا كان هذا الذي اكتشفه العرب في مختلف العلوم والفنون والرياضيات والطب والفلك والكيمياء والفيزياء ، ظـل بدون اسماء ومصطلحات ، ذلك ان كتبهم ومصنفاتهم مملوءة بالأسماء التي وضعوها والتي لا يزال الكثير منها مستعملاً في يومنا الحاضر ، وهل يمكن أن نغفل ما وضعه ابن الهيثم صاحب النظريات القيمة في الفيزياء البصرية ، من أسماء ومصطلحات ما تزال مستعملة وشائعة الى اليوم ، كالانعكاس والانكسار وحادثة الشفق وزاوية الرؤية وظاهرة قوس

قزح ، وطبقات العين المختلفة ، والتي يقول عنها الاستاذ مصطفى نظيف في كتابه عن البصريات : لقد كان ابن الهيثم من أعظم مؤسسي هذا العلم،فقد كانت مؤلفاته ومباحثه، المرجع المعتمد عند الغربيين ، حتى القرن السادس عشر ، ثم جاء من بعده من نسج على منواله واقتفى أثره ، فما بدأ به ابن الهيثم ، أكمله العالم (نيوتن) ومثل ذلك (الكاشي) عالم الرياضيات العربي وواضع اسس الكسر العشري ، والخوارزمي صاحب كتاب الجبر والمقابلة ، الذي ظل الينبوع الذي يستقي منه علماء الغرب ، ردحاً طويلاً من الزمن ، وله في ذلك مخطوطة محفوظة في جامعة (اكسفورد) وفيها شرح للمعادلات والجذور والرموز الرياضيــة ، ومثله (الطوسي) الذي الف كتباً كثيرة في المثلثات والهندسة والرياضيات بفنونها ومصطلحاتها ، وقد أخذ عنها علماء الغرب المتأخرين ، وقام بنو موسى بحساب طول درجة من خط النهار، وأثبتوا كروية الأرض ، وعرفوا طول السنة الشمسية ، واستعملوا الآلات والأدوات ، فليت شعري بأي لغــة ألـّفوا وكتبوا وعلـّموا وتعلموا ، ان لم يكن باللغة العربيــة وبأي لغة وضعوا المصطلحات العلمية ، لمكتشفاتهم في العلوم المختلفة، وكيف نتنكر لسبق العرب في وضع الألفاظ العربية للكواكب والأبراج ،وهي التي لا تزال تستعمل في اللغات الاجنبية ، بنفس الاسم الذي وضعه العلمـاء العرب ، كالعقرب (Acrab) والجدي (aigedi) والطائر أوالطير (altair) وإبط الجوزاء (Beteigeuse) والسمت (Zenith) وغيرها كثير من الالفاظ والمصطلحات العربية ،التي نقلت كما هي الى اللغات الاخرى، وكيف نستطيع إغفال ما اعترف به علماء الغرب المنصفون،عن فضل العرب في السبق ووضع المصطلحات العلمية ، ونحن نقرأ ما جاء في المعلمة الفرنسية ، ان كتاب الادريسي في الجغرافيـا ، يعتبر أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى ، ويقول المؤرخ (سارطون): ان كتاب معجم البلدان لياقوت ، منجم غني بالمعرفة ، وليس له نظير في سائر اللغات ، ومثله كتاب تقويم البلدان ، الذي وضعه « ابو الفدا »أمير حماه والذي ترجم الى اللاتينية في القرن الثامن عشر ، وكان مرجع كثير من علماء الغرب . ويقول العالم « سيبولد » : لقد قضى الادريسي شطراً من حياته في اعداد اول خريطة عالمية صحيحة ، مبنية على الاصول العلمية والحقائق الفنية الثابتة ، التي لا تختلف كثيراً عما هو معروف في عهدنا هذا ، ويجدر بنا ان نقف قليلاً عند قصة هذا الادريسي ، إذ أنه حينما أفل نجم العرب عن جزيرة « صقلية » وحكمها النورمانديون ، وجدوا أن لا منـاص لهم من إدخال اللغة العربية بين اللغات الرسمية ، وقرّبوا العلماء العرب للانتفاع بهم،وحافظوا

على آثارهم ، ودعا حاكم « صقلية » آنذاك « روجه الثاني » ، الشريف الادريسي الذي نحن بصدده ، للتأليف في الفلك ، فوضع كتابه الشهير « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، كما وضع خريطة للعالم ، وتوقـّع وجود أمريكا في الطرف الثاني من الأرض، قبل اكتشافها ببعض قرون ، وقد تعلم كثير من الغربيين لغتنا العربية ، ليستطيعوا ترجمة الكتب والمصنفات العلمية الكثيرة ، وكانوا يرتادون مجالس العلم والعلماء ، لينهلوا من معينهم ، حتى ان « روجه الاول » أمر أن تكون كتب الادريسي ، المرجع العلمي الصادق ، وحث « فردريك الثاني » على دراسة علوم العرب ، حتى كان ابناء الفيلسوف ابن رشد ، يقيمون في بلاط الامبراطور ، ليعلـّموه وأولاده ، وباللغة العربية ، دروس النبات والحيوان ؛ أفلا يستدل من جميع ذلك ، على أن اللغة العربية كريمة معطاءة ، قادرة على استيعاب كل الثقافات ، وغنية بحسن الأداء والتعبير عن العلوم ومصطلحاتها المختلفة ، وفضلاً عن ذلك ، فان لغتنا العربية قد أغنت كثيراً من اللغات الاخرى ، ومنحتها غير قليل من الكلمات ، بل اكثر بكثير مما أخذت عنها ، ففي اللغة الفرنسية ، كلمات مأخوذة عن العربية ، ومثالها : المد « وهو المكيال المعروف « almude » ، والبقجة « وهي الصرة المعروفة « Bagage » . والضيعة « aldée » وأمير الماء أو قائد الاسطول « amiral » والبطيخ « pastèpue » ، والأوج « وهو المكان المرتفع augc » ، والغول او الكحول « alcool » وقال الانكليز « alcohol » ، والحبل « Cable » ، والسكر « Sucre » وهـذه الكلمة الأخيرة أخذتها كل اللغات من العربية، فقال الانكليز «Sugar» وقال الايتاليون «succhero» وقال النروجيون « sukker » وقال الاسبانيون « azucar » وقال الألمانيون « Zucker » وغير ذلك من الكلمات .

واني لأسمح لنفسي بعد الذي ذكرته ، ان أقدم مثالاً حياً على طواعية اللغة العربية ، وقدرتها على الاحاطة واساغة العلوم في الوقت الحاضر ، وانها ليست عاجزة عن ان تكون لغة العلم والابتكارات ، لغة الطب والمخترعات ، وهذا المثال ، يتجلى واضحاً في التجربة الرائدة التي حملت لواءها جامعة دمشق ، منذ ما كانت الجامعة السورية ، ولم يكن فيها آنذاك غير معهدين ، أحدهما للطب والثاني للحقوق ؛ فقد قام في المعهد الطبي العربي ، منذ تأسيسه عام ١٩١٩ — اساتذة نبشوا الكنوز اللغوية التي ألـّفت بها كتب الطب القديمة ، كقانون ابن سينا — وكامل الصناعة ، ومفردات ابن البيطار ، وتذكرة ابن داود وغيرها من الكتب العلمية او اللغوية،ووجدوا فيها ضالـّتهم لاختيار المصطلحات

العلمية ، ومع ان معظم الأساتذة الذين اختيروا للتدريس في هذا المعهد (الذي اصبح كلية فيا بعد) كانوا ممن تلقوا علومهم في المعاهد التركية او الفرنسية فقد شمروا عن ساعد الجد والعمل ، ونفذوا الى صميم المعاجم المختلفة ، ووضعوا كثيراً من المصطلحات العلمية التي لم تكن موجودة ، وقد برز من مبين هؤلاء الأساتذة ، ثلاثة كان لهم الفضل الأول والأكبر ، في تعريب الطب ووضع المصطلحات العلمية الكثيرة . وهم المرحوم الأستاذ جميل الخاني والمرحوم الأستاذ مرشد خاطر والأستاذ الفاضل احمد حمدي الخياط مدّ الله في عمره ، حتى لقد دعا احد الأساتذة الظرفاء ، الجهود الذي قام به هؤلاء الأساتذة ، بعهد الخاآت الثلاثة (خاني ، خاطر ، خياط) ، وتابع الأساتذة الذين جاءوا بعدهم ، هذا الجهود الأول ، وظهرت اعمالهم في المصطلحات العلمية والطبية ، من خلال مؤلفاتهم ، ومنهم الأساتذة حسني سبح ، شوكة الشطي وكاتب هذه السطور وغيرهم ، وماهي الا بضع سنين ، حتى كان كل استاذ قد وضع مؤلفاً في الفرع الذي وُسِّد امره اليه وقد حرصوا جميعاً على استمرار اتصال الطلاب بتطور العلم ،فوضعوا في آخر كل كتاب ، معجماً للمصطلحات الواردة فيه ، باللغة العربية والفرنسية او الانكليزية ، ولم يمض الا قليل من الزمن حتى امتلأت خزانة الكتب بالمؤلفات الطبية ، وزخرت بطونها بالكلمات والمصطلحات ، المنبوشة او المنحوتة او المشتقة او المعربة او الموضوعة ، وما عتّم غير قليل ، حتى كانت هذه المصطلحات على كل شفة ولسان ، اذ لم تكن هنالك حاجة الى التقعر في اختيار الكلمات أو وضعها ، بل اتبعت في ذلك كل القواعد اللغوية ، في النحت والاشتقاق والتعريب ، وأُبقيت الرموز الكيمياوية على حروفها اللاتينية،كما أُبقي كثير من الكلمات على ألفاظها العالمية، والتي باتت هي هي في جميع اللغات . كالهرمون والفيتامين والأورميا والآليرجيا والغنغرينا — وإن شاء بعض الأساتذة ان يدعوها بالخاثات والحيوينات والتبلوث والتحسس والموات — وأُعيد الى صفوف اللغة العربية بعض الكلمات التي اخذها عنا الغربيون أو أخذناها عنهم منذ القديم كالشراب والقشطرة والوذمة والأدره وغيرها ، ولكننا نبشنا الى جانب ذلك كثيراً من الكلمات القديمة ، التي تفيد المعنى المراد منها ، كالعشاوة والإثغار والبله والجدره والسغل والسُّهاف والعملقة والدحدحة والعصيدة وغيرها،

والآن ، وقد مضى على تأسيس كلية الطب اكثر من خمسين عاماً ، نجد ان اساتذة هذه الكلية ، قد وجدوا بين ايديهم ذخيرة لغوية ثمينة ، أغنوا بها خزانة الكتب الطبية العربية ، بما لا يقل عن ثمانين مجلداً في فروع الطب المختلفة ، وقد تخرج من كلية الطب، عدد كبير من الاطباء ، ينتشرون في مدن الاقليم السوري، وفي كثير من البلاد العربية، وهم يتحدثون عن الامراض واعراضها والادوية المختلفة وفوائدها بلغة عربية مفهومة وغنية بالمصطلحات التي تعلموها ، وذلك الى جانب معرفتهم لغة أو لغتين من اللغات الاجنبية ، ومما ساعد كثيراً على ذلك ، وجود بعض المعاجم القديمة، كمعجم شرف باللغة الانكليزية والعربية — ومعجم (كليرفيل) المتعدد اللغات ، ومعجم المصطلحات الطبية للاساتذة خاطر ، خياط ، كواكبي ؛ كما ساعد ايضاً ما وضعته من الكلمات والمصطلحات ، مجامع اللغة العربية ، في القاهرة ودمشق وبغداد ، واخيراً ما قامت به لجنة التعريب في المغرب ، باشراف العلامة اللغوي الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ، وهناك معجم اخير قيم ، وضعه الاستاذ احمد حمدي الخياط والمرحوم الاستاذ مرشد خاطر وهو لا يزال قيد الطبع ويشرف عليه الشاب الحيوي النشيط الدكتور هيثم الخياط ، ويضم هذا المعجم بين صفحاته، كل ما يخطر على البال من كلمات او مصطلحات طبية او علمية عامة.

وبعد ، فان جميع ما قدمناه من حجج وبراهين ، على طواعية اللغة العربية وغناها في التعبير عن العلوم ، لا يعني أننا نحبذ الاكتفاء بدراسة العلوم باللغة العربية وحدها ، دون الرجوع الى ما قيل أو كتب في غيرها من اللغات ، وليس ينكر أحد فضل التوسع والاطلاع بلغة ثانية ، بل ان الواجب ليقضي على العلماء عامة ، سواء أ كانوا أطباء أم مهندسين أم كيماويين أم غير ذلك ، أن يتقنوا معرفة لغة أو لغتين ، حتى تخرج علومهم ومعارفهم ، من افقها الضيق المحدود ، الى الآفاق العالمية التي يجب ان تكون فيها ، كما يجب ان تكون الحدود واضحة جلية، في الفرق ما بين التعلم باللغة العربية، التي أثبتت جدارتها منذ القديم ، ولا سيا بعد التجربة الرائدة التي قامت بها جامعة دمشق، وبين إتقان لغة اجنبية او لغتين ، كي يظل الاختصاصيون ، على صلة دائمة ، بتطورات العلم ومستحدثاته ، إذ ان الضرورة القومية ، تفرض على العرب أن يتعلموا ويعلّموا بلغتهم ، وأن ينشئوا أبناءهم واجيالهم ، على الفخر والاعتزاز بلغتهم وبقدرتها وكفاءتها ، الى جانب العناية بدراسة اللغات الاجنبية في سن مبكرة ، ولا سيما في التعليم المتوسط والثانوي والجامعي ، وانه لمن المؤسف حقاً ، أن يشعر الاساتذة الجامعيون ، بضعف الاكثرية من الطلاب ، في معرفة اللغات الاجنبية ، كما انه من المؤسف حقاً ، ان يكتفي

خريجو الجامعة ، بما تعلموه في أثناء دراستهم ، إذ ان الانقطاع عن مسايرة ركب النهضة والتطور العلمي ، ينقص الكثير من قيمة حامل الشهادة الجامعية ، والشهادة ليست إلا بداية الطريق وجواز المرور الى الحياة العملية ، ولكن دون الوصول الى المستوى اللائق مفازات شائكة،لا بد للجامعيين من اجتيازها ؛ كي لا يتأخر الركب عن موكب الحضارة العلمية المتسارع . واذا كنا نحن العرب اليوم ، بحاجة قصوى الى الاستعانة بعلوم الآخرين ، والنهل من معينهم ، فليس الذنب ذنبنا ، والتاريخ يشهد لنا بالتفوق والسبق ، حينا كنا قبلة الدنيا ومنارة العلم والهدى ، فلقد عشنا عهد الانحطاط قروناً طويلة في ظل الاستعمار والتخلف ، لذلك فان الواجب يقضي علينا اليوم ، ان نعمل بجد وصمت وهدوء ، ونَعُبّ من الثقافة والعلوم الحديثة ، ونتلقف كل مستطرف جديد ، ونندفع بخطوات ثابتة قوية ، نحو تدعيم كياننا وقوميتنا ، في حاضرنا ومستقبلنا بتقديس لغتنا واجلالها ، اذ هي القوام الاكبر في تثبيت الكيان والقومية .

الدكتور وجيه السمان

هل هنالك من حدود لـ : توغل الإنسان في الفضاء ؟

نريد أن نلخص في الصفحات التالية ماوصلت اليه خبرة العلم حول تأثر الانسان بالوسط الجديد الذي بدأ يعيش فيه الا وهو الفضاء ، وذلك بعدمرور اثنى عشر عاماً على دخوله اليه يوم قام غاغارين رجل الفضاء السوفيتي بدورة كاملة حول الارض في سفينة الفضاء فوستوك – ١ ، استغرقت قرابة ساعتين الا ربع الساعة . ولا بد لنا قبل ذلك من أن نستعرض باختصار مراحل عصر الفضاء الذي مضى على بدايته خمسة عشر عاماً تقريباً .

بدأ عصر الفضاء يوم الرابع من تشرين الأول عام ١٩٥٧ ، يوم اطلق الاتحـاد السـوفيتي في ايصـال اول تابع صنعي — وهو سبوتنيك الأول — الى مدار حول الارض . وكان هذا التابع غاية في البساطة: يتألف من كرة مصقولة صنعت من خليط للالمنيوم كتلتها ٨٣،٥ كيلو غراماً ، لها زوجان من الهوائيات ، وقـد زودت بجهازين مذيعين بسيطين جداً وبالبطاريات الكهربائية الجافة اللازمة للاذاعة .

ولم ينس الناس بعد تلك الضجة الهائلة التي ولدها هذا الحدث التاريخي الفريد ، فقد كان اول مرة استطاع فيها الانسان ان يقذف الى الفضاء جسماً يفلت من الجاذبية الارضية ، ثم تتابعت الاحداث بعد ذلك بسرعة كبيرة .

اعقب هذا الحادث اطلاق عدة توابـع من الجانبين : السوفيتي والامريكي . وقد احتفظ السـوفييت بسبقهم الكبير في هـذا المضمار مـدة طويلة (حتى ظهر صاروخ ساترن الامريكي) مثال ذلك انسبوتنيك٣ الذي أطلقوه في ١٥ أيار ١٩٥٨ بلغت كتلته ١٣٢٧ كيلو غراماً منها ٩٦٨ كيلو غراماً للأجهزة العلمية ، فكانت كتلته (التي تعتبر في تلك الآونة ضخمة جداً) تعادل ٨٨٥ مثلاً من كتلة تابع فانغارد الامريكي او ٩٥ مثلاً من تابع الكشاف ٣ الذي أطلقه الامريكيون في ٢٦ آذار ١٩٥٨ .

ظلت هذه التوابع (أو الاقمار) تقتصر على حمل الاجهزة العلمية ومولدات الكهرباء وأجهزة البث لترسل الى الارض كمية من المعلومات عن الارض نفسها ، وعن الجـو المحيط بها وعن الفضاء المجاور .

ثم اطلق الاتحـاد السـوفيتي في ٢ كانون الثاني ١٩٥٩ مركبة لونيك — ١ (وبلغت كتلتها ٣٦٢ كغ) في اتجاه القمر ، لكنهـا مرت على بعد ٦٥٠٠ كيلو متر منه وتحولت الى كوكب سيار يدور حول الشمس . وفي ١٢ أيلول من العام نفسه اطلق الاتحـاد السوفيتي لونيك —٢ وهي مماثلة لسميتهـا الاولى فاتبعت الطريق المرسوم لها وسقطت على القمر .

وفي ٤ تشرين الاول ١٩٥٩ (أي في اليوم الأول من العام الثالث لعصر الفضاء) اطلق الاتحاد السوفيتي مركبة لونيك — ٣ فدارت حول القمروصورته وبعثتبصورها الى الأرض ولكن هذه الصور اخـذت من مكان بعيد ، قرابة ٦٠ الف كيلو متر ، ومع ذلك فقد استفيد كثيراً من تصويرها لوجه الخلفي للقمر ، الذي ظهر للناس لأول مرة في تاريخ البشرية .

وفي ١٤ أيار ١٩٦٠ اطلـق الاتحـاد السوفييتي السفينة سبوتنيك ـ ٤ وبلغت كتلتها اربعة اطنان ونصف كما اطلقفي اثناء ذلك مراكب تحمل مخلوقات حية منهاالكلاب، وذلك تمهيداً لايصال اول انسان الىالفضاء.

وفي ١٢ نيسان ١٩٦١ وصل اول انسان الى الفضاء ، هو المقدم السوفيتي غاغارين المشهور ، الذي امتطى سفينة الفضاء فوستوك - ١ فاوصلته الى المدار ودار حول الارض دورة واحدة ثم عاد فهبط على الارض بنجاح ودام تحليقه ١٠٨ دقائق . وتبعه تيتوف في ١٦ آب من السنة نفسها في مركبة مماثلة هي فوستوك - ٢ (كتلتها ٤٠٧٣١ طناً) فدار حول الأرض ١٧ دورة وعاد الى الأرض بسلام .

وأول رائد امريكي وصل الى الفضاء هو جون غلين ، وكان ذلك في ٢٠ شباط ١٩٦٢ في مركبة « الصداقة رقم ٧ » فدار حول الأرض ٣ دورات وعاد اليها سالماً .

وفي عام ١٩٦٥ بدأ ملاحو الفضاء يخرجون من مركباتهم الى الفضاء مباشرة. وأول الخارجين هو الكسيس ليونوف السوفيتي الذي خرج من المركبة فوسخود - ٢ الى الفضاء يوم ١٨ آذار ١٩٦٥ ، فمكث فيه قرابة ٢٤ دقيقة ، ثم تبعه ادوارد هوايت الامريكي اذ خرج من مركبته جيمني - ٤ في ٣ حزيران ١٩٦٥ ومكث في الفضاء ٢١ دقيقة . وفي عام ١٩٦٦ خرج سرنان وكولينز وغوردون وآلدرين الامريكيون من مركبات جيمني - ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ ، فمكث الاول في الفضاء اكثر من ساعتين كما مكث الثالث ساعتين و ٤٤ دقيقة وآلدرين ساعتين و ٢٢ دقيقة .

هنا بدأت الأعراض الفيزيولوجية الدالة على عدم استعداد الانسان على تحمل ظروف الفضاء تظهر ظهوراً واضحاً ، فغوردون مثلاً ، الذي مكث في الفضاء في خروجه الأول ٤٤ دقيقة انهك تماماً وبلغ نبضه ١٦٢ ضربة في الدقيقة وفي المرة الثانية اكتفى باخراج نصفه العلوي فقط فبلغ نبضه ١٤٥ مرة في الدقيقة .

وتوالت الرحلات وطال فيها المكوث في الفضاء وختمت أخيراً بمشروع ابولو لنزول الانسان على القمر ، هذا المشروع الذي كلف الولايات المتحدة خمسة وعشرين مليارا من الدولارات ، والمعول فيه على الصاروخ الضخم ساترن - ٥ « زحل - ٥ » وقد جرب أول مرة في أواخر عام ١٩٦٧ وبه حققت الولايات المتحدة أداة قوية لدفع مركبات الفضاء الثقيلة وايصالها الى المدار اولاً ثم الى القمر ثم العودة بها سالمة الى الأرض.

في ٩ تشرين الثاني ١٩٦٧ كان صاروخ ساترن معداً للرحيل . بدأ اشعال النار فيه وظل مثبتاً على قاعدته خلال ٩ ثوان حتى بلغت القوة الدافعة ٣٤٠٠ طناً ثم اخذ يرتفع واحرق خلال الـ ١٥٠ ثانية الاولى ٢٠٠٠ طن من الوقود المحتوى في مستودعاته وانفصل عن الارض ، حتى أوصل الى المدار الأرضي مركبة كتلتها ١٢٦ طناً .

بعد ذلك بـ ١٩ شهراً زاد الامريكيون

ذخر الوقود حتى بلغت كتلة الصاروخ ٢٩٤٠ طناً وحتى تمكن من ان يدفع الى المدار بـ ١٣٤ طناً .

وأول نموذج من مركبات ابولو نزل على القمر هو ابولو - ١١ وكان ذلك في ١٦ تموز ١٩٦٩ فكانت كتلة سفينة ابولو وهي على المدار ١٣٦ طناً وبلغت كتلة المركبة القمرية ١٥ طناً وبلغت مدار القمر في ١٩ تموز وفي ٢١ منه نزل على ارض القمر ملاحا الفضاء الدرين وارمسترونغ .

وكانت آخر رحلة من رحلات ابولو في كانون الأول من العام الماضي وهي رحلة ابولو ١٧ وبذلك ختم هذا البرنامج للرحلات القمرية ولاينتظر ان يقوم الامريكيون في المستقبل القريب بأية رحلة جديدة الى القمر.

على ان رحلات ابولو لاتضرب الرقم القياسي بطول أمد المكوث في الفضاء، لأنها لاتدوم اكثر من ٩ — ١٠ ايام ، والذين تخصصوا بالرحلات الطويلة حتى الآن هم رجال الفضاء السوفييت على متن سفن سويوز . ففي عام ١٩٧٠ قام نيكولاييف وسيفاستيانوف برحلة مدارية للدراسة دامت ١٧ يوماً ، وعادا منها الى الأرض منهكي القوى تماماً ، وفي حزيران من عام ١٩٧١ قام ثلاثة من ملاحي الفضاء السوفييت هم دوبروفسكي وباتسابيف وفولكوف برحلة مدارية على متن سفينة سويوز-١١ استغرقت ٢٣ يوماً ، وهذا هو الرقم القياسي الحالي ، ومن المؤسف ان هؤلاء الملاحين الثلاثة قضوا نحبهم في آخر مرحلة من مراحل العودة الى الأرض .

* * *

تبين من نجاح برنامجي ابولو وسويوز انه ليس ثمة أية عقبة تقنية تعيق تقدم الانسان في طريق النجوم، ولكن السؤال الذي يتردد على ألسنة العلماء هو : هل يستطيع الانسان ببنيته الفيزيولوجية ، وهي كما هي ، ان يمضي قدماً في هذه الطريق ؟ أليس هنالك عقبات فيزيولوجية او سيكولوجية تضع حداً لطول اقامة الانسان في الفضاء ؟ اذا كان الانسان قادراً على قضاء شهر أو شهرين في الفضاء فهل في وسعه ان يمكث فيه اكثر من ذلك، سنة او سنتين لكي يستطيع زيارة المريخ مثلاً ؟

لقد افضى بعض علماء الفضاء الذين يهتمون بهذه القضايا ، بآرائهم في هذه الموضوعات وسنعمد الى تلخيصها فيما يلي :

١ — من الناحية النفسية :

لقد كان ملاحو الفضاء حتى الآن مسمرين في مركبتهم لايستطيعون التنقل بسبب ضيق الحجرة . فهذا الضيق والأسر التقني وبعد الاتصالات بينهم وبين المحطة في الارض يجعل من العسير دراسة أحوالهم النفسية ؛ وهي

ذات انعكاس ايجابي أو سلبي على قيادة سفينة الفضاء وبالنتيجة على مصير ملاحيها . ان انتقاء ملاحي الفضاء ينبغي ان يجري تبعاً لتآلفهم وامكان تمازجهم في حجرة ضيقة سيضطرون الى المكوث فيها . لقد كان نيكولايف وسيباستيانوف مثلاً مختلفين في الطبـاع ، ولكن يمكن تسوية النزاعات في الرحلات القصيرة ، اما في الرحلات الطويلة فلا بد من التقيد بمقاييس ومعايير غير تلك. وينبغي التأكد قبل اطلاق السفينة من ان العمل المشترك لملاحيها سيجري في جو ملؤه الصداقة. واذا كان أعضاء البعثة من جنسيات مختلفة فيقتضي الاهتمام كثيراً بالعلاقات الانسانية بينهم .

يعيش رجل الفضاء أثنـاء الرحلة في جو مصطنع ولا بد له من ان يجد جواباً لحاجات قد تعن له وهي لا تزال مجهولة كيف يمكن التنبؤ بانفعالاته لدى نقصان بعض الألوان أو بعض الروائح ؟ كيف تكون آثار الجو المعدني الصرف الذي يعيش فيه على لا شعوره؟ لا بد من توفير الرضى والارتياح لمعيشته في الفضاء ولا بد له عاجلاً أو آجلاً من التمتع بلذائذ مماثلة للتي تتوفر له على سطح الارض .

وأما حاجته الى الابقاء على صلات مختلفة مع امثاله الباقين على الأرض فمن المحتمل انه لن يستطيع الصبر عليها او مغالبتها اكثر من ثلاثة أشهر ، وان الموازنة بين هـذه الحاجة وبين حاجات المستكشفين الذين ذهبوا الى القطبين او الذين غاصوا في البحـار ، فليس بينها شبه كبير .

واذا كانت العودة الى الحـالة الطبيعية بعد رحلة قصيرة لا تتم بدون بعض الصعوبات فنحن نجهل مايمكن ان تكون عليه انفعالات رجال الفضاء بعد عودتهم من رحلة طويلة الأمد .

ويرى احد خبراء الفضاء الأمريكيين انه بالرغم من انتقاء رجال الفضاء انتقاء دقيقاً ومن التدريب النفساني الحركي الذي يتلقونه فان خشونة العيش في مركبة الفضاء قد كانت سبباً لاجهاد دائم كما كان افتقاد المرافق الصحية الشخصية دافعاً لسخط الملاحـين الدائم . فيزيد ذلك في التنافر الناجم عن ضيق الحجرة التي يعيشون فيها .

لذلك روعي في سفينة الفضاء الجـديدة سكاي لاب (مختبر السماء) التي ستتخذ مكاناً لها على مدار ارضي ، وجود غرفـة خاصة بالشؤون الصحية فهي في الوقت نفسه خارج وغرفة حمام يستطيع رجال الفضاء أن يغتسلوا فيها مرة كل اسبوع . ومن المهم جـداً من الناحية النفسية ان تلمس يد الشخص جميع جسمه اثناء التنظيف .

والتلذذ بالطعام عامل هـام من عوامل التوازن العقلي . لذلك فقد حاز على اهتمام شديد وليس بالامكان توفير الطعام على حسب انتقاء كل واحد من الآكلين ، وانما امكن جعل الغذاء اكثر جاذبية عن طريق المآكل المجمدة او التي هي في حالة وسطية من الرطوبة بحيث يمكن تسخينها . وسيأكل ملاحو سكاي - لاب البفتيك وبيدي كل واحد منهم سكينه وشوكته .

لقد صرح ملاحو ابولو ١٢ ان منظر حجرتهم كان كريهاً جداً. وقد احدث فرش بعض الحجرات اثراً سيئاً جداً في نفوس الملاحين ونشاطهم بالاضافة الى حرمانهم الحسي من اشياء كثيرة . ومن هذه الناحية تظل المشكلة قائمة بأكملها . يجب تولية الانارة والديكور عناية كبيرة وسيستعان في المستقبل بآراء بعض الفنانين بهذا النطاق .

ان الملاح لانشغاله بالمهمات الكثيرة الموكولة اليه لا يشعر في الرحلات العادية بأي شعور بالوحدة ، ولكننا نجهل مايمكن أن يحدث خلال اقامة طويلة على بعد ٥٠٠ او ١٠٠٠ كم من الأرض. لقد بلغ حس الكآبة اشده عند تحليقهم فوق الوجه الخفي من القمر .

ويرى الخبير الامريكي ان توقف العلاقات الجنسية الطبيعية خلال سنة او اكثر من سنة سيولد توترات عاطفية وانفعالية ضارة. وان اشباع هذه الحاجات يزيد من رغد العيش في السفينة . ان فكرة المعيشة المختلطة في سفن الفضاء لم تعد مستغربة طالما ان هذا الاختلاط مسموح به في الجامعات التي تلقى رجال الفضاء فيها علومهم .

٢ ــ من الناحية الفيزيولوجية :

طرأ على رجال الفضاء اثنـاء رحلاتهم تغيرات قلبية وعائية وتغيرات تتعلق بحركة الدم .

ففي خلال مدة قـذف الصاروخ يزداد النبض ثم يثبت عند الوصول الى حالة اللاثقل (اي انعدام الجاذبية) ولكنه يثبت عندئذ على معدل اخفض من معدله النظامي قبـل الطيران . وهو يعود في اغلب الحالات الى الصعود الى قيمته الطبيعية تدريجياً بعد العودة من المهمة .

سجل جهاز تخطيط القلب في الرحلات التي سبقت رحلة ابولو ١٥ بعض حـالات خوارج الانقباض القلبي وحالة عدم انتظـام عارضة . اما ملاحو ابولو ١٥ فقد تعرضوا لخوارج الانقباض وهم على سطح القمر كما ولدى عودتهم الى الارض ، كما لوحظت ١٢ حالة من حالات ثنائية النبض وحـالات انقباضات اذينية وبطينية سابقة لأوانها . وقبل حصول ثنائية النبض بلغ النبض ١٢٠ في الدقيقة . وكانت هذه الاعراض ناجمة عن نقصان البوتاسيوم الذي يساعد في انفعـال عضلة القلب .

وكشفت بحوث جديدة عن تضيق الشكل القلبي نتيجة لنقص ابعاد عضلة القلب ، ولم ينج من ذلك احد من رجال الفضاء الامريكيين وأما ضغط الدم ، الذي يظل ثابتاً اثناء البقاء في الفضاء فيكون ميالاً الى الهبوط بعد انتهاء المهمة ، وتستغرق عودته الى الحالة الطبيعية ١٠ - ١٢ يوماً .

وطرأ على الكتلة العظمية تعديلات بسيطة جداً ولكنها مع ذلك ذات اهمية بالغة ، ولم تحدد اسبابها الى الآن بالرغم من انها ليست تصاعدية . ولوحظ تناقص في حجم العضلات، فهل ينبغي ان يعزى ذلك الى ضعف التحميل الطارىء عليها والى قلة انفاق الطاقة اللذين يحدثان في حالة انعدام الوزن ؟ يمكن ان يعزى ذلك أيضاً الى استقلاب الكالسيوم والى الفقد الداخلية . ولوحظ لدى ملاحي ابولو تغير في حجم الساقين والفخذين ، بحيث ان حجمها الدموي نقص بمقدار ١٠٠ - ٨٠٠ ميللي لتر ، ودام هذا النقصان اكثر من اسبوع . كما لوحظ على ملاحي مركبات سويوز انه بعد البقاء ١٨ يوماً في حالة انعدام الجاذبية اصيبت مراكزهم المحركة باضطرابات جلية، آلام عضلية واضطراب في المشي وضعف في الانفعال .

٣ ـ تغيرات تتعلق بتوزع السوائل والمواد المحلولة في الجسم :

يعتقد ان قسماً من سوائل الجسم يطرأ على توزيعه في حالة انعدام الجاذبية اضطراب، فيفقد الجسم قسماً من مائه ومن املاحه وينقص بنتيجة ذلك حجم الدم ، ويحصل رد فعل فيحتفظ الجسم بالصوديوم بينما يفقد ما فيه من البوتاسيوم ، فينتج من ذلك حماض داخل الحجيرات وقلاء خارجها فتنقص الكثافة العظمية ويضيع البوتاسيوم من الحجيرة العضلية فتنقبض وهذا التضييع يصيب أيضاً عضلة القلب .

واذا كانت الرحلة طويلة الأمد فهنالك الاحتمال الآتي : قد يحصل لهذه التغيرات مايعوضها من الناحية التنفسية والكلوية ، بحيث يقف الوزن عن تناقصه . ويتوقع أن يحصل عندئذ تعود عام للجسم ، ولكن لا يعلم ماستكون نتائج هذا التعود بعد الرجوع من الرحلة . واذا كان التعويض التنفسي غير كاف فسيظل الخطر جاثماً . لقد خسر جميع رجال الفضاء من وزنهم ماعدا واحداً منهم زاد وزنه بمقدار كيلو غرام ولا يعلم سبب ذلك . ان تعقد هذه المسائل يجعل من الصعب معرفة ما اذا كان الزمن سيساعد على حلها أم لا ولا يعلم فيما اذا كان لهذا التعود خطر على حياة ملاحي الفضاء .

وأخيراً يذكر حدوث ١٩ حالة من الدوار و ٩ حالات غثيان و ٣ حالات تقيأ .

٤ ـ الاشعاعات .

كانت جرعات الاشعاع التي أصابت ملاحي

الفضاء دون الحد الذي يسبب افعالاً مرئية محسوسة . وقد وقعت الجرعة الكبرى من التشعع في رحلة ابولو ١٤ . وقد افترض ان الاشعاعات قد اشتركت مع عوامل أخرى من عوامل ملاحة الفضاء . وأهم هذه الظواهر هي الظاهرة التي حدثت لملاحي ابولو ١١ ، اذ شعروا بلمعان ضوئي ناجم عن اصدار جسيمات ثقيلة دخلت الى مناطق مفضلة من شبكية العين .

ان القوانين التي يسير عليها الاندفاع الشمسي وانتشاره غير معروفة بعد . تحدث هذه الظاهرة في جوار الكلف الشمسية . فهل تأتي هذه الطاقة من الانفجارات الحرارية النووية الناجمة عن اندماج ذرات الهدروجين ببعضها بعضاً وتحولها الى هليوم ؟ لايزال الأمر مشكوكاً فيه ،

وأما مايسمى بالريح الشمسية فانها لاتنتشر على استقامة معينة ، ويمضي بعض جسيماتها الى أمكنة بعيدة جداً ويقف بعضها في الطريق وان دراسة هذه الريح صعبة لأنها تتغير دوماً وما دمنا لانستطيع أن نعين بدقة تدفقات هذه الريح فان الحكمة تقضي بالابتعاد عنها . وان أطباء الاشعاع ليقفون موقف الحائر أمام رجل يصاب بجسيمات ذات طاقة عالية أومتوسطة .

لاحظ العلماء الفرنسيون ، في أثر تجارب أجريت على ارتفاع ٢٥ كم ان الايونات الثقيلة اذا أصابت الأدمة تسبب ابيضاض الشعر ، وكشف الامريكيون ابتداء من ٢٠ كم ايونات ثقيلة لايمكن في المختبرات انتاج طاقة بقدر طاقتها ، وهي تصيب حجيرات الدماغ . فماذا يكون رد الفعل المباشر للانسان تجاه هذه الاصابة ؟ وقد عرف أيضاً أن هذه الاشعاعات يمكن أن تحدث استحالات في التوريث .

هنالك بعض المركبات الكيماوية توفر شيئاً من الوقاية من الاشعاعات ، ولكن الجرعة المميتة من هذه المركبات هي قريبة جداً من الجرعة الفعالة ، وان حدود الفعالية ضعيفة جداً بحيث يتردد العلماء في استعمالها .

ولحسن الحظ أن النظام الشمسي يدخل الآن في حقبة مدتها خمسون عاماً سيكون النشاط الشمسي فيها أضعف مما هو عليه الآن ، وذلك يعطي للعلماء فرصة ثمينة للدراسة .

٥ ــ التدابير المعاكسة .

يعطي الاتحاد السوفيتي لملاحيه أدوية لم تعلم طبيعتها ولا فعلها ، ويبدو أنهم يستعملون مواد واقية من الاشعاعات ويرتدي رجال الفضاء السوفييت لباساً واقياً من الثقالة .

وفي الرحلات القصيرة الأمد ينبغي على الانسان أن يتحمل آثار عدم الوزن ، مع أن الأمر قد يصبح حرجاً حين العودة . ومن جهة أخرى لابد للعلماء من البت بأمر عدم الوزن : هل ان الانسان يمكن أن يتعود عليه كلياً أم لا . ويبدو في المرحلة الحاضرة من

العلم أن التأقلم على عدم الوزن هو جزئي فقط، واذا كانت الخسارة في وزن العضلات في الرحلات العادية ذات بال فماذا يكون شأنها في الرحلات الطويلة. ان القلب هو عضلة كغيرها من العضلات، وعند العودة الى جو الارض ينبغي على هذه العضلة المتعبة المنهوكة أن تعود الى القيام بوظيفة فقدت التعود عليها . أفلا يخشى على القلب حينئذ .

والتدابير المعاكسة لا تمر بسلام وبدون مشاكل . ان توليد ثقالة مصطنعة داخل السفينة الكونية هو الضمانة الوحيدة لابقاء الجسم البشري في حالة قريبة جداً من الطبيعية. ولم يبرز الى الآن من التدابير المعاكسة ما هو اصعب او اعسر من التدابير التي تتخذ لايقاف تضييع البوتاسيوم والكالسيوم والاضطرابات القلبية التي ترافق ذلك ، في ظروف انعدام الوزن . نذكر من جملة هذه التدابير المعاكسة التمارين الرياضية والادوية والنظام الغذائي والتنشيط العضلي بالكهرباء .

ان ملاحي ابولو ١٦ بعد ان اعطوا جرعات خاصة اضافية من البوتاسيوم لم تظهر عليهم الاعراض القلبية التي قاسى منها الملاحون الآخرون .

وقد عولجت مشكلة تغيرات الظروف القلبية بواسطة لباس خاص يبقي على الفرق بين ضغطي الدم في اعلى الجسم وفي اسفله .

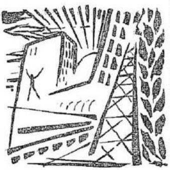
وهذا اللباس هو انفع بكثير من مجرد التمارين الجسمية التي كانت متوقعة حتى ذلك الحين .

ولا يفكر الامريكيون بصنع جهاز يولد ثقالة اصطناعية سواء اكان ذلك عن طريق مركبة فضائية تدور حول نفسها او عن جهاز ثابت يوضع في المركبة لان الملاحين انفسهم لايرون لزوماً لذلك ، وان هذا الجهاز وان كان قد يحسن ظروف السكنى في الفضاء فان تصميمه وصنعه من الامور الصعبة ويكلف مبالغ طائلة .

هذا وقد وقع في كانون الثاني ١٩٧١ اتفاق بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة لتأليف لجنة طبية بيولوجية فضائية مشتركة تجتمع تارة في موسكو وتارة في هيوستن، وقد بدأ الطرفان بتبادل المعلومات المتوفرة لديها وتتجه جهود الوفدين الى اعداد طرائق مشتركة للملاحظة والدراسة قبل الرحلات الفضائية وبعدها .

ويصرح اعضاء الوفدين بان التقدم في الدراسة بطيء وانهم غير راضين عن الشروط الحالية لسلامة ملاحي الفضاء .

والمسألة التي تشغل البال هي معرفة ما اذا كان ثمة حدود بشرية لمدة الملاحة الفضائية وان كان لم يكتشف حتى الآن ما يمكن تفسيره كذلك .



علم جديد ومستقبل أفضل

زهير الكتبي

تطورت الحياة وتشعبت ابعادها وتعقدت مشكلاتها واصبح المردود الاكبر والاجود مهما كان نوعه فكرياً كان ام اقتصادياً .. هدف المؤسسات كافة ، ويتوقف الحصول على المردود المطلوب وفق نظريات الادارة على عمليات متعددة أهمها الرأس القيادي او المدير القائد الذي يستطيع أن يرى مالايراه غيره وان يحيط بجميع الابعاد والعناصر المؤدية لأحسن هدف وأكمل انتاج مستعيناً ببعض التحليلات الرياضية البسيطة

مثل تسلسل البيانات الاحصائية أو القياسات الرقمية او الرسوم البيانية .. بطول باعه وبعد نظره ورهافة حسه وقوة حدسه بالاضافة الى خبراته المكتسبة يمثل عنصر الانتاج الأول في المنشأة مها كان نوعها انه وأمثاله بناة نهضة الأمة وعناصر قوتها الداخلية وطاقتها الخلاقة أبداً ..

هذا الانسان القيادي هل يمكن أن يتوفر وجوده دوماً ؟ وفي حالة وجوده هل تتوفر لديه الامكانات اللازمة للاحاطة التامة بكل الخبرات المطلوبة لاتخاذ القرارات الصحيحة التي لايتطرق الشك اليها ؟ انها أسئلة الاجابة عليها واضحة .. ان من السهل استيراد علم الادارة ولكن بناء الاداريين واصحاب الخبرة عمل صعب ومعقد والذين يقولون باستيرادهم يجب أن يفكروا أكثر من مرة بحماية استقلالنا من السيطرة الاجنبية الادارية والفنية على مقدرات الحياة في بلادنا انه قول خطير لأمة ناشئة تجتاز مرحلة حاسمة في تاريخ حياتها هي مرحلة دفاع اولاً وتطوير في زراعتها وصناعتها والتنقيب عن مكامن الثورة فيها وتنمية مصادرها لتقوى الحركة واستثمارها وتأمين القوى البشرية اللازمة لكل ذلك ثانياً ولاشك أن هذا التطور مرهون بالخطوات الايجابية التي ستتخذ في التريب العاجل في تعبئة الجهود وتنسيقها ورسم الخطط المثلى وتنفيذها على أسس علمية صحيحة . .

وهنا يبرز علم جديد يقدم يد العون للقياديين على اختلاف انواعهم ومراتبهم لاعتماد القرارات الصحيحة واصدار الأوامر المؤدية لاحسن النتاج وأجود مردود . . انه علم تستخدم فيه الاساليب الرياضية التي تعتمد على طرق موضوعية لتجميع وتحليل الخبرات واستنباط الوسائل والاجراءات التي تحقق الهدف المقصود .. ويطلق على هذا العلم اسم « العمليات الادارية الرياضية » ويمكن ايجاز الخطوات العملية لهذا العلم الجديد قبل تفصيلها كما يلي :

فريق من العلماء يضم جميع التخصصات المرتبطة بموضوع معين يعمل على وضع مجموعة من التوابع الرياضية الخطية وغير الخطية التي تحدد الصلات العملية الثابتة والمتغيرة التي تربط بين المتحولات وتوابعها ثم اخضاع هذه التوابع الى العقول الالكترونية لايجاد حاولها ولتكون في نهايتها العظمى أو الصغرى بتحديد قيم المتحولات التابعة لها ولتستقر المنطلقات في الحدود التي نريدها محققة الهدف المطلوب .

لقد بدأت بوادر علم « العمليات الادارية الرياضية » بالظهور في أواخر الحرب العالمية الثانية وقد تبين بعد انتهاء الحرب ان الخبرات المكتسبة في هذا العلم يمكن بسهولة ان تمتد لتطبق على عمليات الانتاج بانواعها المختلفة وفي قرارات المؤسسات والوزارات وفي التخطيط القومي لمستقبل أفضل ..

انه علم جديد سيطرت عليه الاكتشافات الرياضية العملية في عصرنا وهي تعبر عن قوانين الاستراتيجية المعقدة التي تدلنا على افضل السبل التي ينبغي نهجها في تغيير الطريق اذا ماأردنا الا نهزم أمام خصم مراوغ والتي تشير علينا بما يلزم عمله لنخرج بأقل خسارة ممكنة من وضع سيء او لننتزع أعظم ربح ممكن من وضع ملائم . . . وليس بعيداً ان يكون المعسكران قد اخضعا جميع المنطلقات المتغيرة الى قواعد هذا العلم فكانت النتيجة تبنيها للحرب الباردة تلافياً للخسارات العظمى التي اكتشفها العالم « فون نويمان » ولعل هذه الفكرة تفسر سبب عدم نشوب الحرب العالمية الثالثة حتى الآن ..

لقد اطلق على هذا العلم الجديد كما قلنا علم « العمليات الادارية الرياضية » فما هو المقصود من كلمة العملية .. لنفرض ان لدينا مصنعاً ما فالانتاج « عملية » متكاملة تحتاج الى تجهيزات ومعدات وآلات ثم خامات ثم مخطط ومواصفات ثم قوى بشرية تعمل ثم تسويق وبيع في الاسواق وكل ذلك يتطلب اوامر وتصرفات من الرأس القيادي لتتحقق بتنسيق وتنظيم فكيف نضمن كون هذه الاوامر والتصرفات ستؤدي للحصول على اقصى مردود ممكن ؟ انتاجاً او ربحاً او كليهما معاً .. انها عملية معروفة منذ القدم ولكن تطور الحياة وتوسع الصناعة وتشعب مصادر الطاقة جعلها عملية صعبة وشاقة ومستحيلة الضمان من قبل شخص واحد .. ان تطوير الآلات يكلف اموالاً طائلة بينما ابقاء القديم على قدمه يخفف الانتاج ويصبح مع الزمن انتاجاً غير اقتصادي ، وخزن الخامات بكثرة يعطل رأس المال وعدم التخزين قد يوقف الانتاج احياناً ، وعرض البضائع المنتجة بكثرة قد يخفض سعرها فينقص الربح وحجزها قد يؤدي الى تراكم الانتاج والى ضرورة توفر السلامة في خزنه والى زيادة التكلفة ،وتوظيف العمال المهرة يرفع الانتاج ولكنه يرفع التكلفة أيضاً لان اجورهم لاتقارن بأجور العمال العاديين .. وهكذا نرى ان هذه العملية تتضمن اهدافاً متضاربة تستلزم موقفاً مناسباً في كل وقت وفي كل حالة وقد يؤدي هذا الموقف الى ربح أو خسارة اذ لم يتخذ بشكل يراعى فيه

جميع الاحتمالات والمتحولات وصلاتها المتشابكة ببعضها . . . ويتدخل علمنا الجديد ليمثل جميع هذه العلاقات رياضياً ثم يستنتج الحدود اللازمة لاستقرار المنطلقات عند مستويات معينة لتجديد الآلات مثلاً ولمستوى المخزون ثانياً ومستوى العمال ثالثاً ومستوى التسويق رابعاً و . . . كل ذلك بما يحقق النهايات العظمى المقصودة أكبر انتاج أو أعظم ربح .

ولنأخذ مثالاً آخر أن رحلة الى الفضاء هي «عملية» تتألف من آلاف المتحولات ولنغض الطرف عن عملية صناعة الصاروخ نفسه ولنفكر في عملية الاطلاق والمسار فقط فسنجد أننا بحاجة الى اجراء حسابات لمائة مسار على الأقل ثم اختيار الأفضل منها اضافة الى حسابات لعدد اضافي احتياطي من هذه المسارات للطوارىء . . . ثم دراسة جميع الاحتمالات الاخرى كاسلم طريق عبر اشعاعات حزام « فان آلن » والاصطدام بالنيازك وسرعة الصاروخ ومعدل صرف الوقود وفعل الجاذبية الأرضية والقمرية والشمسية وغيرها كثير .... ويقال ان غلطة صغيرة لعقل بشري في احدى المعادلات أدت الى حسابات خاطئة في عقل الكتروني كانت نتيجتها فشل مشروع مارنير الأول الذي أرسل الى المريخ اذ حاد عن مساره فأتلف بعد أن كلف أكثر من سبعة ملايين جنيه استرليني . . .

ومثال ثالث ان نجاح مشروع الفرات هو « عملية » تتبع ايضاً لعشرات المنطلقات فالمشروع يشمل خزناً للمياه للري والملاحة ولتوليد الكهرباء فالري يحتاج الى سعة كبيرة للخزان سينشأ عنها غمر آلاف الهكتارات المروية وبالتالي يجب العمل على استصلاح غيرها مترافقة مع مراحل انجاز المشروع ، والخزن لا يتم الا في فترة محددة منعاً لتراكم الطمي و كذلك فان توليد الكهرباء يحتاج الى تدفق ثابت ومنتظم سواء أكان الماء لازماً للري أم لا والملاحة يهمها ارتفاع مستوى المياه في مجرى النهر بحيث لا ينخفض عن مستوى معين .. فكيف ننظم الأمر بحيث نحصل على ري و كهرباء وملاحة بشكل جيد ومردود اكبر ما يمكن .

من الواضح انه لو كان المشروع يهدف الى الري فقط لتوقفت الملاحة والكهرباء أحياناً ولو كانت الكهرباء وحدها هي الهامة لعمليات تصنيع معينة

لبقيت كمية المياه المتدفقة ثابتة ولو أدى الأمر لخسارة المياه وعدم الاستفادة منها في مواسم الري المطلوبة ولو كانت الملاحة هي الهدف لتعطلت الكهرباء ولقلت المياه اللازمة للري لأن مصلحة الملاحة هي في الاحتفاظ بعلو ثابت لمستوى الماء على مدار السنة كيف اذن نجد الاجابة الصحيحة والتصرف المناسب والتنسيق اللازم للحصول على أعلى مردود للأهداف الثلاثة معاً . . .

ان الاجابةعلى هذهالتساؤلات في جميعالأمثلة قد يتم عن طريق الخبرةوالتجربة والدراية وحسن التقدير ولكن علم « العمليات الادارية الرياضية » يضمن لنا عدم الخطأ ويصحح لنا الطريق مع كل خطوة نخطوها فنضمن بذلك النتيجة المطلوبة .

كذلك نلاحظ في الأمثلة السابقةوجود عناصر متعددة ثابتة في صورة متحولات لا يمكن التحكم فيها ومتحولات أخرى تتغير تبعاً لارادتنا وينشأ عن التحكم فيهـا الوصول الى الهـدف المطلوب فمثال مشروع الفرات لا يمكن تغيير جغرافيـة الحوض ولا طبيعة مجراه ولكننا نستطيع التحكم في ارتفاع الماء وبالتصريف بفتح العيون التي تنساب منها المياه ويمكن التحكم بأنواع المنفذات المولدة للكهرباء . . . وفي مثال المصنع يمكن التحكم بكمية المخزون وسياسة الانتاج ورفع سوية التدريب ولكن معدلات الأسعار والمنافسةوالآلات الحديثة وتطورها ومدى انتظام التصريف كل ذلك . لا يمكن التحكم فيه . . .

مما تقدم نستطيع تلخيص صفات « العملية الادارية » بالنقاط التالية :

١ ـــ ان حسن التقدير والخبرة والممارسة تفيد في الحالات البسيطة منها .

٢ ـــ يمكن تحليل العملية الى مجموعة من العناصر التي تتضارب بالنسبة للهدف المطلوب ويجب اخضاعها لنظام دقيق للتوصل الى الصورة المطلوبة .

٣ ـــ تنقسم مجموعة العناصر الى قسمين متحولات متغيرة ومتحولات خارج العملية ثابتة .

٤ ـــ تهدف العملية الى تحقيق رغبتنا في الوصول الى نهاية عظمى أو نهاية صغرى للهدف المقصود .

ان التلخيص السابق يبقى قاصراً عن اعطاء الوضوح الكامل لمفهوم العلم الجديد « علم العمليات الادارية الرياضية » ويستحسن اجراء مقارنة مع العلوم المعروفة . .

ان العلم الجديد حينما يتقدم لمعالجة المشكلات الواقعية في المجتمع انما يقتحم المجتمع الانساني بجميع أبعاده المتداخلة والمتشابكة مصطحباً معه المعرفة كلها التي توصلت اليها المدنية الحديثة ففي الأمثلة التي مر ذكرها يجب أن يتوفر الاخصائيون القادرون على ايضاح عناصر « العملية» منطلقاتها وتحولاتها يجب أن يتوفر رجل المال ورجل الصناعة ورجل الهندسة ورجل المصارف وعالم النفس وعالم الادارة . . . كلهم جنباً الى جنب بالاضافة الى عالم الرياضيات ليشكل الجميع فريقاً متكاملاً قادراً على توصيف العملية توصيفاً تاماً ... وهذه المفاهيم بعيدة كل البعد عن أي علم معروف ففي العلوم التجريبية يستدل العالم بالمشاهدة والتجربة على أثر أحد المتحولات في البقية ضمن شروط يتحكم فيها باضافة متحولات جديدة أو حذفها مما لا يمكن توفره في « العملية الادارية » ويمكن أن نقول نفس الشيء عن موضوعات علوم الحياة كالنبات والحيوان والجيولوجيا والزراعة... لأن علماءها يعتمدون في دراساتهم على تسلسل الاحداث الثابت والمحتمل للنماذج المتشابهة التي يحكمها قانون النمو والتماثل . وحتى العلوم الاجتماعية التي تعتمد بعض الشيء في قياس الذكاء والنمو العقلي والقضايا النفسية تبقى خاضعة لجداول احصائية تعطينا سلوكية محددة ضمن شروط معلومة سلفاً . . . ان الباحث العالم لا يؤثر في التجربة التي يجريها على أي علم ولا يتأثر بها الا في حدود ضيقة مما يسمح لنا بأن نقول أن البحث العلمي منفصل تمام الانفصال عن العالم الباحث ذاته. أما في بحوث (العمليات الادارية الرياضية، فالموضوع « عملية » متكاملة قد يشترك فيها المئات من العناصر والأشخاص وقد لا تتكرر الا بحدود ضيقة وقد لا تتكرر أبداً بنفس الشكل الأول مما يستدعي دوماً اتخاذ قرارات جديدة يصدرها الرأس القيادي ليتم بموجبها تنسيق التطورات التي أصابت المتحولات التي هي عناصر العملية الهادفة .

ان ميدان علمنا الجديد واسع لا حدود له أنه يشمل الحياة بأبعادها ولكن تكامله ما زال بعيداً وبعيداً جداً ليحيط بها كلها . . انه يتلمس طريقه عبر نماذج هامة يمكن تصنيفها مبدئياً ضمن الأنواع التالية :

العمليات الخطية وغير الخطية والعمليات الاحتمالية والعمليات التنافسية وعمليات الايداع والسحب والعمليات المتدرجة .

وقد نفذت العمليات النموذجية السابقة على مسائل تطبيقية عديدة كالأمثلة الآتية وكان نجاحها مدهشاً :

١ — حل مشكلات السير في المدن .

٢ — ترتيب عمليات الانتاج للاقلال من الحوادث واصابات العمل .

٣ — رفع الانتاج وانقاص التكاليف .

٤ — تنظيم القطارات لنقل أكبر حمولة في أقصر وقت ممكن .

٥ — تقسيم الأراضي للحصول على أكبر محصول .

٦ — ترتيب عمليات الانتاج في المؤسسات الكبيرة للوصول الى اكبر مردود ممكن .

٧ — التنمية الاقتصادية والتخطيط القومي .

. . . . . .

هذه الأمثلة وغيرها كثير لا حصر له يقدم لها العلم الجديد المشورة لتعطي افضل مردود نرغب فيه ، ولا بد لنا من ان نشير الى ان كل ما قدمناه عنه لم يكن سوى وصف من بعيد لشاطىء بحره الواسع العميق ، ويستحسن تقديم نموذج علمي باللغة الرياضية سنحاول تبسيطه قدر الامكان منطلقين من المثال الاخير الذي يعتبر من أهم الموضوعات على الاطلاق وهو التنمية الاقتصادية والتخطيط القومي وسنشرح كيف نستخدم البرامج الخطية في الوصول الى النتائج المطلوبة .

لنفرض ان الاقتصاد المطلوب دراسته ينقسم الى ن من القطاعات المختلفة ولنرمز لانتاجها بـ س١ ، س٢ ، س٣ . . . . . سن وان الانتاج الكلي ولنرمز له بـ (ل) هو مجموع انتاج القطاعات أي :

ل = ك١ س١ + ك٢ س٢ + ك٣ س٣ + ... + كن سن

حيث س١ ، س٢ ... سن كلها موجبة أو صفراً وحيث ك١ ، ك٢ .... كن امثالها المطلوبة .

ان الانتاج في كل قطاع ينشأ عن سلع أو خامات متعددة مختلفة مصدرها القطاعات الأخرى بنسب معينة ، وهنا نرى ان الكفاءة الاقتصادية تحتم كون مجموع السلع الداخلية في تكوين أي انتاج لابد وان تكون أقل ما يمكن والا وجد الهدر الذي يرفع التكلفة ويقلل المردود ويعبر عن ذلك رياضياً كما يلي :

ب١١ س١ + ب٢١ س٢ + ب٣١ س٣ + ... + ب١ن سن ≤ م١

ب١٢ س١ + ب٢٢ س٢ + ب٣٢ س٣ + ... + ب٢ن سن ≤ م٢

بم١ س١ + بم٢ س٢ + بم٣ س٣ + ... + بمن سن ≤ م٣

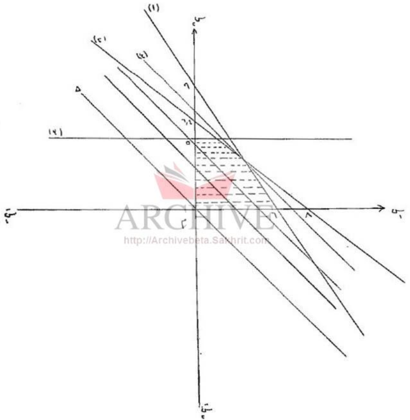
والمطلوب الآن الوصول الى قيم المتحولات س التي تجعل المجموع ل اكبر ما يمكن مع تحقيق المتراجحات جميعها .

قلنا ان الاقتصاد المطلوب دراسته ينقسم الى ن من القطاعات ولنبسط الأمر أكثر بجعل كل قطاع يمثل مشروعاً ما زراعياً أو صناعياً ....

ان لكل مشروع احتياجاته ايضاً في فترة الانشاء ثم احتياجاته في فترة التشغيل ففي المرحلة الأولى سيكون عبئاً على القطاعات الأخرى وفي المرحلة الثانيــة سيحتاج الى خامات وطاقات تأتيه من القطاعات الأخرى ايضاً، ولكنه سيزيد الانتاج في قطاعه الخاص به وسيؤدي ذلك الى تغيير توزيع الانتــاج وعلاقته بالقطاعات كافة وأخيراً سنصل الى أفضل السبل لرفع مستوى الانتاج الكلي (ل) . .

اذا تأملنا في جميع هذه الافتراضات امكننا ان نتصور كيف تستطيع البرامج الخطية ان تمثل كل هذه المتحولات رقمياً في اطار المتراجحات التي ذكرناها سابقاً .

لنعد الآن الى معادلاتنا الرياضية ولنبسط الأمر الى اقصى حد ممكن بأن نجعل الانتاج الكلي ل يتأثر من قطاعين فقط يتبادلان التأثرات فيما بينهما وفق المتراجحات الآتيــة :


(١)
(٢)
(٤)
(٢)
٥
٦
٦,٤
٥
٦
٨

٣س١ + ٢س٢ ≧ ١٨ .... (١)

٤س١ + ٥س٢ ≧ ٣٢ .... (٢)

س٢ ≧ ٥ .... (٣)

والمطلوب الحصول على ل = س١ + س٢ ..... (٤)

ولتحقيق المطلوب نحل المتراجحة الاولى فنجد بعد رسم المستقيم (١)

ان جميع النقاط الواقعة عليه أو الى يساره تحقق المتراجحة المذكورة انظر الشكل وبنفس الطريقة نحل المتراجحتين (٢)، (٣) ثم نظلل المنطقة التي تعتبر نقاطها ممثلة للحل المشترك للمتراجحات الثلاث والتي تحوي أيضاً أفضل الحلول للمعادلة (٤) أي لقيمة (ل) ولايجاد هذه القيمة نفترض قيمة ما لـ (ل) ولتكن صفراً مثلاً فنحصل على المستقيم حـ الذي معادلته س١ + س٢ = ٠ فاذا زلقناه موازياً لنفسه تتغير قيمة (ل) ولكنها تبقى مساوية لشرط مجموع س١ مع س٢ وعندما نصل الى المستقيم الذي يمس المنطقة المظللة في أقصى بعد لها عن المركز نحصل على اعظم قيمة لـ (ل) التي تمثل أعظم مردود ممكن وهي في الشكل نقطة تقاطع الخطين (١)، (٢).

ان مثالنا هو أبسط ما يمكن تصوره من المعادلات والبرامج الخطية فاذا افترضنا وجود ن من المتحولات فان الحل المشترك الممثل بالنقطة المظللة يصبح على شكل مجسم في فضاء أبعاده ن وتصبح (ل) ممثلة بسطح مستو في الفضاء ويكون الحل المطلوب هو الوصول الى نقطة التماس بين السطح والجسم . . . هذا التصور الرياضي الهندسي للمسألة العامة للبرامج الخطية يثير مشاكل لا حصر لها اهمها اثبات وجود حل منفرد وضمان تحدب الجسم في جميع نقاطه . . . كل هذا يفرض عدم تغير الأمثال ب ولكن مفاهيم الاقتصاد وتطوره في تغير دائم ونمو مضطرد لذلك يختلف تركيب الاقتصاد من سنة الى اخرى فاذا أدخلنا المنشآت الجديدة التي تخلخل نظام الاستيراد والتصدير بانتاجها وإذا اضفنا تأرجح مستوى الأسعار ومستوى المعيشة وزيادة السكان في مفاهيمنا الرياضية وجدنا أن الأمثال ب ستتغير وستزداد المشكلة تعقيداً... كل هذا ونحن

لم نتكلم بعد عن المشكلات الحسابية الخاصة بكيفية التوصل رقمياً الى الحل المطلوب وهذا ينقلنا الى جانب آخر من أهم جوانب تطور العلوم في عصرنا الحاضر وهو الحسابات الآلية التي تستخدم فيها الآلات الحاسبة والعقول الالكترونية الرائعة التي تحل المسائل والعمليات الرياضية في اجزاء من الثانية والتي تعمل على تغيير وجه حضارتنا شيئاً فشيئاً .

لا أريد ان أدخل في متاهة الحاسبات والعقول الالكترونية فهذا موضوع آخر ولكني أحب أن أؤكد أن هذه الآلات الخارقة لا تستطيع في الحقيقة ان تقوم بشيء يعجز الانسان عن القيام به لو ان عنده متسعاً من الوقت فابسط المسائل التي تطرح على الحاسبة تحتاج الى تحضير انساني طويل وتفكير عميق قبل أن تبدأ بتفكيرها الخاص الذي يفوق كل تصور » . . لقد استطاع الانسان ان يحضر لهذه العقول البرامج اللازمة لها لتقوم ببعض نشاطاته وان تصدر احكامها عنه فهي تكتب الموسيقى وتؤلف الشعر وتقدر أسعار البورصة بل انها تلعب الشطرنج . . . ويستمر الانسان في خلق انسانه الجديد ويبدي البعض مخاوفهم من سيطرة هذا المخلوق الآلي ولكن الرد يبقى حاسماً بامكاننا دوماً ان نقطع التيار . . . ان نسحب « الفيش » .

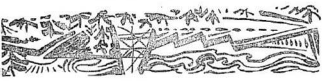
لنعد الى موضوعنا الذي ساقنا للتكلم عن العقول الالكترونية لقد رأينا أن كثرة المتحولات يؤدي الى عدد غير محدود من المعادلات والمتراجحات التي تتطلب حلاً آنياً مشتركاً ولنتساءل مثلاً عن العدد التقريبي لهذه المعادلات في مثال يتعلق بالاقتصاد القومي لنقدر عظم المشكلة الرياضية التي تواجهنا . . ان العدد لا يقل بحال من الاحوال عن ٣٠ – ٤٠ ألف معادلة فكيف نجد الحل المشترك لها ؟ مع العلم بأنه لا توجد غير الطريقة التجريبية لحلها ، ان العمل لايجاد الحل التجريبي ممكن نظرياً ولكنه قد يستغرق سنوات طويلة حتى ولو استخدمت الآلات الحاسبة الصغيرة ولكن سرعة العقول الالكترونية اختصر الطريق فهي تسير خطوة خطوة مجربة رقماً بعد آخر مصورة لنا النتيجة في ثوان معدودة مكررة العمل حتى تصل الى الحل بتقريب مقبول كل ذلك بسرعة تفوق كل تصور فكأنها انسان يتعلم من اخطائه مكتسباً الخبرة بعد كل خطأ ليبدأ من جديد متجنباً اياه وبالتجريب الذي يظهر وكأنه لا نهاية له ، يصل الى تقرير صورة معينة للتصرف الحسن .

واخيراً وبعد هذه الجولة القصيرة يمكننا القول دون تردد بأن العلم الجديد علم « العمليات الادارية الرياضية » يعتبر بحق فتحاً جديداً في ميادين التطبيقات العلمية للرياضيات وبخاصة في موضوعية اتخاذ قرار ما كان يعتمد في السابق على الخبرة المجمعة لاصداره،وان بحوثه تخدم كل مسؤول سواء اكان قائداً لجيش او مديراً لمؤسسة او مخططا لاقتصاد . . . لقد ادخل التفكير العلمي الرياضي الى غرفة الادارة . . ونجح في ذلك كل النجاح . . .

وختاماً لابدلي من ان أردد قول مينا خموس العالم الاغريقي الذي أجاب به الاسكندر الكبير عندما سأله أن يقدم له شرحاً سريعاً لهندسة « ليست هناك طريق ملكية الى الهندسة » وسيبقى هذا الجواب صحيحاً في جميع فروع الرياضيات .

الدكتور سهام الشريف

التطور الصناعي ونظرية تقارب الاقتصاديات



يبرز كتاب « الدولة الصناعية الحديثة » لجون كينيث غالبريث(١) تصوراته عن التطور الذي قد يحمله التقدم الصناعي والتكنولوجي الى البنيات السياسية والاجتماعية

(١) ترجمة : يحيى علي اديب، منشورات وزارة الثقافة - دمشق y.k. GALBRAITH & Nouvel Etat Inoustriel

والاقتصادية في المجتمعات ذات النظم المتناقضة أو المختلفة في أساسها الايديولوجي .

وتلوح من خلال بحوثه اتجاهات المدرسة الاقتصادية الغربية الحديثة التي انطلقت من الجامعات في الولايات المتحدة والغرب الاوروبي في أواخر الخمسينات تبحث عن علاقة تربط بين التطور التكنولوجي والصناعي ومايحمله من رفاه الى الانسانية وبين ماتظنه من اتجاه المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية نحو التعايش ثم التقارب فالالتقاء . فهي ترى انه كلما تقدمت المجتمعات الصناعية المعاصرة . اشتراكية كانت ام رأسمالية نحو اساليب متطورة في الصناعة والتكنولوجيا ، والانتاج والتخطيط لها كلما تمتعت بقواعد تدفعها نحو تغيير نوعي للحياة نحو الشكل الافضل لها الذي لايمكن ان يكون متعدد الجوانب ، وبالتالي فانها تصبح اكثر قرباً بعضها من بعض يوماً فيوم ، رغم الفوارق الايديولوجية .

تعايش فتقارب فلقاء

تلك هي النتائج التي توصلت اليها مدرسة التقارب Couvergeuce في تفسير ظواهر تطور التعايش بين الشرق والغرب منذ الستينات حتى أوائل السبعينات الحالية . نظم متباعدة ومتناقضة في ايديولوجياتها الاساسية تتعايش وتحسن التعايش متناسية تلك النزاعات وحروبها المستمرة .

هل هذا التعايش المتطور محض ضرورة خلقتها كراهية الانسان لتلك الحروب « الصغيرة » ؟ ام انه قدر تفرضه ضرورات التنمية والتطور وتقدم التكنولوجيا وامكانات الانتاج ؟ ويلزم به العمل في سبيل رفع مستوى الحياة ؟ وهل آن لتطور التكنولوجيا أن يوقف النزاع الحاد بين الايديولوجيات المختلفة . وان تتقارب اقتصادياتها المتناقضة .

بمعنى آخر، هل يمكن للبنيات التكنولوجية ان تفرض عند تماثلها شكلا معيناً بذاته للمجتمع ذي نظم سياسية واقتصادية واجتماعية مماثلة ؟ هل يمكن ان يتطور مع التطور التكنولوجي التفكير الانساني فيميل نحو اهداف واحدة وانماط واحدة من الحياة ؟ هل يمكن ان تتقارب النظم الاقتصادية في بلجيكا مثلا مع هذه النظم في كوريا الشمالية أكثر من تقاربها مع اليونان الرأسمالية لمجرد تماثل طرق التنظيم الصناعي والتكنولوجيات المطبقة في البلدين الاولين، بينما تفصل بينهما أسس ايديولوجية مختلفة، فهذا بلد رأسمالي تحكمه ضغوط المصالح الفردية وذاك بلد اشتراكي تمارس فيه البروليتاريا حكمها ؟

معالم التقارب ونقاط اللقاء

في أساس نظريات التقارب محاولات من الباحثين الاقتصاديين في بلدان العالم الرأسمالي

للوصول الى منطلقات نظرية جديدة تدعم البناء الكينزي الذي تداعت بعض اركانه من جراء الفشل في تطبيقاتــه . وفي البحث ايضاً عن هذه المنطلقات الجديدة محاولات للالتفــاف حول المصاعــب الاقتصــادية والاجتماعية التي تواجه العالم الرأسمالي. على ان نظريات التقارب تعبر ايضاً عن التصعيد النظري لبعض نقــاط التماثـل في التطبيق اليومي في المجالات الاقتصادية للنظم المختلفة الايديولوجيات . تتلخص في :

اولا ـ تزايد اللجوء الى التخطيـط الاقتصادي والاجتماعي في البــلدان الرأسمالية بعد الحرب العالمية الثانيـة ، وذلك رغم استمرار هيمنة اقتصاد السوق وسيادة الاتجاهات الليبراليـة . والخطط الموضوعة في الغرب وان لم تذهب الى حدود الالزام في التنفيذ الا انها ترسم مع ذلك بالتأثيرات غير المباشرة معالم التطور المخطط في اشكاله العامة ، فهي تشبه وفي حدود ضيقة في بعض نتائجهـا الخطط الملزمة في نظام التخطيط الشامل في البلدان الاشتراكية .

ثانياً ـ زيادة تدخل الدولة في مجالات الحياة المختلفة في الغرب الرأسمالي وهـذا التدخل اصبح نتيجة لتعقيد الحياة وتشعبها ضرورة لابد منها .

ثالثاً ـ نمطية اساليب التطبيق الصناعي والتكنولوجيا وتماثل طرق الانتاج أدى الى تشابه أساليب الادارة والقيادة في المشاريع الكبيرة سواء في البــلدان الرأسمالية أو في البلدان الاشتراكية ، كما أدت الى ضخامة حجم المشاريع وتماثل تركيبها الهرمي الانتاجي والكومبلكسات المتعددة النشاطات ، التركيز الصناعي الرأسي ، والتوسع الافقي) . ونتج عن ذلك تشابه كفاءات المديرين والقيــاديين وتماثل مؤهلاتهم وتدريباتهم وحتى انحرافاتهم المهنية في الغرب والشرق ، ولاغرابـة بعـد ذلـك في ان تتماثل منعكساتهم وقراراتهم تجاه المشاكل المتقاربة المتعلقة بالمشاريع التي يديرونها .

ان انفصال الادارة الفنية للمشاريع عن مالكي رأس المال في البــلدان الرأسمالية قد يدفع بهـذه الادارة احيانا الى اتخاذ قرارات لاتنسجم دائماً مع مبدأ

الربح الاقصى[١] الرأسمالي . كما ان حامل الأسهم في المشاريع الحالية بعيد عن الادارة اليومية التي اصبحت فنية بحتة تتطلب مؤهلات لاتتوفر في أي شخص.

رابعاً ـ تحول البلدان الاشتراكية قليلا عن المركزية الشديدة لاجهزة التقرير الى لامركزية جزئية في تنفيذ الخطط . وكذلك التحول الى الانتاج الاستهلاكي الواسع .

خامساً ـ زيادة التعاون بين الكتلتين في بعض مجالات التكنولوجيا المتقدمة «الفضاء الخارجي ، المواصلات» وزيادة التبادل الاقتصادي والانفراج الكبير في العلاقات .

الفارق الايديولوجي وعدم قابلية التقارب :

هناك نقاط أخرى يمكن أن تتشابه أشكال الاقتصاد في الشرق والغرب مثل الادخار ، الاستثمار ،الانتاج، توزيع الناتج والاستهلاك على أن معرفة ما اذا كانت هذه التشابهات تسمح بالتنبؤ عن تقارب حقيقي يقود معه النظم المتناقضة الى تقارب والتقاء أمر تسود الشكوك جوانبه المختلفة ويقع في موضع النقاش الحاد. فبالاضافة الى الماركسية اللينينية التي ترفض من حيث الأساس امكانات التقارب بين المنطق الاشتراكي والمنطق الرأسمالي ، فهناك بعض الاقتصاديين الغربيين الذين يدعون عدم قابلية التقارب الدائم ، لأن في بنية المجتمعات المتناقضة عناصر أساسية ، تجعل من المستحيل نظرياً التقارب بين اقتصاد اشتراكي مخطط مركزياً واقتصاد سوق حرة ليبرالية رأسمالية .

ونظرية عدم قابلية المجتمعات ذات النظم المختلفة على التقارب(٢) تذهب الى ماوراء المجال الاقتصادي البحت ، فتبرهن أنه يوجد في الاساس علاقة تماثل بين النظام الاقتصادي لبلد ما وبين نظامه السياسي والسياسي الاجتماعي، فاذا فسدت هذه العلاقة لسبب من الاسباب فلا بد أن تتبعها حالة عدم استقرار ليس في داخل النظام الاقتصادي فحسب ولكن بين مختلف النظم السائدة في البلد ذاته .

هناك بالطبع الكثير من الأمثلة المعاصرة على صحة هذه النظرية فمحاولات تغيير الاسس الاقتصادية في بعض البلدان باءت بفشل

(١) الولايات المتحدة الاميركية مجتمع لم يكتمل : فان درخلة
U . S . SOCIETE INACHEVEE

(٢) العلاقات المتبادلة بين النظم : اويكن
Tnterdependance Des Systemes

فريع وأدت الى تراجع البليات الاقتصادية، فاللجوء الى المركزية الاقتصادية الشديدة في نظام سياسي يرتكز الى اللامركزية يؤدي الى قيام مراكز ضغط تكبح جماح إلحماس للتغييرات الاقتصادية المطروحة وتمنع تكاملها والعكس بالعكس . فالنظام السياسي يعرف ويحدد النظام الاقتصادي وأفضليـــاته . والتغييرات الاساسية في النظام الاقتصادي والاجتماعي تتعلق وترتبط بالتغييرات في شكل النظام السياسي والسلطة المسيطرة ومراكز الضغط المؤثرة . وطالما أن النظم السياسية في البلدان الاشتراكية والبلدان الرأسمالية غير متماثلة في أشكالها النظامية وأسسها الايديولوجية فهناك عدم قابلية للتقارب بل تنافر وتضاد .

مؤثرات ودواعي التقارب :

على أن أصحاب نظرية التقارب يرون أنه بالاضافة الى النظام السياسي والى شكل التنظيم القيادي عناصر أخرى من النظام الاقتصادي يمكن أن تكتشف فيها مؤثرات ودوافـــع تعمل باتجاه تقارب النظم المتناقضة . إلا أن عدم وجود نظرية للنظم الاقتصاديه معترف بها بصورة عامة يضفي صعوبة كبيرة على اكتشاف العناصر الموضوعية المؤثرة باتجـاه التقارب في حال وجودها ، وكذلك ايجـاد الاسس التجريبية الواقعيـة لاثبات النظرية وأخيراً الوصول الى تحديد كمي لهذه المؤثرات ونظرية الضرورة الصناعية لاتخرج بالرغم من براعة اخراجها من هذه الصعوبات .

الضرورة الصناعية والتطـــور التكنولوجي :

فضيلة غالبريت هي في كشفه ان للتطور التكنولوجي منطقاً ذاتياً خاصاً به يؤثر في بنية المجتمعات القائمة في شكل الدولة والنظام السياسي والاسس الاقتصادية والاجتماعية ، وهذا التأثير يكون متماثلاً في اتجـــاهه في كل مكان ، لان الدولة الصناعية المتقدمة تتشابه أين كانت وكيف كانت .

الضرورة الصناعية والعقلانية الخاصـــة بعمليات التصنيع والتطبيق الصناعي همـا مرتكز نظريات التقارب المستندة الى تصورات غالبريت الحالمة ، وهذان المرتكزان لايعطيان أي أهمية في التقارب لشكل التنظيم السياسي ولا يعزوان الى التماثل القيادي أي عامل أو تأثير في ذلك .

ان لعمليـــة التصنيـــع وتدرجهـــا Processus D'iudustrialisation منطقاً ذاتياً خاصاً ، وضرورة في الاستمرار ، ناتجان عن المتطلبات والمقتضيات الموضوعية للتكنولوجيا الحديثـة ، وعن القسر الذي تفرضه هذه التكنولوجيا على المجتمع فتطبعه بطابعها ، فاذا كانت عملية التصنيع تنطوي في ذاتهـــا على عقلانية خاصة بهـــا تفرض بصورة الزامية بل قسرية استخدام طرائق فنية في التخطيط والاستثمار والانتاج. .الخ متشابهة بل متماثلة في بلاد ذات نظم سياسية

واجتماعية مختلفة بل متناقضة فيمكنها ايضاً من خلال الضرورة التكنيكية هذه ان تهيمن على اتجاه التنمية في هذه البلاد ،

لذلك يجب ان نرى في عملية التصنيع في البلدان المتقدمة صناعياً مصدراً من مصادر التقارب لا يمكن ايقافه أو منعه الا بايقاف التطور التكنولوجي أو تراجعه ، وهذه فرضية لا تنسجم مع الضرورة في الاستمرار بالتكنولوجيا الحديثة .

ولم تستطع هذه التفسيرات للتقارب ان تكون نظرية مقبولة بشكل عام بالرغم من انطلاقات غالبريت المبدعة وتصوراته المستقبلية ، ولم تتمكن المدرسة اللاحقة له من روستوف الى برنهام اثبات وجود مؤثرات تقارب ناتجة عن الضرورة الصناعية تقود المجتمعات ذات النظم السياسية المختلفة والبلدان ذات الايديولوجيات المتناقضة نحو الالتقاء .

التنمية وعوامل التقارب في التخطيط

ان تطبيق قوانين التنمية الاقتصادية وتنفيذ قواعدها واحكامها المماثلة في آلياتها الاجتماعية تحدث في البلدان المتناقضة انعكاسات على مستوى النظم تؤدي الى تغييرات في اتجاه واحد لتقارب معه اشكال التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي في هذه البلدان ،

لم ينطلق تنبرغن Tinbergen كما فعل غالبريت من تصورات ورؤى ، وانما من مفهوم واضح هو مفهوم التنمية والزاميته وبعد قناعته بان الوسائل الكلاسيكية للعلوم الاقتصادية غير قادرة على الوصول الى نتائج مقبولة وعلمية في تحليل مشكلة التقارب . أي أنه لا بد للباحث في التقارب من التكيف وقبول المبادىء والنتائج الصحيحة التي تعاكس اتجاهاته ليمكنه تكوين نظرية علمية ومقبولة .

ان الآلية الاجتماعية تفرض وجود تخطيط شامل للفعالية الاقتصادية في البلدان المختلفة الاتجاهات او المتناقضة . ولما كانت أساليب التخطيط القتبة واهداف السياسات الاقتصادية والاجتماعية في البلدان الرأسمالية تتقارب باستمرار من الاساليب والاهداف في البلدان الاشتراكية . لأنه غاية هذه التقنيات والسياسات الاساسية انما هو رفع مستوى الحياة باستمرار نحو الافضل . ولما كان لايمكن الا لطريقة واحدة من بين جميع تقنيات التخطيط الممكن تصورها ان تعطي النتائج المرغوبة بالنسبة للاهداف والغايات التي تتابع تحقيقها المجتمعات الانسانية في الشرق والغرب . لذلك وبتأثير هذه التقنيات المماثلة تسير البنيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية سواء في البلدان الرأسمالية أو في البلدان الاشتراكية نحو حالة مثلى واحدة أي تتجه نحو التقارب والتماثل .

ان عمل الآلية الاجتماعية يحتم استخدام

التخطيط ، وتقنيات التخطيط المتشابهة المستخدمة تخلق جواً ملائماً لميل المجتمعات نحو نظام واحد أمثل . ويفحص تنبرغن اساليب التخطيط في البلدان الاشتراكية وفي البلدان الرأسمالية ، ويكتشف وجود نقاط تماس وتماثل بينها بل وجود تطابق حقيقي أحياناً ويستنتج وجود قاعدة مشتركة ومصادر تقام تستبعد الوضع القائم وترفض النظم التي ينمو فيها العالمان ويتطورا منفصلان بعضها عن بعض ، وتلتقي تلك التي تقود الى التقارب واللقاء بل الاندماج .

ان تضاؤل الضراوة الايديولوجية وسيطرة العقلانية الاقتصادية وتماثل الاهداف الاقتصادية وحتى الاجتماعية التي تتابعها النظم المختلفة الايديولوجيات في صعيد التنمية تجعل الميل نحو الالتقاء ضرورة تتغلب على الخلافات والفروق السياسية . ويقوم المديرون في المشاريع بدور كبير في قيادة هذه التحولات لأن مصالح هؤلاء المديرين الذين لا يشكلون طبقة معينة انما ترتبط بالتنمية والتقدم الصناعي ، لذلك تكون قراراتهم دائماً عاملاً من عوامل اختصار فاصل الزمن للوصول الى الحالة المثلى .

الأثر الحقيقي لتقنيات التخطيط

لربما قدر تنبرغن عامل التخطيط التقني بأكثر من حقيقته ولكن لا يمكن مع ذلك وضع نقطة انطلاقه الاساسية موضع شك تام ، لأن من السهل البرهان على وجود توافق وانسجام في الاساليب المستخدمة لتخطيط التنمية في البلدان الاشتراكية والرأسمالية ؛ ولكن ما يمكن ان يكون موضع تساؤل هو مقدار الاهمية التي يجب ان نعزوها الى اساليب التخطيط الفنية في تأثيرها على النظم الاقتصادية والاجتماعية باتجاه التغيير ، ولعل في تقدير الاقتصاديين الغربيين لأهمية هذا العامل الكثير من المبالغة . فهناك تأثيرات تقارب في هذا العامل كما أن فيه تأثيرات تؤدي الى التباعد يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار ، ولا يوجد حالياً طريقة تسمح بتقدير وتقييم الأثر الاجمالي للتقارب والتباعد معاً . بحيث يمكن قياس محصلة الاثار على نماذج معينة ومعرفة ما اذا كانت هذه المحصلة سالبة أو موجبة ، أي اذا كان هناك ميل حقيقي للتقارب أم لا .

هناك تساؤل آخر : تماثل الاساليب التقنية للتخطيط لأنها اساليب علمية ذات قيمة مطلقة . ولكن هل يمكن ان تماثل اهداف التخطيط فعلاً في النماذج الاشتراكية والرأسمالية؟ غاية التخطيط الاشتراكي الوصول الى المجتمع الاشتراكي الذي يمثل الحالة المثلى في مفهوم التطور المادي للتاريخ ويقوم في النهاية على سيادة منطق ارضاء الحاجات الانسانية . فهل يهدف التخطيط في البلدان الرأسمالية الى هذه الحالة المثلى التي تحل منطق الحاجات مكان المنطق الرأسمالي في تراكم رأس المال ؟

تأثيرات لامركزية التقرير في التخطيط

كان من نتائج الالغاء الجزئي لمركزية اتخاذ القرارات الاقتصادية في بعض البلدان الاشتراكية ونقل اختصاصاتها الى السلطات اللامركزية ، تحرير الاقتصاد الوطني الذي كان مخططاً تخطيطاً بصورة مركزية شديدة ، الى الانتقال في المستويات اللامركزية والبحث عن نظام قيادي جديد تستعيض به عن التوجيهات المركزية وتستطيع تلقي تأثيراته ومؤشراته مباشرة والتأثر بها فتنعكس الى قرارات تتخذ بصورة مستقلة منسجمة مع متطلبات الاقتصاد الوطني .

وليس هناك من نظام قيادي يمكنه القيام بهذا الدور الهام اكثر من مفاهيم اقتصاد السوق التي تعكس رغبات الاستهلاك وحاجاته .

ولكن ماذا يعني الانتقال الى اللامركزية بالنسبة لمشكلة التقارب ؟ وهل تشكل عامل تقارب ذا تأثيرات هامة ؟ لنلاحظ أولاً أن الانتقال الى اللامركزية هو انتقال جزئي يتعلق ببعض الصناعات والخدمات الثانوية . ولنلاحظ بعد ذلك ان اللامركزية تعني الغاء حصر اصدار القرارات المتعلقة بالسياسة الاقتصادية المحلية ، الذي كانت تتمتع به أجهزة التقرير المركزية ونقله الى الاجهزة اللامركزية . الغاء هذا الحصر يؤدي الى تكون مراكز ضغط جديدة تتدافع فيما بينها راسمة الاتجاه الاقتصادي الجديد وقراراته .

وينعكس ذلك آلياً ، فالتخطيط المركزي الذي يضع الاهداف عادة بصورة نمطية يجد نفسه ضمن منظومة جديدة من حيث انه يجب ان يدخل في اعتباره في خططه الاساسية قرارات لامركزية ، لا تصدر عنه ولا يمكنه معرفتها مسبقاً أو التأثير فيها أو مراقبتها قبل حدوثها . وكلما توسعت اللامركزية كلما اصبحت هذه القرارات ذات اثر هام يجب على التخطيط المركزي اخذها بعين الاعتبار .

وهكذا فان اللامركزية تقود الى تغيير اساسي في طبيعة التخطيط فتقود الى اشكال تأشيرية لا تتدخل بالتفاصيل والقرارات الفرعية وانما تعطي مؤشرات أو وسائل وأهدافاً عامة .

ان التفسيرات البارعة لآثار اللامركزية على التقارب بين النظم المتناقضة تضع في المكان الاول العوامل الصناعية للتنمية ، اذ تدل فترة ما بعد الحرب وتجاربها على ان قدرة الاقتصاد المخطط على احداث اثارة تتعلق بصورة كبيرة بالمستوى الصناعي للبلد المعني . وبتعبير آخر ، انه كلما كان مستوى التقدم الصناعي لبلد ما عالياً كلما كانت بنية وبرنامج الانتاج الصناعي اكثر تنوعاً وكلما أصبح تحريك وادارة أجهزة التقرير بشكل مركزي معقداً وشاقاً ، لان احترام التسلسل

الزمني للخطة وايجاد الانسجام بين الخطط الجزئية يقع عندئذ بالكامل على عاتق الاجهزة المركزية التي عليها ان تتخذ ضمن هذه الشروط قرارات تتجاوز حدود معلوماتها وامكاناتها ، لبعدها عن التأثيرات المحلية مباشرة والمتغيرات الطارئة خلال تنفيذ الخطة .

ان ازاحة هذه المسؤوليات عن كاهل هذه الاجهزة يكون طبعاً باللجوء الى لامركزية التقرير التي تصبح ضرورة لا مفر منها وهي التي تقود الى الاقتراب من تأمين حاجات السوق بصورة أكثر دقة والتكيف معها خاصة بالنسبة لحاجات الاستهلاك الرائج . واللامركزية الحقيقية التي تذهب الى مستوى المشروعات الصغيرة هي التي يمكن ان تؤدي هذه المهمة فقط .

ولنلاحظ ان الانتقال الى اللامركزية ينافي في الواقع التخطيط الحقيقي ، لأنه يطلق حركة تؤدي نتيجة الترابط والتبادل بين العمليات الاقتصادية المختلفة الى فرض قرارات اخرى لامركزية والى تتابع هذه الحركة . وقد امكن ملاحظة هذه الواقعة في يوغسلافيا، اذ ان التحول الى اقتصاد سوق اشتراكي أدى الى تبني اجراءات كانت تذهب دائماً الى أبعد مما كان مقدراً لها في الأصل.

اللامركزية تقود الى لا مركزية

فاذا تقرر مثلا ان تمنح المنشآت والمشاريع سلطة اصدار القرارات الخاصة باستثماراتها فان هذه السلطة في التقرير لا يمكن ان تتمتع بها المنشأة او المشروع الا اذا تمكنتا من تقرير برنامج انتاجها ولو جزئياً، اذ تتعلق الاستثمارات ببرنامج الانتاج . ولكي يمكن ذلك يجب ان تكون المنشأة قادرة على وضع مختلف عوامل الانتاج قيد العمل .

وهكذا يجب زوال سلسلة من الوظائف المركزية وتحويلها الى الاجهزة اللامركزية . وتفرض اللامركزية الجزئية في النهاية — كما يذهب الى ذلك الاقتصاديون الغربيون — اعادة اقتصاد السوق بشكله الواسع الى الوجود، واعادة الاسواق الى وضعها التراجعي، اسواق قادرة على اصدار تأثيرات للمشاريع تعطيها بواسطتها معلومات عن أوضاع الندرة، الوفرة ، الاذواق ، هذه التأثيرات يعبر عنها غالباً بالسعر . تقود اللامركزية في اوضاعها النهائية كما يراها الاقتصاديون الغربيون الى اعادة الاعتبار لعامل السعر وتكونه الذي يستند الى العرض والطلب لا الى التحديد الاداري المركزي . ان تحقق هذا الشرط اطلاقاً غدا مستحيلاً في الدولة الصناعية الحديثة لأسباب كثيرة معروفة وخاصة في العالم الرأسمالي ، وبذلك فان عامل السوق الحرة في تكوين اقتصاديات متقاربة ليس الا من قبيل الوهم .

اذا كان من الوهم القول بامكان الوصول الى اقتصاديات متقاربة عن طريق الانتقال.

من مركزية التخطيط والتقرير الى لامركزية الاختصاصات والتقرير ، فما لا شك فيه ايضاً أنه تقوم في البلدان الاشتراكية حالياً اتجاهات نحو :

١ ــ استخدام المفاهيم العامة الناتجة عن اقتصاد السوق ، دون ان تؤثر مقتضيات السوق السلطات المركزية والمحلية من التدخل في القرارات المتخذة عندما تتعارض مع مصلحة المجتمع .

٢ ــ تطبيق سياسات اقتصادية ناتجة عن الضرورات الصناعية ومنطق التطور التكنولوجي تتشابه احياناً مع تلك المطبقة في العالم الرأسمالي .

ولا يمكن مع ذلك ان نعتبر ذلك تقارباً بين الاقتصاديات الاشتراكية والرأسمالية ، أو ميل نحو التقارب . وبالمقابل فانه اذا كان من قبيل الوهم القول بان النظام الرأسمالي يسعى طائعاً الى الاقتراب من المنطق الاشتراكي فانه مما لاشك فيه ايضاً ان هناك اتجاهات في البلدان الرأسمالية نحو :

١ ــ تخطيط التنمية والاقتصاديات الوطنية تخطيطاً يزداد شدة يوماً بعد يوم ، دون ان يؤدي ذلك الى تخفيف الليبرالية الاقتصادية او ازاحة اقتصاد السوق تماماً .

٢ ــ تطبيق سياسات اقتصادية نابعة من الضرورة الصناعية ومنطق التطور التكنولوجي . ولا يمكن مع ذلك ان نعتبر هذا التطور ميلا نحو تقارب الاقتصاديات بين الشرق والغرب ولو انه يثير التساؤل عن امكان ذلك .

لم نظرية التقارب في الواقع وحتى الآن اشكالاً محددة واضحة ذات قواعد ثابتة يمكن الركون اليها ، ولا يمكن ضمن الاطار النظري المبحوث الا الالتجاء الى التخمين . ومن المحتمل بل من المؤكد ان يتطور تقارب الاقتصاديات بين البلدان الرأسمالية والاشتراكية مستقبلاً وأن تتطور النظرية ولكن في اطار متغيرات اخرى بالاضافة الى ضرورات التطور الصناعي والعقلانية الاقتصادية واساليب وتقنيات التخطيط .

المراجع الأخرى

١ ــ ويلي لِندر : نظرية تقارب الاقتصاديات شرق ــ غرب زوريخ ١٩٧٢
willy Linder
٢ ــ فيليب هرتزوغ : التنبؤات الاقتصادية والمحاسبة القومية ١٩٦٩ وبحوث اخرى P . HERZOG
٣ ــ آرون : المجتمع الصناعي
Aaron

الهندسات اللااقليدية

كابي دردريان

موضوعات اقليدس

كان الرياضي الاغريقي اقليدس ، الذي نشأ في الاسكندرية حوالي نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، أول من وضع قواعد عامة ومبادىء أولية لعلم الرياضيات . ظلت حتى عهدنا هذا أساساً لدراسة هذا العلم بشكل عام ودراسة الهندسة بشكل خاص . وقد دون اقليدس هذه القواعد في مؤلفه الشهير المسمى « الاصول » (Les Eléments)

ميز اقليدس في الباب الأول من هذا المؤلف بين ثلاث مجموعات من المعطيات الاولية :

١ ــ التحديد او التعريف (Définition) كأن نعرّف مثلا المستقيمين المتوازيين بكونهما لايتقاطعان على مستو واحد مهما طال امتدادهما .

٢ — البديهية (Axiome) : وهي منطوقة تعبر عن حقيقة واضحة في ذاتها، فلا تحتاج الى برهان ، كقولنا مثلا ان الكل اكبر من الجزء.

٣ — الموضوعة (Postulatum) : وهي منطوقة تعبر عن فرضية يتعذر البرهان عليها ، ولكننا نقبل بها ، إما لوضوحها ، أو لانسجام النتائج التي تتفرع عنها .

وعدد اقليدس خمس موضوعات أساسية في علم الهندسة :

١ — نقطتان لا على التعيين تحددان مستقيما واحداً .

٢ — الخط المستقيم يمكن مده الى مالانهاية .

٣ — يمكن رسم دائرة اذا علم مركزها ونصف قطرها .

٤ — الزوايا القائمة تتساوى جميعها بعضها مع بعض.

٥ — المستقيم القاطع لمستقيمين آخرين ، اذا شكل معها ومن جهة واحدة، زاويتين داخليتين مجموعها أقل من زاويتين قائمتين ، فان المستقيمين المذكورين يتقاطعان عند امتدادهما من جهة الزاويتين الداخليتين المشار اليها .

واستنتج اقليدس من هذه الموضوعة الاخيرة مايلي ، من نقطة واقعة خارج مستقيم معلوم ، لايمكن ان نشيء اكثر من مواز واحد لهذا المستقيم .

وقد درج الرياضيون على اعتماد منطوقة هذا الاستنتاج الأخير واعتبارها الموضوعة الخامسة لاقليدس . نظراً لكونها ابسط تركيباً من سابقتها « أي المنطوقة القائمة على أساس مستقيمين وقاطع » ولإمكان الانتقال من المنطوقة الثانية الى المنطوقة الاولى عن طريق البرهان المنطقي وعلى الرغم من ان عدد موضوعات اقليدس هو خمسة كما أسلفنا . فان اسم « موضوعة اقليدس » يطلق في العادة وبشكل خاص على الموضوعة الاخيرة . أي الموضوعة الخاصة بالموازيات ، وذلك بسبب الشهرة التاريخية التي لزمت هذه الموضوعة منذ أقدم العصور ، ونجمت عن المحاولات التي قام بها العديد من العلماء والرياضيين للبرهان عليها ، بالأستناد فقط الى بقية المعطيات التي حددها اقليدس في مؤلفه « الاصول » .

غير أن اخفاق هذه المحاولات أدى شيئاً فشيئاً ومــع مرور الزمن الى ولادة فكرة تحتمل وجود هندسة ترفض وحدانية الموازي المنشأ خارج مستقيم معلوم ومن نقطة معينة ، وتصل ، برغم ذلك الافتراض وعن طريق القواعد المنطقية العامة الى نتائج مغايرة تماماً لنتائج هندسة اقليدس . ودون أن تؤدي بطبيعة الحال إلى أي نقض للمعطيات والمبادىء التي قامت على أساسها .

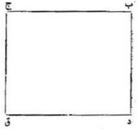
وقد يخيل الى البعض ان الخوض في الهندسات الجديدة التي لاتتبنى موضوعة اقليدس هو ضرب من الترف الفكري . أو هو مجرد منطق يعبث ويلهو . أما الواقع فهو مغاير لهذه النظرة كل المغايرة . والحق يقال ان نشوء الهندسات اللااقليدية مهـد السبيل للثورة الفكرية والعلمية التي قام بها العلماء والفلاسفة في القرن الماضي وفي أوائل القرن الحالي على الاحكام والمعطيات التي كبلت العقل البشري لاحقاب طويلة . والتي كان الفكر يعتبرها مسلمات بديهية وحقائق سرمدية لاتقبل النقض. فشلما قامت الهندسات اللااقليدية . قامت الى جوارها فيما بعد عوالم لااقليدية . في جميع مجالات العلم وفروع المعرفة . ومن هذه الانطلاقة بالذات انبثقت نظرية النسبية التي تعتبر اساس البحث العلمي في عصرنا الراهن .

واذا رجعنا الى المحاولات التي قامت للبرهان على موضوعة اقليدس . استناداً إلى معطياته الاولية المدونة في كتابه «الاصول » نجد أول محاولة في هذا المضمار قام بها الرياضي الاغريقي بروكلس (Proclus) « ٤١٠ – ٤٨٥ » . ثم نجد بعد ذلك محاولة من هذا القبيل قام بها الفيلسوف والرياضي الفارسي الشهير نصير الدين الطوسي «١٢٠١ – ١٢٧٤» .

ثم جاء بعدهما العديد من الرياضيين اجروا ابحاثاً في هذا الشأن . نذكر منهم كاتالدي « حوالي عام ١٦٠٠ » وجيوردانو فيتالي (Vitale) «١٦٣٣–١٧١١» والرياضي البريطاني جون واليس (Wallis) (١٦١٦ – ١٧٠٣) الـذي تمكن من التدليل على ان موضوعة اقليدس يمكن البرهان عليها ، اذا قبلنا بوجود مثلثين متشابهين لا على التعيين .

وتاتي بعد ذلك محاولات الراهب اليسوعي جيرولامو ساكيري (Saccheri) (١٦٦٧ – ١٧٣٣) لتكشف افقاً جديداً في هذا المضمار .

أنشأ ساكيري شكلاً رباعياً ب ج د ق (شكل رقم ١) ، بحيث يكون الضلعان ب د و ج ق متساويين ومتعامدين مع الضلع د ق. وهنا افترض ساكيري ثلاثة احتمالات بالنسبة للزاويتين ب و ج، فهما اما أن تكونا قائمتين، أو حادتين، أو منفرجتين . في الاحتمال الأول ، تمكن ساكيري من البرهان على أن مجموع زوايا المثلث يعادل زاويتين قائمتين ، الأمر الذي يمكننا من البرهان بالتالي على موضوعة اقليدس.



(شكل ١)

في الاحتمال الثاني، يكون مجموع زوايا المثلث أقل من زاويتين قائمتين . أما الاحتمال الثالث فهو مرفوض ، لأنه يؤدي الى نقض موضوعة اقليدس الثانية ، التي تنص على أن المستقيم يمكن مده الى مالا نهاية .

وأضاف ساكيري ملاحظة هامة الى هذه النتائج : اذا صدف وجود مثلث واحد يكون مجموع زواياه مساوياً الى زاويتين قائمتين ، فان جميع المثلثات يكون مجموع زواياها مساوياً أيضاً الى زاويتين قائمتين .

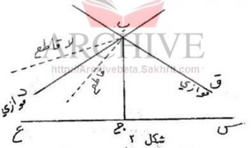
وهكذا يبدو ان ساكيري كان أول من راودته فكرة احتمال وجود هندسة يكون فيها مجموع زوايا المثلث أقل من زاويتين قائمتين، وتقوم بالتالي على موضوعة مناقضة لموضوعة اقليدس الشهيرة .

وجاء بعد ساكيري رياضيون أمثال لامبرت (١٧٢٨ – ١٧٧٧) ، لا غرانج (Lagrange) (١٧٣٦ – ١٨١٣) ، لا بلاس (١٧٤٩ – ١٨٢٧)، لوجاندر (Legendre) (١٧٥٢ – ١٨٣٣) ، كارنو (١٧٥٣ – ١٨٢٣) و فورييه (١٧٦٨ – ١٨٣٠) ، خاضوا جميعاً في محاولات البرهان على موضوعة اقليدس . وترتدي ابحاث لوجاندر طابعاً ذا أهمية خاصة في هذا المجال ، فقد تمكن هذا الرياضي ، دون الاستناد الى موضوعة اقليدس ، من البرهان على ان مجموع زوايا مثلث لا على التعيين لا يمكن ان يتجاوز زاويتين قائمتين . ولكن القبول بهذه النتيجة لا يمكن ان يتم الا اذا افترضنا المستقيم له امتداد لا نهائي .

هندسة لوباتشيفسكي :

أنشأ الرياضي الروسي لوباتشيفسكي (١٧٩٣ – ١٨٥٦) هندسة تحمل اسمه الى اليوم، وتقوم على معطيات اقليدس الأولية وموضوعاته، باستثناء الموضوعة الخامسة، اذ يفترض لوباتشيفسكي انه من نقطة خارج مستقيم معلوم يمكن ان ننشيء أكثر من موازٍ واحد لهذا المستقيم . وقد اطلق لوباتشيفسكي آنذاك عـلى هندسته اسم : الهندسة الكلية Pangéométrie أو الخيالية Imaginaire . والحقيقة ان هذه الهندسة عالجها في آن واحد تقريباً ، بالاضافة الى لوباتشيفسكي ، اكثر من عالم رياضي واحد ، أمثـال غوص (Gauss) (١٧٧٧ – ١٨٥٦) الذي اطلق على هذه الهندسة اسم الهندسة اللااقليدية، و شويكارت (١٧٨٠ – ١٨٥٧) وطورينوس (١٧٩٤ – ١٨٧٤) وبولاي Bolay (١٨٠٢ – ١٨٦٠) .

لدينا المستقيم اللامتناهي س ع، والنقطة ب الواقعة خارج هذا المستقيم (شكل ٢).



شكل ٢

المستقيمات المنبثقة من النقطة ب والواقعة ضمن المستوى ب س ع تنقسم الى مجموعتين: المجموعة التي تقطع في امتدادها المستقيم س ع ، وتسمى القواطع ، والمجموعة التي لا تقطع في امتدادهـا المستقيم س ع ، وتسمى اللاقواطع .

المستقيمان ب د و ب ق اللذان يفصل كل منهما بين مجموعة القواطع ومجموعة اللاقواطع يدعيان بالمستقيمين الموازيين للمستقيم س ع من النقطة ب .

العمود ب ج عـلى المستقيم س ع يقسم الزاوية د ب ق الى زاويتين متساويتين د ب ج و ق ب ج تدعى كل منها بزاوية التوازي (أو قوة التوازي) . وهذه الزاوية هي تابع للمسافة م = ب ج . فاذا تناقصت م ودنت من الصفر ، فان زاوية التوازي د ب ج تتزايد الى زاوية قائمة ، أما اذا تزايدت م الى ما لانهاية ، فان زاوية التوازي د ب ج تتناقص الى الصفر .

هذا مع العلم انه في هندسة اقليدس تكون زاوية التوازي مساوية دوماً الى زاوية قائمة ، مهما كانت قيمة م .

المنحنيات المنتظمة في هندسة لوباتشيفسكي :

المنحني المنتظم هو المنحني الذي يكون متشابهاً في جميع أجزائه ، مثال على ذلك : الدائرة أو قوس الدائرة .

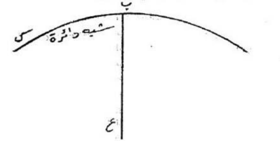
في هندسة لوباتشيفسكي ، بالاضافة الى الدائرة ، يوجد منحنيان منتظمان آخران : شبه المحيط Exocycle ، وهو المحل الهندسي للنقاط متساوية البعد عن مستقيم معلوم س ع (شكل ٣) ؛ وشبه الدائرة Horicycle ، وهو المنحني الذي ينتهي اليه شكل الدائرة ، عندما يبتعد مركزها الى مالانهاية (شكل ٤) ، في هذه الحالة ، ندعو قطر الدائرة ، الذي تزايد الى المستقيم اللانهائي ب ع ، محور شبه الدائرة .



شكل ٣

مع العلم انه في هندسة اقليدس يكون كل من المحل الهندسي المذكور وكذلك نهاية الدائرة التي يبتعد مركزها الى مـالانهاية ، خطاً مستقيماً .

بعض نتائج هندسة لوباتشيفسكي ومقارنتها .



شكل ٤

مع نتائج هندسة اقليدس :

١ — استحالة وجود شكل مربع او مستطيل في هندسة لوباتشيفسكي

٢ — استحالة وجود شكلين متشابهين في هندسة لوباتشيفسكي

٣ — في هندسة لوباتشيفسكي ، يكون مجموع الزوايا الداخلية للمثلث أقل من زاويتين قائمتين ، ويمكن أن يصل هـذا المجموع الى اية قيمة قريبة من الصفر (ربع درجة مثلا !!) ، تبعاً لمساحة المثلث في حين انه في هندسة اقليدس يكون مجموع الزوايا الداخلية للمثلث ثابتاً ومساوياً دوماً الى زاويتين قائمتين .

٤ — اذا كان لدينا دائرة وأخذنا على محيطها (ن) نقطة تقسم هـذا المحيط الى (ن) قسماً متساوياً ثم إذا أنشأنا من هذه النقاط مماسات لهذه الدائرة، فان هذه المماسات تتقاطع في امتدادها وتشكل مضلعاً منتظماً له (ن) ضلعاً : كل ذلك في حد معين لطول قطر الدائرة . اما اذا تجاوز الطول هذا الحد المعين، فان المماسات المذكورة لن تتقاطع على الاطلاق . !!

في حين ان هذه المماسات ، في هندسة اقليدس ، تتقاطع في امتدادها ، مهما كانت مساحة الدائرة .

٥ — في هندسة اقليدس ، تكون نسبة محيط الدائرة الى قطرها ثابتة ومساوية الى π = ٣،١٤١٦ ، في حين انه في هندسة لوباتشيفسكي تتزايد هـذه النسبة ، تبعاً لتزايد قطر الدائرة ، حتى يمكن ان تصل الى حد يتجاوز أي رقم مفروض ، ملايين الملايين مثلا . بحيث انه اذا امكننا تطبيق هذا الحكم في عالمنا المحسوس وضمن نطاق تجاربنا ونشاطاتنا ، فاننا نصل ـ على سبيل المثال ـ الى مثل هذه النتيجة : لدينا سيارة قطر كل من عجلاتها /٥٠/ سنتيمتراً . فاذا انطلقت هذه السيارة من دمشق فانها ستصل الى بغداد ، بعد ان تكون عجلاتها قد دارت دورة واحدة فقط !!!

٦ — في هندسة اقليدس ، اذا كان لدينا دائرتان نسبة قطر الكبرى منهما الى قطر الصغرى كنسبة ١٠ الى ٩ ، فان نسبة محيطيهما تكون ايضاً كنسبة ١٠ الى ٩ .

أما في هندسة لوباتشيفسكي ، فان الدائرتين ، اذا أخذتا بالتعاظم ، مع المحافظة على النسبة ذاتها بين القطرين (١٠ الى ٩) ، فان محيط الدائرة الكبرى يمكن أن يصل الى ملايين الملايين من أضعاف محيط الدائرة الاصغر !!

الهندسة شبه الكروية :

لنرجع الى الشكل رقم (٤) ولنجعل المنحني ب س يـدور حول المحور ب ع ، ندعو السطح الذي يمسحه المنحني $\widehat{بس}$: السطح شبه الكروي .

فالسطح شبه الكروي ما هو اذن سوى الشكل الذي ينتهي إليه سطح الكرة عندما يبتعد مركزها الى ما لا نهاية . (في هندسة اقليدس يكون هذا السطح النهائي مستوياً) .

واذا قمنا بدراسة خصائص أشياء الدائرة المرسومة على السطح شبه الكروي ، يتبين لنا أنها تشبه خصائص الخط المستقيم المرسوم عـلى المستوى ، وذلك ضمن نطاق المعطيات الأولية التي حددها اقليدس في كتابه « الاصول » بالنسبة للخط المستقيم . غير أنه في حالة أشباه الدوائر المرسومة على السطح شبه الكروي ، فان الموضوعة الخامسة لاقليدس (موضوعة المتوازيات) لايصار الى تصنيفها ضمن مجموعة « الموضوعات » ، وانما تصبح منطوقة يتنقل إليها بالبرهان المنطقي انطلاقاً من المعطيات السابقة ، أي انه يجري تصنيفها في مجموعة (النظريات Théorémes) .

وعلى هذا الاساس ، يكون بامكاننا أن ننشىء على سطح شبه كروي هندسة كاملة تكون نتائجها مماثلة تماماً لهندسة اقليدس المستوية : انشاء أشكال متشابهة ، ايجـاد العلاقات الثابتة بين هذه الاشكال ، ايجاد العلاقات الثابتة بين عناصر الشكل الواحـد ، انشاء العلاقات المثلثاتية . . . الخ . وبتعبير آخر . يمكن القول ان جميع نظريات وأحكام ونتائج هندسة اقليدس المستوية تماثل منطوقاتها مع منطوقات الهندسة شبه الكروية ، ولكن بعد استبدال كلمة : مستقيم بكلمة : شبه دائرة ويبقى معلوماً بطبيعة الحال أن الهندسة شبه الكروية ما هي الا فرع أو نتيجة لهندسة لوباتشيفسكي .

هندسة ريمان :

لدينا على المستوى مستقيم معين ونقطة واقعة خارج هذا المستقيم . هناك ثلاثة

افتراضات لا غير تتعلق بالمستقيمات المنبثقة عن هذه النقطة ، واحتمال تقاطعها مع المستقيم الأول :

الافتراض الأول : لا يوجد سوى مواز واحد من هذه النقطة لذاك المستقيم (موضوعة اقليدس) .

الافتراض الثاني : يوجد أكثر من مواز واحد (موضوعة لوباتشيفسكي)

الافتراض الثالث : لا يوجد أي مواز للمستقيم المذكور

الا أنه في حال قبولنا بموضوعة اقليدس الثانية ، التي تنص على أن المستقيم يمكن مده الى ما لا نهاية ، فان هذا الافتراض الثالث لا يمكن القبول به ، كما سبق وأسلفنا في حديثنا عن محاولات ساكيري ولوجاندر .

وبتعبير آخر ، اذا قبلنا بالافتراض الثالث ، يتوجب علينا أن نقبل في الوقت نفسه الحكم بأن الخط المستقيم له طول محدود . وهذا بالفعل ما قام به الرياضي ريمان (١٨٢٦ – ١٨٦٦) .

في هندسة ريمان لا وجود لفكرة المتوازيات ، كما أن الخط المستقيم لا يمكن مده إلى ما لا نهاية ، وانما هو أشبه ما يكون بمنحنٍ مغلق ، وكذلك فان مجموع زوايا المثلث يكون دوماً أكبر من زاويتين قائمتين .

مستقيم اقليدس ومستقيم لوباتشيفسكي :

يبدو أن الفارق الأساسي بين هندسة اقليدس وهندسة لوباتشيفسكي هو في موضوع عدد الموازيات التي يمكن انشاؤها لمستقيم معلوم من نقطة واقعة خارج هذا المستقيم . ومن هذا الفارق الأساسي تفرعت بقية الفوارق المتعددة والكبيرة والمدهشة بينهما .

ولكن ، الا يمكن أن نكتشف فارقاً أساسياً آخر ، عدا الفارق المذكور ، بين الهندستين ؟

لنلاحظ على سبيل المثال هندسة ريمان . فان هذه الهندسة تختلف أيضاً مع الهندستين المذكورتين في نفس الفارق الأساسي المشترك بينهما . وهو موضوع عدد الموازيات لمستقيم معلوم ومن نقطة معينة . ولكن بين هندسة ريمان وهندسة اقليدس يوجد فارق أساسي آخر : وهو مفهوم الخط المستقيم بين الهندستين .

ففي حين تعتبر هندسة اقليدس وهندسة لوباتشيفسكي الخط المستقيم ممتداً الى

ما لا نهاية ، فان هندسة ريمان تعتبره خطاً محدوداً . بل ان هـذا الفارق الأساسي هو أسبق من ذاك الفارق (أي موضوع المتوازيات) ، بمعنى انه اذا اعتبرنا - بالأساس - الخط المستقيم محدوداً لا يمكن مده الى مالا نهاية، فان هذا الاعتبار ينتج عنه بالضرورة حكم يمكن اثباته بالبرهان المنطقي ، وهذا الحكم هو : من نقطة واقعة خارج مستقيم معلوم ، لا يمكن أن ننشىء أي مواز لهذا المستقيم .

ونتساءل الآن،هل أن مفهوم الخط المستقيم بالنسبة لهندسة اقليدس ، هو نفسه بالنسبة لهندسة لوباتشيفسكي ؟

الاجابة على هذا التساؤل تلوح وراء تصورنا الشكل الذي ينتهي اليه محيط الدائرة عندما يبتعد مركزها الى ما لا نهاية .

هناك افتراضان لا غير :

الافتراض الاول : أن يكون هـذا الشكل النهائي خطاً مستقيماً من خصائصه كونه أقصر مسافة بين نقطتين في الفراغ (موضوعة اقليدس الاول)

الافتراض الثاني : ان يكون هـذا الشكل منحنياً (شبه دائرة لوباتشيفسكي)

الافتراض الاول يقودنا بالضرورة ، وعن طريق البرهان المنطقي ، الى موضوعة اقليدس والى الهندسة الاقليدية .

أما الافتراض الثاني فانه يقودنا بالضرورة ، وعن طريق البرهان المنطقي أيضاً ، الى موضوعة لوباتشيفسكي والى الهندسة اللوباتشيفسكية .

المطلوب ان نحكم على هذين الافتراضين ايها الصائب وأيها الخاطىء ، أو حسب النسبية ، ايها أكثر ملاءمة .

نحن كـكائنات متحركة وهبها الله نعمة البصر والبصيرة وميزة التخيل،لا يمكننا أن نتصور الفراغ الذي نتواجد في مركزه ، الا على شكل كرة ، يحيط بنا جدارها المترامي حتى الأبد ، من كل جانب ومن كل اتجاه . هذا التصور لابد أن يطبـع في بصيرتنا الشكل النهائي (المنحني) للدائرة ،عندما يبتعد مركزها الى اللانهاية.ولايوجد

أمر على الاطلاق يمكن أن يمنـع من التأكيد ان هذا الشكل يبقى منحنياً على الدوام ، سواء جرى انطباعه في أبعد أبعاد تصورنا ومخيلتنا، أو تواجده في متناول أحاسيسنا وتجاربنا العملية .

الافتراض الثاني اذن هو الذي يلائم بنيتنا الواعية وتركيبنا الذهني .الافتراض الاول يلائم فقد أحاسيسنا ومجال نشاطاتنا وتجاربنا. ولكن هذا المجال،اذا قيس بالفراغ اللانهائي ، يظل أضيق بكثير من أن يتمكن ، استناداً الى موضوعة تفتقر الى البرهان من اعطاء حلول نهائية وشاملة للمسائل التي لابد وأن يتناولها البحث في المستقبل ، وفي مجالات أوسع وأبعد بكثير وكثير من مجال نشاطنا الحالي .

قد يصاب بعض الاقليديين بخيبة أمل مريرة في حال القبول بالفرض الثاني . فانهم ، وهم الذين تمكنوا من تشييدفراغ طابعه الانسجام التام بين أجزائه،واستطاعوا انشاء الاشكال المتشابهة وايجاد العلاقات الثابتة بينها ، لن يتقبلوا بسهولة الدخول في العالم اللااقليديذي الاحكام المذهلة والنتائج التي ترتعد لها الاحاسيس ، والتي أوردنا أمثلة عنها في هذه الصفحات . كما أنهم سيرددون الحجة الازلية بأن التجربة والواقع يثبتان على الدوام صحة هندستهم وماينجم عنها من معادلات وحسابات .

هذه الحجة بالذات تنطبق أيضاً على الهندسة شبه الكروية ، التي هي نتيجة لهندسة لوباتشيفسكي أو فرع من فروعها . على سبيل المثال ، يقوم البرهان في هذه الهندسة على أن مجموع زوايا المثلث يعادل زاويتين قائمتين . ويأتي الواقع وتأتي التجربة ليدعما عملياً اثبات هذا الحكم، وان كانت اضلاع هذا المثلث، من الوجهة النظرية، غير مستقيمة، وانما هي أقواس من شبه دائرة . الا انه في نطاق تجاربنا ومشاهداتنا ، المحدود نسبياً ضمن الفراغ اللامتناهي،يبدو لنا المستقيم المماس لشبه الدائرةوكأنه ينطبق على المنحني المذكور. فعلى امتداد يتجاوز ملايين الكيلو مترات، أو ملايين السنين الضوئية، لا يعقل أنتتمكن من التمييز بين الخطين المذكورين استناداً الى احاسيسنا أو الى اجهزتنا القياسية ، مهما بلغت من دقة الصنع .

وعلى هذا الأساس ، فان الخط المستقيم الذي يبني عليه الاقليديون هندستهم ، والذي نسميه بمستقيم اقليدس، ما هو في الواقع الا جزء من شبه دائرة. وحين تتجاوز حقول تجاربنا ونشاطاتنا حدودها الحالية الى آفاق ابعد وابعد ، سوف يتكشف لنا عملياً ان هذا المستقيم لا ينطبق عليه حكم الموضوعة الأولى التي دونها اقليدس في كتابه « الأصول » ، والتي تنص على ان نقطتين في الفراغ تحددان مستقيماً واحداً . أما

قبولنا بهذه الموضوعة فانه سيقودنا حتماً الى رفض موضوعة اقليدس الخاصة المتعلقة بالمتوازيات .

استناداً الى ما تقدم ، فان هندسة اقليدس ، كي تكون مقبولة في حدود القواعد المنطقية، يتوجب عليها ان ترفض الموضوعة الأولى لاقليدس، المتعلقة بتحديد مستقيم واحد بين نقطتين في الفراغ . تماماً كما هو عليه الحال بالنسبة لهندسة ريمان التي رفضت أيضاً اضافة الى ذلك وحتى يتم قبولها منطقياً ، الموضوعة الثانية لاقليدس ، التي تنص على ان المستقيم يمكن مده الى مالانهاية .

وتأتي بعد ذلك المسائل والمعادلات الرياضية التي تطرحها هندسة لوباتشيفسكي ، فتدعم بشكل واقعي النظرية التي سبق وأوردناها ، والتي تفترض أن هندسة اقليدس ماهي الا حالة من حالات هندسة لوباتشيفسكي . ويكفي دليلاً على شمول هذه الهندسة الأخيرة، واحتوائها على الهندسات الأخرى، أنها تتمكن من حل مسائل جبرية محضة بطرق هندسية محضة ، قد يعجز عن حلها علم الجبر بوسائله الخاصة . مثال على ذلك المسألة التالية :

لدينا المتوالية التالية من كثيرات الحدود :

$$\text{ق}_1 = \text{س}$$

$$\text{ق}_2 = (4\,\text{س}^2 - 2)\,\text{ق}_1 - \text{ق}_1$$

$$\text{ق}_3 = (4\,\text{س}^2 - 2)\,\text{ق}_2 - \text{ق}_1$$

$$\text{ق}_4 = (4\,\text{س}^2 - 2)\,\text{ق}_3 - \text{ق}_2$$

$$\text{ق}_{\text{ن}} = (4\,\text{س}^2 - 2)\,\text{ق}_{\text{ن}-1} - \text{ق}_{\text{ن}-2}$$

اذا افترضنا : $\text{ق}_{\text{ن}} = \text{هـ}$ ، فان هندسة لوبانشيفسكي تستطيع ايجاد أحد جذور هذه المعادلة المعقدة ، أي ايجاد احدى قيم س، بدلالة هـ ، التي تحقق المعادلة المذكورة .

والخلاصة التي يتعين علينا أن نختتم بها هذا العرض هي ما يلي :

ــ الهندسة التي تبنى على الخط المستقيم هي هندسة لوباتشيفسكي .

ــ فاذا انحنى هـذا المستقيم واتخذ شكل شبه دائرة ، فانه يكون أساساً لهندسة اقليدس .

ــ أما اذا تجاوز انحناؤه هذا الشكل ، فانه يصح أن يكون أساساً لهندسة ريمان .

بيلاك جيومي

دفاعاً عن الحتمية

هذا دفاع عن الحتمية . دفاع عن اتساقها النظري ، وعن الآمال العريضة التي تقدمها للانسان . ذلك أنه على الرغم من هذه المزايا فان سمعة الحتمية سيئة . فتارة تبدو وكأنها سيئة الأخلاق تنبذ القيم الرفيعة ، وتارة أخرى تبدو خشنة الطباع إذ ترد نقاوة الروح الى غلظة المادة ، وفي كل الأحوال تراها تبعث على التشاؤم والتخاذل بما تطلقه من رؤى سوداء حول مستقبل الانسان .

والحق ان الحتمية رفعت صوتها مراراً تحاول رد هذه التهم عن نفسها وتسعى الى الإفصاح عن أبعادها الحقيقية . ولكن أنى لصوتها أن يسمع والحرية تملأ الأسماع وتلهب ضمائر المفكرين بمفاهيمها المجنحة . فتارة تراها تتحدث عن قيم سامية تعلو على عالم الوقائع ، وتارة أخرى تجعل النفس بسبطة متعالية .

وفي كل الأحوال تفتح الأفق أمام الانسان بدون حدود حين تؤكد قسرته بمفردات خلاقة من مثل الخلق والإبداع .

غير أن هذا الدفاع عن الحتمية ليس انحيازاً فجاً الى جانبها ، أي أنه ليس رداً لمشكلة الحرية الى صيغة إما — أو . ذلك ان مثل هذا الرد يتجاهل إشكالية المسألة ، هذه الإشكالية النابعة من الطبيعة المبهمة للفعل الانساني ، وبصورة أعم ، من صعوبة تحديد العلاقة بين الانسان والطبيعة .

سأبدأ بعرض وجهة نظر أنصار الحرية ونقدها ، لأنتهي بدفاعي عن الحتمية . ولكن قبل كل شيء سأحاول إزالة التباس يتعلق بتحديد المشكلة .

إن الحرية المقصودة في هذا البحث هي المشكلة الفلسفية التي يدور النقاش حولها منذ زمن طويل . إنها ليست الحرية من الضغط الخارجي . ذلك أنه لايوجد أحد ينكر قيامنا بأفعال حرة بهذا المعنى . وأعني بالضغط الخارجي هنا مثلاً ، التهديد الذي يسلب الفعل حريته . إلا أنه على الرغم من وضوح هذه المسألة فان من يسمون عادة « بالفلاسفة اللغويين » قد ساهموا مؤخراً في تغذية مثل هذا الالتباس ، أي الالتباس بين الحرية بالمعنى الفلسفي أو السايكولوجي وبين الحرية من الضغط الخارجي يرد الأولى الى الثانية . ومن هؤلاء على سبيل المثال : ماكس بلاك (١) وأنطوني فلو (٢) . يقدم « فلو » المثال التالي محاولاً البرهان على حرية الفعل الإنساني . « لننظر إلى حالة رجل يتزوج الفتاة التي يريد دون أي ضغط اجتماعي .

ويقول أنه مادام لدينا مثل هذه الحالة النموذجية Paradigm case ، فلا يجوز لنا على أي أساس أن نقول انه لايوجد أحد يقوم بأفعال حرة » ويتابع قائلاً « اذا كانت هناك أي كلمة يمكن ان يتعلم المرء معناها بالاشارة الى حالة نموذجية ، فما من حجة اذن تستطيع اثبات ان مثل هذه الحالة غير موجودة » (٣) مايريد فلو قوله هنا هو أن معنى الكلمة يكمن في استعمالها ، ونحن نتعلم الكلمات من استعمالها في حالات معينة . فاذا أردنا أن نعرف معناها فما علينا إلا أن ننظر إلى الحالات النموذجية أو، كما يسميها «بلاك» الى الحالات الواضحة التي تستعمل هذه الكلمات للدلالة عليها ، والتي

1 — MAXBLACK « Making some thing happen » Published in his models and metaphovs , Cornell university press. p, 153

2 — ANTONY FLEW . Essays in conceptual analysis mamillan and co.ltd , p. 19

3 — Ibid .

تعلمناها أساساً من استعمالها في مثـل هـذه الحالات . وعلى هذا الأساس فمادامت هناك حالة نموذجية لاستعمال كلمة حرية فهنـاك أفعال حرة ، ونفي مثل هذه الافعال خاطىء لأنه لولم توجد هذه الحـالة فكيف دخلت الكلمة الى لغة الحياة اليومية؟ الحجة غريبة إذ هل يكفي عدم ورود كلمة ما بمعنى معين في لغة الحياة اليومية سبباً للقول ان هذه الكلمة لامعنى لها ؟ « هناك ظروف درجنا فيها ، بطبيعة الحال ، على استخدام كلمة « حرية » فيها . ولكن لدينا معياراً مشتقاً أيضاً . يقول بعض المفكرين إن الانسان حر فقط إذا كان سلوكه يصدر عن فعل إرادي لاعلة له . فاذا أردنا أن نجيب أنه مامن فعل تتحقق له مثل هذه الصفة ، فاننا نقول : لاتوجد أفعال حرة . وقولنا هـذا مفهوم تماماً في سياق فلسفي» ويتابع جون باسمور نقده لحجة الحالات النموذجية قائلا : « إن مثل هذه الحجة لاتثبت أن موقفاً فلسفياً ما لامعنى له . وعلى أي حال فان مثل هذه المشكلات لايجوز أن تفسر بنفس الطريقة التي يمكن أن يفسرها شخص غير متعلم»(٤) هذا هو الالتباس الذي أردت إزالتـه إذن ، المشكلة ليست انتفاء الضغط الخارجي . انها مشكلة أخرى تماما تلك التي سنشرع في بحثها الآن .

* * *

يرد « براند بلانشارد » : حجج أنصار الحرية إلى ثلاث[٥] : شهـادة الشعور المباشر ، الفيزياء الحديثة ، والمسؤولية الأخلاقية . وسأعرض هذه الحجج وأناقشها على التوالي .

أولا : شهادة الشعور المباشر

تقوم هذه الحجة على أساس أن الانسان يمتلك شعوراً طاغيا بأنه حر يريد أن يرفع يده فيفعل ، ويريد أن ينزلها فينزلها . ويتبدى هذا الشعور "للانسان" في كل مرة يقف فيها أمام عدة ممكنات ، فتراه يفكر ويقلب الرأي ويتردد ثم يختار واحداً من هذه الممكنات . ويرى بعض المفكرين أن هذا الشعور يتجاوز كل برهان ويتحدى أي دليل . لقد كانت هـذه الشهادة في بعض الأحيان أحد الأسباب التي أوصلت المشكلة الى طريق مسدود . يقول نصير الحرية ،

4 — JOHN PASSMORE . Philosophical reasoning , Basic Books , Ihe , publishers , p. 118

5 — BRAND BLANSHARD, The case çor determinism . published in Sidngey Hooks « Determinism and Freedom » newyork university , p. 20

الانسان حر بشهادة الشعور المباشر . فيرد عليه الحتمي قائلا : هل تستطيع اثبات صدق هذا الشعور؟ فيجيبه الأول : انا مقتنع بصدقه فهل تستطيع انت تزييفه ؟ وكما هو واضح فان النقاش تحول هنا من بحث عن الحقيقة الى مساجلة وحسب . وعلى أي حال فان عجز الحتمي عن تزييف شهادة الشعور المباشر لايكفي كأساس لتصحيحها . الا أن بعض المفكرين الحتميين قبلوا التحدي وحاولوا اثبات أن مثل هذا الشعور لايصلح أساساً لاثبات الحرية . « فبراند بلانشارد » مثلا يفسر هذا الشعور « بأن انظارنا ، في لحظة الاختيار تكون موجهة نحو المستقبل أي نحو النتائج التي يمكن أن تترتب على فعل من الأفعال ، ولاتكون موجهة نحو الماضي حيث تكمن الشروط التي تحتم سلوكنا . ومن هنا فان هذه الشروط تفوت الملاحظة ولايفي أننا تحت ضغطها » . ويضرب بلانشارد مثالا على هذا التفسير . « فعندما يفكر أحدنا بشراء آلة كاتبة فان اهتمامه يكون منصباً على المتعة والمنفعة التي سيجنيها منها ، أو على الخلل الذي سيحدثه شراؤها في ميزانيته . اننا لانتقب في مثل هذه الأحوال عن الاسباب التي جعلتنا نشعر بالمتعة من جراء اقتناء آلة كاتبة ، او التي سببت لنا عقدة تتعلق بالانفاق »(٦) والحق أن هذا التمييز بين لحظتين ، لحظة ماقبل الفعل واللحظة التي تليه تمييز حاسم يجب أن لا نغفل عنه . وقد فطن له « فرانسيس جالتون » مثلاً الذي كان يسجل المناسبات التي يقدم فيها على اختيارات هامة والشعور الغامر بالحرية يملأه . وبعد كل اختيار كان يلتفت باحثاً عن عوامل الجبر التي حدت به الى مثل هذا الاختيار . فكان في كل مرة يعثر على هذه العوامل بسهولة الى درجة انه أذعن لوجهة النظر الحتمية »(٧) . ان الفعل قبل حدوثه يشبه مروحة يد مفتوحة ومركزها في الأسفل . انقباضها يشبه امكانات الاختيار أمام الانسان . ولكن بعد حدوث الفعل تنقلب المروحة ويصبح مركزها في الأعلى يشير الى الفعل في حين أن انفتاحها خلفها يشير الى علل الفعل التي انكشفت بعد حدوثه. تشير هذه الأمثلة الى أحد مصادر اشكالية مسألة الحرية ، وهو الطبيعة الزمانية للفعل الانساني . ان هذا الفعل يحدث في الزمان وهذه خاصية جوهرية فيه . وأكثر من هذا فهو لايحدث الا مرة واحدة لاتقبل التكرار. ان الزمانية والتفرد في الفعل الانساني خاصيتان تجعلان من المستحيل الاجابة على السؤال الذي نصوغ به احياناً مشكلة الحرية وهو : هل يمكن أن يكون الماضي خلاف ما كان عليه ؟ ذلك أننا لا نستطيع أن نرجع الزمان ولا

6 — Ibid . p . 21
7 — »

نستطيع أن نعيد الشروط التي تم فيها الفعل للاجابة على هـــذا السؤال . ولكن القبول بمقدمات الحرية يلزمنا بالنظر الى الماضي على أنه ممكن وليس ضرورياً .

والحق أنه يصعب القبول بشهادة الشعور المباشر كأساس لقضية بمثل هذه الاهمية . ولا اعرف على اي اساس يقبل انصار الحرية بها. اذ أن علينا قبل أن نسلم بهذا الشعور اساساً، أن نرهف السمع جيداً لنعرف مـــاذا تقول شهادته بالضبط . ان يقدم لنا احساساً بأن ممكنات كثيرة مفتوحة أمامنـــا ، وأن في وسعنا الاختيار بينها. ولكنه مثلاً وبحكم اسمه لا يخبرنا شيئاً عن اللاشعور . فعلينا اذن أن نجيب على هذا السؤال: هل تكفي المعلومات التي يقدمها الشعور المباشر اساساً لحرية الادارة؟ لا أظن ، فهو لايقدم لنا مثلاً تحديداً واضحاً للأنا ، ذلك المفهوم الاساسي في مشكلة الحرية. ويبدو أن المعلومات التي يقدمها لنا هذا الشعور ضئيلة، أما الباقي فيقوم أنصار الحرية باستنباطه من هذه المعلومات، وتبقى قيمة هذا الاستنباط مرتبطة بمدى صدق المقدمات التي انطلق منها. تلك هي اذن أولى حجـــج انصار الحرية . شهادة موجودة الا أن مداها غـــير مرسوم بوضوح ، وهدفها مشكوك فيه .

٢ ـ الفيزياء الحديثة :

تتسع حجـة انصار الحرية المستمدة من الفيزياء الحـــديثة بالطرافة . ذلك أن العلوم الطبيعية كانت تؤخذ كمثـال يؤكد الحتمية . التي تعرف بأنها « النظرية التي تقول ان كل شيء في الكون محكوم تماماً بالقوانين السببية، وان مايحدث في لحظة ما ليس الا نتيجة لشيء حدث في لحظة سابقـة »(٨) . من الواضح أن في هذا التعريف مصادرة على المطلوب ، ذلك أن الحتمية بهذا المعنى نتيجة نسعى الى اثباتها وليست مقدمة ننطلق منهـا . ويسعى انصار الحرية الى تفتيت مركز المصادرة وهو عبارة « كل شيء » بالتمييز بين مملكة الطبيعة ومملكة الانسان. الا أنه بعد ظهور نظريات معينة في الفيزياء الحديثة لم يعودوا بحاجة الى مثل هذا الفصل . فاللاحتمية ، كمـا تقول هذه النظريات ، كامنة في قلب المادة ذاتها . فالجسم اذا امكن ضبط موقعه تعذر تحـديد سرعته ، واذا تسنى تحديد هذه السرعة تعذر ضبـــط موقعه . هذا في مجال الميكروفيزياء أما في مجـــال الكتل الكبيرة فان المسألة تصبح أكثر ضبطاً وتغدو القوانين احصائية الى درجة تمكننا من القول بسببية في هـــذا المجال . على أي حال ان مناقشة هذه المسألة تحتاج الى مختصين . ان المسألة كما يشير

8 — PAULE DWARDS . Amodern introduction to philosophy. The Free press , Newyork , p. 2

بالنشارد ، « موضع اختلاف ويحتمل عدة تأويلات لذلك يصبح من التسرع على غير المختص ان يقحم نفسه ويدلي برأيه »«٩» لذلك سوف اكتفي بملاحظات عامة جداً تتساوق مع مدى معرفتي . لنفرض أن ما فهمناه من هذه الصيغة الفيزيائية صحيح ، فهل يعني هذا ان الانسان حر ؟ كانت الحرية في الماضي تفترض أناً متعالية عن جبذ العلل ونبذها ، وكانت المشكلة هي تبيان الروابط بين الأنا المتعالية والأنا الاختبارية التي هي موضوع علم النفس التجريبي . ولكن الذين يستندون الآن الى نظريات الفيزياء الحديثة لا يحتاجون الى مثل هذا الفرض ما دامت اللاحتمية كما قلنا كامنة في قلب المادة . انهم يحتاجون، والطرافة هنا ، الى ذات الكترونية أو ميكروفيزيائية !!. أي أن الارادة يجب أن تكون ذات طبيعة جسيمية حتى يتسنى لنا القول عنها بأنها لا تخضع للحتمية .وعلينا أيضاً أن نفترض أن الجسيم في مجال الميكرفيزياء حر بمعنى أنه يفكر ويتردد ثم يختار ! وتكون النتيجة التي تلزم عن مقدمات كهذه هي أن الجسيم يخضع للمسؤولية الأخلاقية. ان عبث كل هذه النتائج واضح، ولكن هذا بالضبط ما يلزم عن حماس أنصار الحرية لنتائج بحوث الفيزياء الحديثة«١٠» .

ثالثاً ــ المسؤولية الأخلاقية :

ذهب بعض المفكرين الى اعتبار الحرية أساساً ينطلق منه أكثر منها نتيجة يبرهن عليها . وهم في ذلك يسلمون بها كمصادرة لما لها من نتائج عملية مفيدة . ومن هذه الزاوية فلقد قيل ان المسؤولية الأخلاقية بدون حرية تفقد معناها ، والحق أن هذه المسألة كانت أحد مصادر الالتباس في طرح مشكلة الحرية ، ذلك أنه لا توجد علاقة بين الحرية، سواء كانت مصادرة أو نظرية توفرت لها البراهين ، وبين المسؤولية الأخلاقية . ان التسليم بالحرية لا يستتبع مثل هذه المسؤولية . ولنسأل أنفسنا ماذا نعني بالمسؤولية الأخلاقية ؟ عندما نعتبر شخصاً ما مسؤولاً من الناحية الاخلاقية عن ارتكابه

9 — BLANSHARD . P. 22

«١٠» كتب صديقي صفوان قدسي مقالاً في « المعرفة » العدد ١٢٧ و ١٢٨ ـــ ايلول ، تشرين الاول ١٩٧٢ ، تحت عنوان : « هل تتحقق الوحدة بالتطور التلقائي ؟ دراسة في معنى الحتمية واللاحتمية » وفيه يستند إلى كشوف الفيزياء الحديثة ليؤكد ان « الحرية حاضرة في قلب الوجود » « ص ، ١١٥ » وواضح ان استخدام كلمة الحرية هنا ليس في موضعه . إن ما نعنيه بالحرية هو القدرة الأصيلة على الاختيار، ولا أظن أن الأستاذ صفوان يعتبر الجسيم في مجال الميكروفيزياء قادراً على الاختيار.

فعلا سيئاً فاننا نعني أن هـذا الشخص في لحظـة ما قد اختار أن يقوم بهذا الفعل ، وكان في وسعه أن لا يقوم به . ولكن السؤال التالي يطرح نفسه : لماذا اختار هذا الفعل ولم يقم بفعل حسن ؟ ألأنه سيء بالفطرة ؟ إذن هو ليس مسؤولا . أم أنه اختار أن يكون سيئاً ؟ وهكذا دواليك فاما أن نسلم أنه سيء بالفطرة أو نقع في تسلسل لامتناهي. ولنقارب الأمر من زاوية أخرى ، الحرية تفترض ذاتاً متعالية وهذا الذات هي منبع للاختيار ، وهي موضع المسؤولية ، فمن حيث هي منبع للاختيار لماذا تختار أفعالاً دون أخرى ؟ إما أنها تفعل ذلك دون سبب وفي تلك الحالة لاتكون الأفعال حرة بل تكون أفعالا عمياء ، واما أنها تختار السبب فهي اذن مشروطة بهذا السبب وليست متعالية ، ان تعاليـاً مشروطاً هو تعبير متناقض «١١» . وأكثر من هذا فان الحتمية من حيث هي موضع للمسؤولية فانها أيضاً موضوع للثواب والعقاب . ولكن عندما نعاقب شخصاً فهل نوقع هـذا العقاب على ذاته المتعالية ؟ ولكن العقاب لايطالهـا مادامت متعالية . أم أننـا نعاقب ذاته الاختيارية ؟ ولكن هذه الذات ليست حرة أي أنها ليست مسؤولة . وأكثر من هـذا وذاك تصبح جدوى التربية مشكوكاً فيها ، ان التربية في ظل فلسفة الحرية يجب أن توجه الى الذات المتعالية بحكم كونها مركز التمييز بين الأفعال وبحكم كونهـا منطلق الاختيار ، ولكن كيف تؤثر التربية في ذات متعالية ؟ اذا أثرت فيها فهي اذن ليست متعالية ؟

تلك هي إذن بعض لنتائج الحرية كمصادرة . ولما كان مبرر قبول المصادرة أصلا هو النتائج النافعة التي تترتب عليها فان التسليم بالحرية هنا يفقد مبرره مادام لايوصل الى النتائج العملية المقصودة منه .

ولكن ماذا عن الحتمية كمصادرة ؟ هنا يكمن واحد من أقوى مواقع الحتمية . ان الاتساق النظري بين مقدمة الحتمية وبين النتائج المترتبة عليها يمنحنا مبرراً كامناً للتسليم بهذه المقدمة ، أولا نحن لسنا بحاجة الى مفهوم المسؤولية الأخلاقية مادمنا لم نتمكن من تأسيسه ، ان الانسان ليس حراً ولذلك عندما يقترف فعلا سيئاً فاننـا لانعتبره « مجرماً » مثلا وانما ننظر اليه على أساس أنه « مريض » يحتاج الى المعالجة ، ومثل هذه المعالجة ممكنة ، مادامت الذات التي نريد معالجتهـا ذاتاً اختيارية تقبل التأثر . فالعقـاب اذن ليس

---

(١١) ان صديقي صفوان يقع في هذه المشكلة أيضاً حين يستشهد بهنترميد ويفترض مفهوم الذات العالية . « ص ١٢٣ »

موجهاً نحو الفعل الذي ارتكب في الماضي وإلا كان انتقاماً ، ولكنه موجه نحو مستقبل الفاعل نفسه ونحو الآخرين . ولقد فطن « بروتاغوراس » قبل خمسة وعشرين قرناً الى هذه المسألة . فقال : « عندما نعاقب الذين يقترفون أفعالاً خاطئة ، فاننا لانوجه اهتمامنا الى أن هذا الشخص قد اقترف هذا الفعل في الماضي ، ولا نعاقبه على هذا الاساس الا اذا كنا نريد الانتقام الأعمى . وكأننا بهائم . كلا • ان الشخص العاقل لايوقع العقاب من أجل الجريمة التي ارتكبت « فبعد كل شيء لايستطيع احد أن يغير الماضي »، ولكنه يفعل ذلك من اجل المستقبل ، كي يمنع مرتكب الفعل نفسه أو الآخرين «خوفهم من العقاب » من تكرار مثل هذا الفعل الخاطىء . » ويتابع بروتاغوراس كلامه واضعاً أساس نظريات علم النفس والتربية الاختبارية « كالسلوكية مثلاً » فيقول : « وهذه النظرية في العقاب تعني ان الفضيلة يمكن تغرس في الانسان بالتربية »(١٢) . واكثر من هذا فان الحتمية لاتستثير الا العواطف الرقيقة في الانسان . ذلك اننا إذ ننظر الى « المجرم » على اساس انه مريض فان المشاعر المقابلة لهذا الموقف هي مشاعر الرثاء والتعاطف والمحبة وليست مشاعر الكراهية والحقد التي تنجح عن تبني وجهة نظر الحرية .

تلك هي اذن نتائج الحتمية كاملة . فهي تبرر وجودها بتماسكها مع النتائج التي ترمي الى تحقيقها ، وتقدم نظرية متسقة عن المستويات النفسية والتربوية والاجتماعية .

ولكن هل تدفع الحتمية حتماً الى التشاؤم والتخاذل ؟ هل يخلد الحتمي الى الدعة والكسل على اساس أن ما سيكون لابد له أن يكون لذلك لاداعي لبذل الجهد ؟ هل يصاب الحتمي بالقنوط بسبب نظريته التي تقول ان لامجال لتغيير مجرى الحوادث ؟

ان طرح مشكلة الحرية بالصيغة البسيطة « إما — أو » يغفل الطبيعة الاشكالية لها . ذلك انه لايوجد اشكال واحد هو الحرية — الحتمية بل ان هناك اشكال آخر هو الحتمية — الوعي .

ان الانسان قد يكون محتوماً ولكنه في نفس الوقت ، ومن حيث المبدأ ، قادر على وعي مبادىء هذه الحتمية بالتدريج، وكأن الحتمية ذاتها تحمل في قلبها بذرة الوعي الذي يكشفها . فنمو الوعي لايعني نفي الحتمية ولكنه يعني معرفة مبادئها وطرق عملها . وهذه المعرفة هي العلم . وكما حدث في العلوم الطبيعية فان ازدياد معرفة الانسان بمبادىء

12 — W.K.C. CUTHRIE . Ahisrory of greek philosophy , Cambridge university press , V. 3 , p. 67

الحتمية منحه القدرة على تسخيرها لصالحه كما بعث فيه الطمأنينة لأنه مكنه من التنبؤ ولم يترك المستقبل أمامه مظلماً تماماً. وان جهد الانسان في علم النفس مثلاً لمعرفة مبادىء سلوكه سوف يمكنه من معرفة أعماق نفسه، كما سيقدم له أيضاً أساساً متيناً يقيم التربية عليه. وعلى سبيل المثال فان واطسون يعرف السلوكية على أنها «العلم الذي يهيء الناس لفهم مبادىء سلوكهم» «١٣». فهم المبادىء: ذلك هو المعنى العميق للصيغة الشهيرة: الحرية وعي الضرورة.

فالانسان بمقدار ماينفذ بوعيه الى أعماق نفسه، والى أعماق تاريخه، بمقدار مايصبح أكثر قدرة على اعادة تشكيل نفسه وتاريخه. قد تبدو هذه الصيغة القائلة بأن الانسان محتوم وقادر في نفس الوقت على وعي هذه الحتمية صيغة اشكالية، ولكن من ذا الذي يستغرب أن يكتشف اشكالاً ما في علاقة الانسان بالطبيعة وبنفسه؟

ولعلها، في نهاية الأمر، مشابهة تبعث على التأمل العميق تلك التي نراها بين تعريف الفلسفة وتعريف الحرية بالمعنى الاخير. يعرف ارسطو الفلسفة بأنها علم المبادىء الاولى، والحرية كما رأيناها هي معرفة المبادىء، وتزداد هذه الحرية بازدياد اولية المبادىء التي نعرفها، أي ان اتساع النظر وتعمقه يؤدي في نفس الوقت الى منح العمل إتساعاً مساوقاً في الاتساع والعمق.

---

13 — JOHN B. WATSON. Behaviorism, the university of chicago-press, p. 303

من مملكة الطبيعة
إلى مملكة الانسان

صفوان قدسي

حتى لا نقع في أشكال لا مبرر له مع الصديق بلال جيوسي الذي يشكل مقاله المنشور آنفاً محاولة للرد على الدراسة المطولة التي سبق أن نشرتها في العدد الخاص بالوحدة العربية الذي أصدرته « المعرفة » ، فانني سوف أتقدم مباشرة الى التعقيب على عدد من النقاط التي يثيرها المقال المذكور .

١ – ان العودة الى كشوف الفيزياء الحديثة بهدف البرهان على ان الحرية حاضرة في الوجود المادي ذاته ، انما تستمد مبرراتها من محاولة أنصار الحتمية اللجوء الى الفيزياء التقليدية للابانة عما في الطبيعة من تناغم واتساق

يتوجب ردهما الى حتمية فيزيائية يخضع لها الكون خضوعاً كلياً وشاملاً . وفي دراستي المذكورة « هل تتحقق الوحدة بالتطور التلقائي ؟. دراسة في معنى الحتمية واللاحتمية » ، سلطت بعض الأضواء على المحاولات المبذولة لاخضاع العلوم الانسانية لمنطق العلوم الطبيعية بشكل متعسف ، وهي محاولات تقوم على افتراض ان العلوم الانسانية لا تشكل مملكة مستقلة وانما هي تدخل في نطاق مملكة العلوم الطبيعية ، الأمر الذي يؤدي بطبيعة الحال الى القول ان ما ينسحب على الطبيعة من قوانين ، لا يفلت منه الانسان باعتباره جزءاً من كل شامل هو هذا الكون الذي يمكن الكشف عما فيه من تناغم واتساق . وقد وصلت هذه المحاولات في وقت من الاوقات الى تخوم الادعاء القائل انه ما دام الأمر على هذا النحو ، أي ما دامت الفيزياء التقليدية تنبيء عن وجود حتمية تفرض نفسها على الطبيعة ، فان هذه الحتمية تمتد وتتسع لتلقي بظلها على الانسان بحيث تخرجه من مملكته المستقلة وتجعله مجرد تابع لنظام أكبر منه يجعل من حريته مجرد توهم لا يستند الى أي أساس من الواقع .

٢ ـ أن موقف انصار الحتمية الذين توهموا امكانية نفي الحرية بالاستناد إلى الكشوف الفيزيائية ، أدى بطبيعة الحال إلى موقف مماثل من أنصار اللاحتمية . وساعدهم على ذلك ان كشوف الفيزياء الحديثة تنبيء عن حقائق جديدة لم تكن معروفة لدى الفيزياء التقليدية ، وهي حقائق تثير مجموعة نقاط ، منها على سبيل المثال ان « الحتمية قد اختفت تدريجياً من الفيزياء النظرية » إلى حد ان جيمس جينز ، وهو عالم انكليزي ذائع الصيت ، صرح قائلاً ان العلم لم يعد يستطيع ان يقدم لنا حججاً قاطعة لا سبيل إلى تفنيدها ضد شعورنا الفطري بحرية ارادتنا . وكما يكتب الدكتور زكريا ابراهيم في كتابه « مشكلة الحرية » فاننا نستطيع أن

نقرر أننا لسنا مضطرين إلى أن نسلم بخضوع الكائنات الحية العليا لجبرية صارمة أو لحتمية مطلقة .

وبطبيعة الحال فان هذه النتائج التي تفصح عنها كشوف الفيزياء الحديثة قد أحدثت انقلاباً خطيراً على صعيد العلوم الطبيعية ، مما انعكس أثره فيا بعد على الفلسفة التي وجدت من يعتمد هذه الكشوف أساساً للبرهان على اللاحتمية ، ليس على الصعيد الفيزيائي فحسب وإنما على الصعيد الانساني أيضاً ، على نحو مافعل الحتميون حين اعتمدوا كشوف الفيزياء التقليدية أساساً للبرهان على الحتمية .

٣ ـ لا وجود لمسؤولية أخلاقية بغير وجود الحرية . وعلى الرغم مما في هذه العلاقة بين المسؤولية الاخلاقية وبين الحرية من وضوح ناصع ، فان الصديق بلال يبذل جهداً للبرهان على ان هذه العلاقة ليست ضرورية ، بل هو يمضي إلى أبعد من ذلك حين يحاول إيهامنا بأن غياب الحرية هو الذي يصنع المسؤولية الأخلاقية .

وفي الحقيقة فانه بغير هذه المسؤولية الأخلاقية لا يمكن ان يعد الشخص مسؤولاً عن فعل من أفعاله . بمعنى ان المسؤولية الأخلاقية تصبح بغير معنى إذا لم نتفق منذ البداية على ان لدى الانسان مقدرة الاختيار بين مجموعة من القرارات ، وان القرار الأخير هو الذي يحدد المسؤولية الأخلاقية المترتبة عليه . ولو كان الأمر على غير ذلك لما جاز لنا أن نحمل المجرم مسؤولية جريمته . ذلك انه إذا كان مقدراً على المجرم أن يكون مجرماً ، فمعنى ذلك هو سقوط المسؤولية الاخلاقية سقوطاً كاملا . وكما يكتب الدكتور بديع الكسم في محاضرته « الحرية أساساً » التي نشرت في عدد سابق من « المعرفة » . فان « المسؤولية تحمل الحرية في طياتها كما يحمل الزئبق عبيره . لكننا نحس بأنه لا معنى للمسؤولية بدون حرية . فالعاصفة ليست مسؤولة لانها ليست حرة ، ولكن الانسان مسؤول لأنه حر » .

٤ ـ ان الايمان بوجود حتمية فيزيائية تلقي بظلها على الانسان ، وتقتلعه من مملكته المستقلة ، وتجعله مجرد تابع لنظام أكبر منه يجعل من حريته مجرد توهم ، هو شكل من أشكال الايمان بالقدرية . ذلك ان القدري ، شأنه في ذلك شأن الحتمي ، يؤمن بوجود قوى تحكمنا وتحكم العالم من حولنا دون أن يكون لنا سلطان عليها . ولست أعرف على وجه الدقة ما هي الحدود الفاصلة بين الحتمية والقدرية ، وان كنت أعرف انهما تشتركان في ان كلتاهما تجعـــل الانسان مجرد تابع لقوى منظورة أو غير منظورة تتحكم في مصيره وفي دقائق حياته .

٥ ـ ان مشكلة الحتمية واللاحتمية سوف تظل قائمة ما لم يطرأ قدر كبير من التطور على فكرة الانسان عن الطبيعة والطبيعة الانسانية . بمعنى ان الطبيعة الانسانية ظلت ، لفترة طويلة من الزمن ، تقف خارج مملكة الطبيعة . وحين جرت محاولات لالحاقها بمملكة الطبيعة ، حدث ذلك الصدام الذي ما نزال نشهد بعضاً منه . ويبدو ان السؤال الاساسي هو : هل يمكن الحاق الانسان بمملكة الطبيعة ؟ والى أي حـد يمكن أن تنجح أو تحقق هذه المحاولة ؟.

ان الاجابة عن هذا السؤال يمكن أن تسهم في حل جزء كبير من الاشكال القائم . ومع ذلك فان هـــذه الاجابة لا تحل الخلاف القائم بين أنصار الحتمية وخصومها . ذلك انه حتى فيما لو مضينا بعيداً مع القائلين بوجود امكانيـة لالحاق الانسان بمملكة الطبيعـة ، فان ذلك لا يؤدي بالتأكيد الى البرهان على وجود الحتمية ، خصوصاً وان كشوف الفيزياء الحديثة ألقت بظلال من الشك على وجود حتمية في نطـاق العلم الطبيعي ذاته ، فكيف يكون الامر على صعيد الانسان ؟.

يوسف حبيب

دور شبلي شميل في الفكر العربي الحديث

المقدمة :

يهدف هذا البحث الى القاء نظرة فاحصة على الدور الذي لعبته فلسفة شبلي شميل في الفكر العربي الحديث . ويمكن تقدير هذا الدور تقديراً أولياً اذا أخذت الوقائع التالية بعين الاعتبار .

١ — ان شميل « نقل .. مذهب التطور عن العلامة بخنر الالماني ، وهو فيلسوف مادي ، عريق في المادية ... نقله في زمان لم تستعد فيه العقول لاستيعاب تلك الفكرة المرتكزة على ما كشف حتى اواسط القرن

الماضي من حقائق العلوم الطبيعية »(١) كما يقول اسماعيل مظهر .

٢ ـ ان شبلي شميل هو « اول ممثل للاتجاه المادي في العالم العربي الحديث »(٢) كما يقول جميل صليبا . واتجاهه المادي يقوم على مذهب داروين كما شرحه بخنر .

٣ ـ احدث مذهب داروين أثراً عظيماً في الفكر الاوربي . ويمكن الرجوع الى كتاب شميل « فلسفة النشوء والارتقاء للاطلاع على جزء من ذلك الاثر على الصعيد العلمي والفلسفي . لذلك لا يستغرب ان يلعب ذلك المذهب دوراً في الفكر العربي الحديث وخاصة بعد ربطه بالمادة . يقول اسماعيل مظهر « وكان للمذهب الدارويني منقولاً عن العلامة بخنر في عقول المدرسة المصرية القديمة من الاثر ما حمل الناظرين فيه على الوقوف ازاءه وقفة التريب والشك »(٣) .

ولذلك سيدور البحث حول أهم المسائل التي دار حولها النقاش في الفكر العربي الحديث ، وهي تتعلق بربط مذهب داروين بالمادة ، وبالقول بتفسير طبيعي بيولوجي للعمران البشري . وسيقتصر البحث على فحص فكر شميل من خلال آراء مفكرين هما : جمال الدين الأفغاني ، واسماعيل مظهر لما لأولها « من الاثر في العمل على نقض المذهب »(٤) ولما للثاني من الدور في الرد على شميل والافغاني معاً .

٢ ـ حياة شميل ومؤلفاته : ١٨٥٣ ـ ١٩١٧ .

جاء في قاموس الاعلام ان « شبلي بن ابراهيم شميل طبيب بحاث ، كان ينحو منحى الفلاسفة في عيشه وآرائه . ولد في قرية كفر شيما بلبنان ، وتعلم في الجامعة الاميركية ببيروت ، وقضى سنة في اوربا . وسكن مصر فأقام في الاسكندرية ثم في طنطا ، ثم في القاهرة ، وتوفي فيها فجأة . اصدر مجلة (الشفاء) سنة ١٨٨٦ ـ ٩١ وألف (فلسفة النشوء والارتقاء) و (مجموعة مقالات مما نشره في الجرائد والمجلات) . وله رسالة (المعاطس) على نسق رسالة الغفران للمعري . ورسالة شكوى وآمال . ورسالة « آراء

---

(١) ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء وأثره في الانقلاب الفكري الحديث تأليف البحاثة اسماعيل مظهر سنة ١٩٢٤ / ص ٨ / .

(٢) الفكر الفلسفي في مائة عام ، الانتاج الفلسفي ـ الفلسفة عموماً وفلسفة العلوم ، بقلم الدكتور جميل صليبا / ص ٤٠١ / .

(٣) ملقى السبيل / ص ٨ / .

(٤) ملقى السبيل / ص ٥ / .

الدكتور شميل » . و «سوريا ومستقبلها » وشرح بخنر على مذهب داروين » وهو القسم الاول من كتاب فلسفة النشوء والارتقاء اما القسم الثاني منه فهو رسالة الحقيقة » . وكتب شروحاً وتعليقات على كتب طبية قديمةتولى نشرها كفصول ابقراط وارجوزة ابن سينا . وكان من اكبر مزاياه التنديد بالظالمين والمجاهرة بما يعتقده حقاً ولو خالف فيه جميع الناس قلمه ولسانه في ذلك سيان . وله نظم،وليس بشاعر.وكان يجيد الفرنسية ويعد من الكتاب بها » .

٣ ــ من أين ينطلق شميل في فلسفته :

ينطلق شميل في فلسفته من شرح بخنر على مذهب داروين . في ذلك الشرح يعرض بخنر مذهب داروين ، ثم يوسعه في بعض النقاط من أجل ربطه بالفلسفة المادية . ويقدم بخنر شرحه من خلال أربعة عوامل وهي :

١ ــ تنازع البقــاء . ٢ ــ تكوين التباينات او تغير الافراد . ٣ ــ الوراثة . ٤ ــ الانتخاب الطبيعي (١) .

ومن المعروف ان داروين يجعل الانتخاب الطبيعي أهم أسباب التطور ، مع الاعتراف بالأسباب الاخرى أما بخنر فيذهب الى الحالة الوسطى ويقسم « العمل بــين الانتخاب الطبيعي من جهة والاحوال الخارجية من جهة اخرى »(٢) . ويسلم أيضاً بعامل ثالث لم يذكره داروين « ويراد بــه ان بيوض الاجسام الحية او جراثيمهاملقحة كانت أوغير ملقحة تستطيع في بعض الاحيان ان تتحول الى صور أخرى قد تكون أعلى منها في الاصل ليس بالطريقة التي يعول عليــا داروين (أي بالتحول التدريجي) بــل بالتحول فجأة » (٣) .

على ان التوسع بمذهب داروين لايقف عند هذا الحد فبخنر يذهب بمذهب داروين بمحاولة لتفسير أصل الحياة . فيقول بالتولد الذاتي . ولكنه يترك حل المسألة الى عــلم الكيمياء « لأن الاكتشافات الكيمياوية ولا سيا في العشرين سنة الاخيرة قــد صيرت الممتنع ممكناً » (٤) أو للفلسفة حيث يقول « على أنه اذا كانت الامتحانات لاتؤيدحدوث التولد الذاتي اليوم الا ان ذلك لايجعل حــل

(١) فلسفة النشوء والارتقاء ، للدكتور شبلي شميل ، الجزء الأول ، سنة ١٩١٠ ،القسم الأول وعنوانه شرح بخنر على مذهب داروين / ص ٨٢ / .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٤) المرجع السابق ص ١١١ .

المسألة ممتنعاً فلسفياً » (١) . ومن هنا يصبح الانتقال الى الفكر العربي الحديث ممكناً .

٤ – الفلسفة المادية ومشكلة أصل الحياة :

يقول بخنر « ان داروين لم يحصر الاحياء في أصل واحد فربما كان ذلك لعدم جسارته لا لسبب آخر . فجعل الحيوان من أربعة او خمسة أصول أولى مخلوقة منذ زمان طويل كل أصل زوج . وكذلك النبات . غير أنه لم يصمت عن ذلك كلياً . بل قال في آخر كتابه (ان المشابهة وأسباب غيرها تدعو الى ضرورة الى الاعتقاد بان الحياة أصلها واحد وان لافاصل جوهري بين العالمين عالم النبات وعالم الحيوان غير أنه يحترس مستدركاً على نفسه حيث يقول أيضاً :

اني ارى فيما يظهر لي ان الاحياء التي عاشت على هذه الارض جميعها من صورة واحدة اولية نفخ الخالق فيها نسمة حياة على ان اساس هذه النتيجة المشابهة فالتسليم بها وعدمه غير جوهريين[٢]

يرى بخنر ان قول داروين ذلك غير قياسي ويجعل المذهب ناقصاً وربما نقصه أيضاً (٣) لأن قاعدة مذهب داروين على حد قول بخنر هي « الصدفة العمياء » (٤) . ويعالج بخنر ذلك على النحو التالي :

«اذا سلمنا بافعال خلق خصوصية لثانية او عشر ازواج اصلية فما المانع من اطلاق هذا الخالق على جميع الاحياء وما الداعي بعد ذلك لتفسير ظهورها على سبيل طبيعي لأنه سيان عند الفيلسوف حصول الفعل الخالق مرة أو مرات... فليس لنا الا أن نتوسع بمذهب التسلسل الذي وضعه داروين حتى آخره ونجعل العالم العضوي يشتق من صورة واحدة اصلية بسيطة جدا من الكرية أو البيضة»[٥]. وبعد ان يرفض الخلق يقول « فلم يبق اذا الا مسألة التولد الذاتي التي هي اليوم المحور

(١) المرجع السابق ص ١١٦ .
(٢) المرجع السابق ص ١٠٣ .
(٣) المرجع السابق ص ١٠٣ .
(٤) المرجع السابق ص ١١٣ .
(٥) المرجع السابق ص ١٠٣ .

الذي يدور عليه علم الأحياء »[1] فهل يلزم ذلك عن مذهب داروين ؟ يقول اسماعيل مظهر : « ان القول بالتولد الذاتي لاينافي القول بنشوء بضعة صور اصلية . لأن التولد الذاتي ان صح وقوعه في بقعة ما من بقاع الأرض فلماذا لا يصح ان يقع في اخرى ما دامت المؤثرات الطبيعية في كل البقاع التي يحدث فيها تكون مماثلة[2]. وهذا يقود الى أن موقف داروين لم ينجم عن عدم جسارة بل هو ناتج عن عدم كفاية الادلة المرجحة سواء لعدة صور أو لصورة واحدة . ولكن قول مظهر السابق لا ينفي التولد الذاتي بل يخضعه للبرهان . فما الاثبات الذي يقدمه انصار التولد الذاتي ؟

يقول شبلي شميل ان « استعمال لفظ الخلق عوضاً عن التولد الذاتي لا يزيل الصعوبة لان الارادة الخالقة لاتظهر لنا الا بافعالها والعلم لايستطيع ان يصعد الى تحقق ما وراء هذه الافعال[3] فهل يعني شميل ان التولد الذاتي مثبت علمياً ؟ يقول شميل « هل يستطاع توليد البروتوبلاسما ومن ثم خلق الحياة كيمياويا ... فغاية ما يعلم ان المركبات الكيمياوية التي تنحل اليها بعد فقدها الحياة لاتستطيع ان تركبها من نفسها »[4]. اذن لا يستطيع العلم الآن اعادة تركيب المادة الحية بعد تفكيك البروتوبلاسما . فكيف يمكن اثبات التولد الذاتي ؟ يقول شميل « اذا اردنا الكلام على نشوء الحياة وجب علينا والحالة هذه ان نبحث عنه لا في الحي نفسه مهما كان بسيطاً بل في هذه المادة الحية التي يتألف منها الحي لنعلم اذا كان مثل هذه المادة ممكنا لها ان تكون من الجماد رأسا وان تكون ذات حياة ايضا »[5]. والحل يقوم عند شميل على فرضية « ان

(١) المرجع السابق ص ١٠٤ .

(٢) ملقى السبيل ص ٥٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٥ .

(٤) رسالة الحقيقة ص ٣٠١ .

(٥) المرجع السابق ص ٣٠٠ .

حركات متشابهة أو مختلطة تتناول بعض الزوابع المتكونة في الهيولى نفسها وان هذه الزوابع لا تبقى على حالها لان اشراك الحركات حينئذ لايحدث عنه نفس الحركات أي أنه لا يتولد عن تركيب الزوابع او الجواهر نفس هذه الجواهر بل ينشأ عنها كائنات اخرى مختلفة عن الدقائق التي تؤلفها ذات حجوم معينة على الدوام بدون ان تفقد جوهرها حافظة فيها نوعا من الذكرى للتأثيرات السابقة الطارئة عليها ، اي انه ينشأ عنها انواع البروتوبلاسما (١)

وهنا يتجه النقد نحو نقطتين ، تتعلق الاولى بان هذا القول فرض والثانية عن الحياة في تلك الزوابع . أما النقطة الثانية فيقول فيها الأفغاني : « وهذا ظن عجيب لاينطبق على أصلهم من أن الأرض عند الانفصال كانت جذوة نار ملتهبة، وكيف لم تحترق تلك الجراثيم ولم تمح صورها في تلك النيران ؟ »(٢) وقد يكون ذلك صحيحاً اذا كانت الجراثيم الحية موجودة في الأصل في تلك الزوابع الملتهبة، يقول شميل في ذلك، « فقد مر على الكون زمان كان فيه النظام الشمسي مشتعلا ، ولم تكن العوالم سوى دخان ومع ذلك فلا يستبعد ان شرارة الحياة كانت موجودة في هذا الاتون الملتهب لأنه مالبث ان بردحتى ظهرت فيه الحياة»(٣) ولكن شميل يوضح ذلك في كتابه رسالة الحقيقة الصادر فيما بعد حيث يقول « ان الجاذبية هي عبارة عن حس المادة في ابسط معانيه »(٤) . والجاذبية لاتلتهمها النيران .

فاذا صح ان الجاذبية لاتلتهمها النيران. فهل تصح فرضيات شميل المتعددة منطقيا؟ وهل اثبت العلم ان الجاذبية هي حس المادة في ابسط معانيه ؟ وهل يرغب الماديون في معرفة ماهية الحياة ام معرفة النشوء فقط ؟ فهناك كما يقول مظهر « أشياء يستحيل على العلم الطبيعي أو الفكر نفسه ان يصل اليها اهمها الماهيات(٥) ويقر شميل ذلك بقوله « ليس في طاقة الطبيعي ان يعلم الحقائق والماهيات ولكن علمه قاصر على معرفة

(١) فلسفة النشوء والارتقاء — رسالة الحقيقة ص ٣٠٥ .
(٢) رسالة الرد على الدهريين للسيد جمال الدين الأفغاني ، ١٩٢٥ ، ص ٢٧ .
(٣) فلسفة النشوء والارتقاء — الجزء الثاني ص ٥٢ .
(٤) رسالة الحقيقة ص ٣١٧ .
(٥) ملتقى السبيل ص ٦١ .

الكميات والكيفيات»(١) . فهل تكفي معرفة الكميات والكيفيات لمعرفة اصل الحياة؟ اذن سيبقى السؤال مطروحاً ، حتى لو سلم بالجاذبية كأصل للحياة ، يسأل عما هي الجاذبية ، يقول مظهر «فقوتا الجذب والدفع مثلا قوتان غامضتان مبهمتان ، يعجز العقل عن ادراكها ادراكاً علمياً ومع ذلك ان فرضت عدم وجودهما تفككت مع فرضك هذا الفة العقل ونظامه . كذلك الماهيات برمتها»(٢) . وقد ذكر شميل ذلك بقوله : « لابد الطبيعي ولطالب علم الكيمياء من التسليم بالجوهر الفرد ولو صعب عليه تعيينه كما لابد لطالب علم الهندسة من التسليم بالنقطة ولو صعب عليه تعيينها »(٣) . فعلى هذا النحو هل تعود مسألة اصل الحياة الى موضوع عقلي ؟ وكيف يبرهن على ذلك ؟

ولكن قبل الحديث عن ذلك لابد من تبين قيمة العقل عند شبلي شميل فهو يقول : « اذا علمت ان جميع معارف الانسان مكتسبة حكمت معنا ان افكاره مكتسبة أيضاً وعقله مكتسب ، واذا كان العقل مكتسباً كان عرضة للانخداع لعدم تبنيه الاشياء كما هي في كل الاحوال فلا قيمة للحجة التي يستند اليها النظريون بقولهم ان ذلك مطابق للعقل أو غير مطابق له الا اذا اتفقت هذه الحجة مع سواها من البراهين الحسية »(٤) . لكن العقل عند شميل . « ليس سوى مجتمع احساساته المشتركة بعضها ببعض »(٥) . أفلا ينتج من ذلك ان انخداع العقل يعود الى الحواس ذاتها التي تشكله ، ومن الذي يحكم على اخطاء الحواس او العقل ؟ أليس العقل نفسه ؟ وبعد هذا ماذا يبقى للحواس ؟ يقول مظهر : « ان الحواس لاتؤدي الينا من الادراك الا ما يقوم مقام الفرض الصرف في كثير من الحالات »(٦) . وعلى ذلك فالحواس لن تقدم الا فرضاً قد يكون خاطئاً وقد يكون صحيحاً ، وعلى التجربة ان تتحقق منه ، فهل قدم شميل تجربة في بحث نشوء المادة من الحياة ؟ لا . فلن يبقى له الا العقل لكي يثبت ذلك مهما كان وضعه من احتمال الانخداع ، يقول شميل « ان العقل يتصرف في المعاني بحسب قوته سواء كانت المبادىء المؤسس

---

(١) رسالة الحقيقة ص ٢٨٨ .
(٢) ملقى السبيل ص ٧٥ .
(٣) رسالة الحقيقة ص ٢٧١ .
(٤) رسالة الحقيقة ص ٢٣٧ .
(٥) رسالة الحقيقة ص ٣١٧ .
(٦) ملقى السبيل ص ٦٣ .

عليها صحيحة ام فاسدة»(١) .

وعلى ذلك يرى شميل أن « نسبة الحياة الى القوى الطبيعية كنسبة الانسان الى الحيوان بمعنى أن أصل الحياة كأصل سائر قوى الطبيعة وهذا لا يلزم منه أن تكون ناشئة رأساً من القوى المذكورة في حالها المعروف اليوم وان يكن ذلك غير ممتنع عقلا » (٢) . وعليه مادام يتطور الانسان من الحيوان تتطور الحياة من المادة ، وذلك بالتشبيه أي أنه يوسع مذهب التطور توسيعاً عقلياً حتى يشمل مسألة نشوء الحياة التي لم يرد داروين أن يبت فيها . ولكن هل تصح النسبة التي يقول بها شميل كما جاء قبل قليل ؟ هذه النسبة تقوم على تشبيه نشوء الحياة من المادة بارتقاء الانسان من الحيوان. والتشبيه اذا كان كاملا فلن يحصل الارتقاء ، ولذا لابد من اختلاف فيه ، يقول شميل « وأما كون المتماثلات لا يحصل من تركيبها سوى متماثلات فهذا لا يصح الا اذا تماثل الكم والكيف والذات والصفات والا فتعطي متخالفات » (٣) . فهل يكفي هذا التشبيه أو التمثيل الناقص كبرهان لاثبات أصل الحياة ، يقول مظهر « عن الماديين » أنهم كلما مضوا في سبيل العلم حوطهم علمهم بمناطق من الحيرة وساقهم الى منازل من الغموض لم يجدوا من سبيل الى ازاحتها الا بالركون الى العقل يستخلصون منه مشابهات يعللون بها مالم يستطع علمهم الوصول الى اقامة الدليل العلمي عليه » (٤) . لأن التشبيه لا يؤدي الى احكام يقينية بالضرورة الا اذا كان تاماً وهذا لا يفيد شميل بالقول بنشوء الحياة من المادة فلا بد من الاختبار العلمي وهذا لم يقدمه العلم حتى الآن . اذن لم يبق لشميل الا القول بالمادة الحية ، وتطورها يؤدي الى الأنواع المختلفة يقول شميل ان « الحس أعم صفات الحياة فكل ما يعيش يحس ويمكن تخديره حيواناً كان أم نباتاً » (٥) ، ثم يقول ان المادة ذات حسس أيضاً بدليل أنها تتأثر في حال كونها مؤثرة وتنفعل حال كونها فاعلة .. والجاذبية هي عبارة عن حس المادة في أبسط معانيه(٦). هكذا اذن ينطلق شميل من المادة الحية وليس من مادة بلا حياة ، والسؤال عن نشوء حياة من جماد لم يعد مطروحاً ، يقول شميل «يراد

---

(١) رسالة الحقيقة ص ٢٣٧ .
(٢) رسالة الحقيقة ص ٢٩٤ .
(٣) ملقى السبيل ص ٧٤ .
(٤) رسالة الحقيقة ص ٢٧٨ .
(٥) رسالة الحقيقة ص ٣١٦ .
(٦) رسالة الحقيقة ص ٣١٧ .

بالنشوء الذاتي نشوء الحياة من المـــادة بقوة فيها » «١» . وبتعبير آخر نشوء الكائن الحي من المادة الحية وهذا يحتاج بدوره الى براهين علمية تؤيده لكنها لم تقم بعد ، يقول مظهر : « ان الماديين لم يقيموا البرهان العلمي على تولد الحي من غير الحي «٢» . فالمادة الحية اذن مسلمة ينطلق منها شميل وليست نتيجـة لازمة عن مذهب التطور الداروني .

وقد يذهب البعض الى سؤال شميل : كيف نشأت المادة الحية هذه ؟ واذا قال بالـــقديم فكيف نشأ ؟ وهكذا . ولكي يوقف شميل هذه السلسلة من الأسئلة عند حد معين يقول، وخالف الماديون سواهم في أصل المادة فقالوا إنها أزلية لأنهم رأوا أن المادة كالقوة لايستطاع خلقها ولاملاشاتها فهي واحدة لاتنقص ولاتزيد ولاتتغير الا في الصورة »(٣). فكيف عرف شميل هذا ؟ عرفه باقامة صلة بين المعنى والمادة فهو يقول « ان المعنى ليس الا تأثيراً مادياً ، هو صورة المادة المرتسمة في الدماغ كما ترتسم الصورة في المرآة » (٤) ، ويقول شميل اذا عرفت الحقيقة فالمادة لاتنفصل عن معناها (٥) فصورة الشيء في المرآة لاتنفصـــل عنه ، وهذا صحيح ، ولكن تلك الصورة ليست الشيء ذاته . وعلى هذا اذا كانت المادة لاتنفصل عن معناها ، فالمعنى ليس المادة بالذات بل هو مايظهر من تلك المادة الى العقل ، الذي لايقبل العقليون أن يكون مجرد عاكس كالمرآة وعلى أي حال ، فان القول بأزلية المـــادة ليس الا مصادرة عند شميل لكي لايقول بالخلق .

تواجه شميل الآن مسألتان همـــا : ماهية الحياة ، وأزلية المادة .

والحياة عند شميل هي « ملازمـــة القوة للمادة والمادة للقوة »(٦) . وعند ذلك يخرج شميل عن موقف العالم الذي كان يريده لأنـه يقول « انه ليس بطاقـــة الطبيعي ان يعلم الحقائق والماهيات »(٧). ولكن القول بالحياة على النحو السابق ضروري عند شميل لاثبات نشوء الأحياء الاولى من مادة حية ازلية بالتشبيه

(١) رسالة الحقيقة ص ٣١٧ .

(٢) ملقى السبيل ص ٨٥ .

(٣) رسالة الحقيقة ص ٢٨٤ .

(٤) رسالة الحقيقة ص ٢٣٢ .

(٥) رسالة الحقيقة ص ٢٣٢ .

(٦) رسالة الحقيقة ص ٣٤٤ .

(٧) رسالة الحقيقة ص ٢٨٨ .

بنشوء الانسان من الحيوان ، رغـــم شعوره بضرورة حصول براهين حسية لاثبات هذا التشبيه . اما مظهر فيرى « ان مذهب النشوء » بعيد عن البحث في الماهيات »(١) . لأن «الحياة حقيقة لانعرف منها الا ظاهراتها »(٢). على هذا النحو يواجه مظهر شميل مواجهة لا تعود لا الى الخلق ولا الى التولد الذاتي ؛ « يقول : « وكذلك الحـــال في الحياة اذا نظرت فيها من ناحية الماهية . فاني لا استطيع أن اعرف مهما قلبت صفحات الماديين ماهو الفرق بين القول بخلقها ، وبين القول بانها تولدت ذاتياً . مادمنا لم نعرف ماهيتهـا ولا حقيقتهـا ، لأن كلا الأمرين يلزم العقل بان يفرض ان في الطبيعة قوة مبهمـــة غامضة . فالقائلون بالخلق يقولون بان قوة مدبرة بثتها في المادة، والقائلون بالتولد الذاتي.. يضيفون الى القوى الغامضة المبهمة التي يفرضونهـا في الطبيعة « قوة » من قواتهم الخفية يسمونهـا الحياة »(٣) . وحيث يذهب مظهر الى ايجاد نوع من التشابه بين الماديين والالهيين بانطلاقهم من قوى مبهمة غامضة، كان شميل يدرك الفرق بينها ، والتشابه في تفسير الظواهر فقـــط . وهذا يقود الى مشكلة الخلق وأزلية المادة .

يقول شميل « فالفرق بين اصحاب الخلق والقدم في المادة انها مخلوقة من لا شيء عنـد الاولين وقديمة عند الآخرين ، ولا فرق بعد ذلك فالمادة عند الفريقين لاتتلاشى بل تنتقل من حال الى حال بالتفاعل والتركيب، والقوة عندما لاتتلاشى انمـــا تتحول في الاجســام تحول المادة فيها» (٤) . ولم يبق على المذهبيين بعد ذلك إلا تبادل الحجج في نقض كل منها للآخر . فشميل ينقد مذهب الخلق بقوله : « لو فرضنا وجود قوة مبدعة ، لما أمكن وجودها باعتبار الزمان لاقبل الخلق ولابعده. لاقبل الخلق لأن ذلك يقتضي بقاءها هامـــدة مدة من الزمان بلا عمل وفي حالة السكوت أمام المادة الساكنة أيضاً وهذا غير سديد ، ولا بعده لأن هذا ظاهر البطلان . فاذا كانت القوة المبدعة لاتقدر أن توجد قبل الأشياء ولا بعدها واذا كانت المـــادة لاتدثر واذا لم تكن مادة بلا قوة ولا قوة بلا مادة فلا شك أن العالم قديم فما لاينفصل لم يكن » (٥) . وثمة مفكر — مغفل الاسم — تنبه الى الضعف في نقد شميل السابق ، فكتب مقالاً يرد بـه على شميل ، ويقول شميل عنه « ان حضرة صاحبه « صاحب المقال ١١٠٥ في المحروسة»

---

(١) ملقى السبيل ص ٦٧ .

(٢) ملقى السبيل ص ٦٢ .

(٣) ملقى السبيل ص ٦٢ .

(٤) رسالة الحقيقة ص ٢٨٤ .

(٥) رسالة الحقيقة ٢٣١

يوافقنا في أمور ويخالفنا في أمور. يوافقنا في كون المادة أزلية ابدية وان الموجودات متكونة منها ومتحولة عنها بقوة فيها ملازمة غير مفارقة ، ويخالفنا في القوة اللابسة المادة والمتحولة فيها تحولها في الاجسام كافة من جماد ونبات وحيوان وهي على زعمه عاقلة مدركة تعمل على نظام مقصود »(١) . ان الفكرة المهمة عند صاحب المقال هي سد الثغرة التي وضعها شميل لامكان وجود القوة البدعة اما بعد الاشياء او قبلها . فهو يرد بذلك نقد شميل السابق فتنحصر المشكلة في يطاق آخر ، في كون القوة عاقلة مدركة . ولكن شميل يحاول أن يظهر تناقض صاحب المقال ، بقوله « انه جعل القوة والمادة أزليتين ثم جعل القوة متسلطة على المادة.. ولايخفى مافي هذا القول من معنى الفاعلية التي فيها معنى السبق ايضا فتكون القوة في قوله سابقة المادة ولو بالمعنى فقط ، واذا صح ذلك فكيف يصح أن تكون المادة ازلية كالقوة »(٢) . ان الاختلاف بين شميل وهذا المفكر ، يعود الى اختلافهما في تعريف القوة ، فالقوة عند شميل « ليست سوى تغيرات مادية »(٣) أما عند الثاني فالقوة فاعلة . يقول شميل ان « الماديين والطبيعيين اجمع لايثبتون الطبيعة قصداً ولا غاية وانما يثبتون لها اعمالاً لازمة ضرورية لنواميس معلومة »(٤) . غير ان داروين لم يشر الى اثبات هذه القوانين دوماً يقول « لقد تكلمنا في الفصول الأولى من هذا الكتاب « كتاب اصل الانواع » في التغايرات واثبتنا انها كثيرة متعددة الصور متنوعة الاشكال في الكائنات العضوية ... وغالب ما نسبنا حدوثها للمصادفة العمياء على ان كلمة (مصادفة) هنا اصطلاح خطأ محض ، يدل على اعترافنا بالجهل وقصورنا عن معرفة السبب في حدوث كل تغاير معين يطرأ على الأحياء »(٥) . فكيف عولجت مشكلة المصادفة هذه ؟

يفيد نص داروين السابق الذي يورده اسماعيل مظهر في الرد على الافغاني لاعتراضه على القول بالمصادفة حيث يقول « فذهب فريق منهم (أي من الماديين) الى ان وجود الكائنات العلوية والسفلية ونشأة المواليد على ما نرى انما هو من الاتفاق واحكام الصدفة وعلى ذلك اتفاق بنائها واحكام نظامها لامنشأ له إلا الصدفة ، كأنما أدتهم سخافة الفهم الى تجويز الترجيح بلا مرجح

(١) رسالة الحقيقة ص ٢٤١
(٢) رسالة الحقيقة ٢٤٢
(٣) رسالة الحقيقة ٢٣٤
(٤) رسالة الحقيقة ٢٦٠
(٥) ملقى السبيل ١٦٥

وقد أحالته بديهية العقل »(١) . ويمكن تلخيص الموقف على الشكل التالي : يقول الماديون أن هناك سنناً للتطور ولايعرفونها غالباً فيقولون بالمصادفة ، والمصادفة في رأي الأفغاني ليست دليلا على تلك السنن ، وفي رأي مظهر يدل « قولهم بالمصادفة . . في الواقع على الشعور بقصور العقل عن تعليل الظاهر تعليلا صحيحاً لعدم الوقوف على كنه السنن التي تحدث ظاهرات الطبيعة»(٢) اذن كيف يجوز لشميل من افتراض سنن غير معروفة ان ينقد القائل بالقوة الفاعلة فقد تكون هي الأخرى فرضية او مصادرة مثل مصادرة شميل المادية ؟ يرد بها مظهر على شميل كما يلي « ان أكبر الأدلة التي يقيمها الماديون على قدم العالم قولهم (لايمكن خلق شيء من لاشيء، ولازوال شيء الى لاشيء) . وانت اينما وليت وجهك في نواحي الطبيعة، وعرفت شيئاً من أسرارها ، وقعت على قصد ونظام ونسبة تضبت تركيب المادة وتكون ظاهراتها . فسلهم كيف يخرج القصد والنظام من الفساد المطلق والعماء الصرف ، وسلهم كيف تأتي النسبة من الاختلاف واللانسبة متخذاً من نفس براهينهم وطريقة تفكيرهم ، واثبات مدعياتهم سبيلا الى مناقشتهم »(٣) .

وشميل يدرك ذلك ولكنه يرد القول بالخلق الى الايمان ، يقول « حيث يبتدأ الايمان ينتهي العلم ، والانسان حر في ايمانه الا أن الايمان ليس له حق بأن يعترض العلم في سيره ، والعلم لايستطيع شيئاً ضده»(٤) . أفلا تخضع المصادرة التي ينطلق منها شميل لنقد شميل نفسه المتعلق بالايمان ، لأن العلم يدرس الظاهرة فقط كما يرى شميل؟ ألايقف شميل في الموقف الذي يقف به اللاهوتيون أنفسهم ، في اجراء محاولة فلسفية لتفسير الوجود ؟ ألا يستطيع قائل بالألوهية ان يضم مذهب داروين الى مسلمة ينطلق منها هو الآخر ؟ يقول مظهر « لايغيب عنا ان البحث في أصل الحياة لايؤيد من رأي الماديين، بل على الضد من ذلك يرجح رأي القائلين بخلق الحياة أصلا وتطورها استتباعاً»(٥). ولكن دقة هذا القول هي في الترجيح الذي فيه ، وهذا ما كان ينقص شميل كثيراً. فرغم اعتقاده داروين على المصادفة ورغم قلة المشاهدات التي تثبت أصل الحياة كأن شميل يجزم ويحاول مااستطاع دوماً ان يثبت

(١) الرد على الدهريين ٢٥
(٢) ملقى السبيل ١٦٥
(٣) ملقى السبيل ٤٦
(٤) رسالة الحقيقة ٢٨٤
(٥) ملقى السبيل ٥٥

تأكيده في فلسفته المادية البيولوجية . بل راح ايضاً في سلم الارتقاء نحو تفسير الاجتماع البشري بأ كمله وفقاً لمذهب النشوء . ولكن قبل الانتقال الى ذلك من الأفضل البحث عن الانسان في مذهب داروين .

٥ ـ هل أصل الانسان قرد ؟

يقول شبلي شميل « ان من الأوهام التي تقاضت الانسان حياته زمانا طويلا وكانت أعظم اسباب شقائه ودواعي عنائه اثنين عظيمين وهما : اولاً اعتقاده القديم في الأرض انها مركز تدور حول الأفلاك . وثانياً اعتقاده في نفسه انه من أصل سماوي فاهبطه الخالق من فسيح جناته (ولماذا) وأسكنه ضيق أرضه . . فتقوض هذين الركنين يلزم منه انتقاض البنيان العظيم الذي شاده الانسان عليهما »(١) . فلماذا تقوض الوهم الثاني ؟ يقول بخنر « لاشك أن العوامل العاملة في الانسان هي نفس العوامل الطبيعية لأن كل ناموس يطلق على سائر الطبيعة الحية ينبغي أن يطلق على الانسان ايضاً »(٢)، وبذلك لابد ان يكون الانسان قد تطور من حيوان ما احط منه في سلم التطور ، فهل أصل الانسان قرد ؟

يقول شميل « ان الانسان ليس اتصال كال القرد بل من أصله » (٣) . غير أن الأفغاني يذهب بذلك وجهة أخرى معترضاً بها على داروين ، يقول «وعلى زعم داروين.. يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمر القرون وكر الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثاً »(٤) ويذهب مظهر الى ان «أوجه الغرابة في قول السيد الأفغاني لتحملنا على الاعتقاد بأنه لم يقف على مؤلف واحد من مؤلفات داروين »(٥) . ويذهب مظهر الى أن الأفغاني « انما كان يناجي المشاعر في رسالته « أي رسالة الرد على الدهريين» ،ولايخاطب العقل »(٦) . ويذهب مظهر الى أن نقد الأفغاني المشار اليه « لم يكن الا خرافة نقلها بعض من لايوثق بعلمه وتلقفها السيد الأفغاني من أفواه الناس ومن الصحف الاخبارية فراح يقوض بها من مذهب داروين بما شاء له وهمه »(٧) .

---

(١) رسالة الحقيقة ٢٣٨
(٢) شرح بخنر على مذهب داروين ١٣٤
(٣) رسالة الحقيقة ٢٩٤
(٤) الرد على الدهريين ٢٨
(٥) ملقى السبيل ١٩٧
(٦) ملقى السبيل ١١٧
(٧) ملقى السبيل ص ١٢٩ .

أما مظهر فيصل الى معنى قريب من المعنى الذي قاله شميل، ولكن من الناحية الظاهرية العرضية فقط يقول « اما الشيء الظاهري العرضي فتكوين الانسان وتسلسله من صورة أحط من صورته وخضوعه لسنن النشوء والتحول مثل بقية الحيوانات»(١) وهو بذلك يخالف شميل الذي ينطلق من منطلق بخنر الذي يقول « على انه يوجد كثير من الفلاسفة واللاهوتيين لايسلم بأن الانسان حيوان الا في الجسماني فقط اما في الروحاني فهو غير خاضع لنواميس الحياة الحيوانية . ونجيب على ذلك بأن المقابلة بين عقل الانسان وعقل الحيوان القريب منه تؤدي الى نفس النتيجة التي يؤدي اليها تشريح المقابلة . . فالانسان لايتميز عن الحيوان الا بكون الصفات المشتركة بينهما ابلغ فيه وأظهر وبيقاءالانسب أرقى» (٢) اما مظهر فيرى في الانسان « كما في كل كائن في العالم شيئين: احدهماغامض مبهم لايتناوله عقل الانسان الا بنظرات تأملية فلسفية ، والآخر ظاهري عرضي يتناوله العقل بالعلم اليقيني . اما الشيء الغامض المبهم فهو ذلك السر المبدع فيه ، سر الحياة ، باعتبار ماهيتها ، يتلوه سراً آخر لم يخلص الانسان مفكر من الاغراق في التأمل فيه، سروجود الانسان أصلا في هذه الحياة ، وعلى هذه الصورة وعلى هذا التكوين »(٣) . هذا التعارض بين الماديين واسماعيل مظهر ، يشتد بأخذ شميل بتفسير الاجتماع البشري وفقاً لمبادىء التطور .

٦ ـ الاجتماع البشري والعمران :

من أهم ما يميز الانسان عن الحيوانات صفته الاجتماعية ، فهل يمكن تفسيرها بردها الى صفات حيوانية ادنى منها ؟ يقول شميل « ان الغاية من الاجتماع البشري ويسمى العمران أيضاً التعاون على المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب اسبابه . وذهبت طائفة من العلماء الى ان الاجتماع نتيجة الفكر والروية وقصرته على الانسان. وقال قوم بلهو طبيعي في الحيوان لمايعهد من اجتماع النحل والنمل والجراد والقرود . . وانما بلغ الغاية في الانسان لأنه أقومها تكوينا وابعدها فكراً وأقواها روية . واجمعوا على انه ضروري للبشر والا لم يكمل وجودهم ولم تتم حياتهم . . ولهذا شبه الحكماء العمران بجسم حي كسائر الاجسام الحية مركب من أعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة وهي سلامة

(١) ملقى السبيل ص ٢٩٦ .
(٢) شرح بخنر على مذهب داروين ص ١٣٩ .
(٣) ملقى السبيل ص ٢٩٦ .

بعضها وسلامة الكل »(١) . ويقول شميل : « ان الاجتماع لاتتم معرفة طبيعته وسننه إلا بمعرفة طبيعة الافراد وسننها كما ان الجسم الحي لاتتم معرفته الا بمعرفة سنن الحياة التي يتركب منها . لأن كل صفات الاجتماع في الخلق والاخلاق متصلة اليه من الافراد التي تؤلفه وكل صفات الافراد كذلك متوارثة فيهم ومنتقلة اليهم من الاجتماع فاذا استقرينا هذه السنن في تاريخ نشوئها الى اصلها الطبيعي خالية من الغرض والتشيع انتقل بنا الحديث في الاجتماع من دائرة الشريعة والسياسة الى دائرة علم الحياة ودخلنا في قسم من العلم الاجتماعي يمكن تسميته تاريخ الاجتماعات الطبيعي .. ولا يخفى مايترتب على معرفة ذلك من الفوائد للعمران لأن الفائدة انما تحصل للعمران اذا جرى الانسان فيه على سننه لا على ضدها»«٢» .

ويأخذ شميل بتشبيه العمران بالجسم الحي بقوله « فالجسم الحي مركب من اعضاء مختلفة ولكل عضو من هذه الاعضاء عمل خاص ومشترك معا ، اعني ان العضو يعمل غير ما يعمل الآخر ويعمل له في آن واحد.. وكذلك العمران فانه مركب أيضاً من أعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة . فهو من هذا القبيل كالحي تماماً »«٣» . والعمران ليس كالآلة انه « حي لأن كل عضو منه مركب من اعضاء اخرى تعمل نظيره لحفظ الكل»«٤» أما الآلة فلا تعمل من نفسها لحفظ الكل .

ويقول شميل ان هذا التعاون بين اعضاء الأجسام الحية بحيث ان الواحد يعمل لنفسه وللكل في آن واحد جر معه قضيتين فاسدتين في حقيقة الحياة احداهما تتعلق بالسبب والاخرى بالغاية .. فان كان هذا المفروض حقيقة فالعلم اليوم في غنى عنه لامكان تعليل المطلوب بأدنى بيان على وجه لايقتضي هذا الفرض فان هذا التعاون .. انما هو نتيجة تفاعل متبادل بين الاعضاء فالعضو الواحد لايهتم بغيره ولا يشتغل الا لخير نفسه وانما خيره بخير غيره .. فالتعاون بين اعضاء الأحياء ليس قصداً وانما هو نتيجة لازمة فقط »«٥» أما في العمران فـ« حياته اتم من حياتها لأنه اذا كان هناك قصد فانما هو في الاجتماع البشري لأن هذا الاجتماع يدرك حاجته ويقصد غايته الخاصة والعامة معاً

(١) فلسفة النشوء والارتقاء ، الجزء الثاني ص ٢٢ .
(٢) فلسفة النشوء والارتقاء ، الجزء الثاني ص ٣٥ .
(٣) فلسفة النشوء والارتقاء ، ج ٢ ، ٣٦ .
(٤) فلسفة النشوء والارتقاء ، ج ٢ ، ٣٧ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٣٧ .

وهـذا الفرق نسبي أيضاً كارتقاء سلسلة الاحياء بعضها من بعض» «١» .

مما سبق يصبح بالامكان العودة الى مناقشة شميل . فقد سبق ونوقشت مشكلة الانتقال بواسطة التشبيه من مجال الى آخر وتبين ما في ذلك من احكام غير يقينية بالضرورة . غير ان النقطة التي ستناقش هنا هي قوله بالقصد في الاجتماع البشري . فاذا ربط هذا القول بقول آخر لشميل وهو « ان الصفات الموجودة في الاجسام المركبة موجودة بالقوة في المادة البسيطة ووجودها فيهـا بالقوة لايستلزم وجودها بالفعل »«٢» . وينتج من قول شميل انه متى وجدت هذه الصفات في الاجسام المركبة فلا بد وانها كانت موجودة بالقوة فيها . وقد سبق واعترض مفكر مغفل الاسم على شميل بقوله « ان ذلك غير مشبع ومناقض لرأي الطبيعيين انفسهم»«٣» . إلا ان شميل يرد على ذلك المفكر بقوله « الا ان تكون قد فهمت بالقوة في قولنا بالقوة كما تتصورها انت . والا فليس في كلامنـا ما يوجب ذلك .. فالقوة والمادة في عرف الماديين شيء واحد »«٤» . ولكن في رد شميل ضعفاً ، فما دام القصد وجد بالفعل في مرحلة من مراحل التطور فلا بد انه كان صفة من صفات « المادة — القوة » نقطة انطلاق شميل . فاما ان يذهب شميـل الى القول بان القصد بقي صفة كامنة حتى ظهر في الاجتماع البشري أو ان يقول بأن القصد داخل في عملية التطور وهذا يرفضه لما فيه من الغائية ومن نقض لمذهبه . فلم يبق له الا الحل الاول اي كمون الصفة ، وهذا يرتد الى الوراثة التي تنقل مختلف الصفات وفقاً لمذهب داروين . ينقد الأفغاني ذلك بقوله « وهل صمت اذن .. عن سماع خبر العبرانيـين والعرب وما يجرونه من الختـان الوفا من السنين لا يولد مولود حتى يختن والى الآن لم يولد واحد منهم مختونا الا لاعجاز »«٥» . ورغم محاولة مظهر الأخذ على قول الافغاني و « الاعجاز » فانه يقول « ولقد قال لي احد مشهوري الاطباء في خطاب ان نسبة حدوث تلك التشوهات التي تدعى عند العوام بطهارة الملائكة بين المواليد المسلمين واليهود

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩ .
(٢) رسالة الحقيقة ص ٢٣٣ .
(٣) رسالة الحقيقة ص ٢٣٣ .
(٤) رسالة الحقيقة ص ٢٣٤ .
(٥) الرد على الدهريين ص ٣٠ .

ليست بأكثر منها عند الاوربيين الذين لم يعتادوا الختان » «٥١ . وهـذا يدل على عدم انتقال بعض الصفات بالوراثة ، وان كان داروين حذراً فيه . فهناك خلاف حول الصفات التي تنتقل بالوراثة ، فاذا كان القصد صفة من هذه الصفات ، فكيف نبرر انتقـاله بالوراثة ؟ يقول شميل عن الارادة « ان الحياة موجودة بالطبيعة حيث توجد الارادة على درجات متفاوتة ، تارة هاجعة خفية كما في الجمـاد وأخرى متنبهة ظاهرة كما في النبات وطوراً .. متعارفة كما في الحيوان، وأخيراً متكاثرة متقوية باشتراك الارادات العاقـلة معها في الاجتماعات والممالك »(٢) . وعلى ذلك يبقى الفرق بين شميل وبين من يقول بالقوة الفاعلة القصدية المريدة ، ان القصد والارادة صفة كامنة من صفات القوة عند شميل ، اما عند الآخر فلا مبرر لهذا الكمون ، فالقوة فاعلة من الاصل . وهكذا يرتد الحديث الى المسلمات الأولى للمذهبين .

٧ ـ بعض نتائج مذهب شميل :

في مجال السياسة : « ان ارتباط اعضاء الجسم الاجتماعي بعضها ببعض على الصور التي ذكرناها يجعل التأثير الواقع على العضو الواحد يمتد بالضرورة الى سائر الاعضاء .. فالالتفات الى طائفة من الناس وترك سواها ينمي الملتفت اليها جداً ويضعف المتروكة فتفقد النسبة بين اعضاء الاجتماع إذ تصبح فيه على طرفي الضعف والقوة فيختل نظامه ويؤول به الحال الى السقوط والاضمحلال .. واذا .. كان الاجتماع نفسه حاصلاً لزوماً لاعارضاً أفلا يستدل من ذلك على مايكون من سوء العقبى للاصلاحات العنيفة الجارية على غير المجرى الطبيعي أي الناشئة عن غير تغير الارادة العامة تغييراً ذاتيا .. ولذلك وجب ان يكون التغير في الاجتماع موافقـاً لارادة الجمهور او للقسم الأكبر منه .. وبما ان الانسان طبيعي في الأصل كان كل مايسير به على غير المجرى الطبيعي غير نافع له.. بل مضراً به فسياسة الاجتماعات العاقلة ينبغي ان تكون طبيعية لكي تكون نافعة » (٣).

فالنتيجة الكبرى المحصلة من فسيولوجيا الاجتماعات انما هي تفضيل النشوء على الثورة. وأعظم وسائط الانتقال بالنشوء انمـا هو الاتفاق الذي لايقرر شيئاً إلا تدريجياً وبعد ان يتم التراضي عليه » (٤) . « ولا ينبغي

(١) ملقى السبيل ص ١٢٢ .
(٢) فلسفة النشوء والارتقاء ج ٢ ص ٥١ – ٥٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤١ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٤١ .

ان يفهم من ذلك ان الثورات مضرة في جميع الأحوال كما يزعم بعض المؤرخين لأنه توجد أحوال خاصة لايمكن تخلص الجسم المريض فيها الا بثورة فيزيولوجية ... ويلزم ان تكون الثورة صادرة عن استعداد باطني كأنها اتفاق خفي بين اعضائه موافقة لأمياله » (١) .

« فيرى مما تقدم ان كلا من نصراء الثورة والمحافظين يجد في التاريخ الطبيعي سنداً لمذهبه . واتفاقها في الحرية والحرية نتيجة لأزمة متحصلة للسياسة من علم الحياة» (٢) .

أما الرابط الذي يربط كل اجتماع معاً فهو « بين الكريات الحية التي يتألف الجسم الحي منها ليس الا الميل البسيط المغروس في كل شيء لحفظ ذاته .. ثم يتحول هذا الميل في الكريات الى ميل مركب لحفظ ذاتها بحفظ ذات سواها .. وذلك هو محبة الذات المشتركة ، ثم تتحول هذه المحبة المشتركة العمياء الى محبة مشتركة عاقلة في أعضاء الاجتماعات التي لها قوة الادراك والحس والتهيج فقط » (٣) . اما المحبة العاقلة فقد اختلفوا في سببها فمنهم من قال باللذة ومنهم من قال بالمنفعة وهو داروين ، اما شميل فيقول « واذا وقفنا النظر نرى ان اللذة والمنفعة مرجعهما الى الموافقة بالمطابقة . والموافقة بالمطابقة أعم ، فقد تكون اللذة وقد تكون المنفعة وقد تكون سواهما ، وهذه الموافقة لاتكون لجميع الاحوال بل لغالبها والصفات المكتسبة عنها ترسخ حتى يعرض لها على مر الزمان مايغلبها ويحولها عن حالها » (٤) .

أما المبادىء الاخلاقية فهي « تتحول من الشوق الأعمى في الكريات الحيـة الى بديهيات الحيوانات الى معقولات الانسان حتى يكتمل في الاجتماع البشري فيصير الشوق محبة والمحبة أخاء والاخاء تعاونا والتعاون عدلاً » (٥) .

واذا كانت « المحبة والمنفعة في نظر سبنسر كافيتان وخدمهما لكل احتياجات الجسم الحي الاجتماعي[٦] » فان شميل يضيف الروية الى ذلك يقول « هذا واذا نظرنا

«١» فلسفة النشوء والارتقاء ج ٢ ، ص ٤١ .
«٢» المرجع السابق ، ص ٤٢ .
«٣» المرجع السابق ، ص ٤٥ .
«٤» المرجع السابق ، ص ٤٦ .
«٥» المرجع السابق ، ص ٤٨ .
«٦» المرجع السابق ، ص ٥٤ .

الى هاتين القوتين أي الميل الغريزي والروية ولم نفصل بينهما نرى انهما ليستا فقط علة كل اجتماع بل علة كل شيء حتى العالم نفسه . اذ ان العالم نفسه انما هو اجتماع كبير كل جزء من اجزائه يشتغل لسلامته وسلامة الكل بما فيه من الميل لحفظ ذاته وحفظ علاقاته مع سواه وبهذا تمام النظام في الكون » [١] « والاجتماع البشري هو الجدير بان يسمى حيوانا مزيدا متراضيا . (ثم يقول شميل) وهنا مكان الوفاق بين مذهب الطبيعيين في الحيوان الاجتماعي ومذهب العقليين في العمران . فالواحد انما يبين اصل الاجتماع والثاني غايته » [٢].

ولكن هل يمكن أن يقتصر الاجتماع البشري على السير على سنن الطبيعة كما مر سابقاً عند شميل ؟ وهل يرض العقليون بذلك ؟ ويبق دور الفكر أو الروية ضعيفاً عند شميل، فهو يقول « ان العقل غير حر حقيقة وانما يعمل وفقاً لأحكام هي منشأ حركته . غير ان عمله على موجب هذه الاحكام لا يوجب منه تقييداً الا من حيث النواميس الكلية والروابط الكبرى للكون فيتغير على حكم الضرورة. وتكون نتيجة هذا التغيير التحسين »(٣) . ولكنه بذلك يهمل الدور الفاعل للعقل فليس العقل خاضعاً للتطور فقط بل هو يتحكم بهذا التطور ويوجهه ويغيره، وهذا الموقف يقفه اسماعيل مظهر معارضاً لشميل، يقول « ونحن ان استطعنا ان ننكر جدلاً على الآداب أثرها في زيادة المستحدثات المادية ، فكيف ننكر آثارها في قيام المدنيات وتحديد الفضائل الانسانية ؟ بل الى أي شيء نعزو حركة التطور البشري ، وتلك الاشواط التي قطعها الانسان نحو السمت الاعلى من الفضائل »(٤) . ويؤكد مظهر على حرية الفكر ويعطيها دوراً فعالاً في عملية التطور والارتقاء ويعطي مثلا على ذلك موسى الذي « نفذ سياسته احسن تنفيذ واخرجها من حيز الفكر الى حيز الوجود .. فلم يرجع من ان « يترك شعباً » في التيه يموت منهم العاجزون ويبقى الصالحون. فكرة انتخابية طبيعية طبقها موسى .. جهد مايستطيع

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩ .
(٣) فلسفة النشوء ج ١ ، ص ٥٥
(٤) ملقى السبيل ، ص ٢٣ .

مؤمن بنتائجها من اخراج اجيال الحرب والجلاد . وعلى نفس الطريقة في عصور المدنية اليونانية »(١) .. ودور الفكر في ذلك دور فعال لايقتصر على السير وفق الطبيعة ، بل يوجه التطور ايضاً ، وقد تكون فكرة شميل عن الثورة قريبة من هذا لولا ان شميل لايوضح دور العقل والفكر في ذلك . ويذهب مظهر الى ان حرية الفكر وجدت في كل الازمنة « غير ان بين حرية الفكر في الازمان القديمة والحديثة فارقاً واحداً ، هو ان هذه الحرية في العصور الاولى تمتع بها فرد واحد تبعته الجماهير أما في العصر الحديث ، فأصبحت الحرية الفردية طابع الاكثرية من المتعلمين »(٢) . فكون الفكر حر عند مظهر لا يمنع ان يكون متطوراً .

وهكذا لما تطرق شميل في تفسيره للنشوء جاء مظهر يرد تطرفه . وحيث يجد شميل في تطور العلوم الطبيعية مقياساً لتقدم الامم بقوله « اذا قابلنا بين الشعوب والامم والحكومات اليوم في اقطار المسكونة كافة نجد بينها تفاوتاً عظيماً جداً .. نجد .. انه حيثما كانت علوم الكلام والنظريات المترتبة عليها منتشرة أكثر كانت العلوم الطبيعية منحطة وكان الانسان منحطاً متقهقراً وحالته الاجتماعية سيئة كذلك والضد بالضد »(٣) يقف مظهر ليرمم موقفه ويعدله فيقول « كذلك ترى ان لكل أمة روحاً أدبية تظهر متجلية في كل دور من أدوار نشوئها وتطورها . فالعلوم الأدبية ربيبة الفكر الانساني وتدرجت بتدرج العقل الانساني وتطوره ، واصطبغت بروح الامم وطبائعها ، شأنها في ذلك شأن العلوم الطبيعية . ومحاولة انكار آثارها ، انكار في الحقيقة لجهود الانسانية طوال قرون عديدة »(٤) . ولماذهب شميل في تفسير الاجتماع البشري على أسس طبيعية حيوية أوقفه مظهر مبيناً كون الآداب هي « الدعامة الأولى في بناء العمران ، وحسبها أنها مرجع الفضائل ومستكن الحكمة العقلية »(٥) .

والنقد الآخر الذي يقدمه مظهر يقوم على انه لو « اقتصرت الانسانية على التدرج في سبيل العلم التجريبي والاختباري مقصورين

---

(١) مجلة الحديث ، العدد الممتاز ، حلب ، ك ٢ ، ١٩٣٠ مقال لاسماعيل مظهر بعنوان : حرية الفكر وأثرها في تكوين الحضارة الانسانية على اساس الدين ، ص ٢٥ — ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٣) رسالة الحقيقة ٢٤٥

(٤) ملقى السبيل ٢٣

(٥) ملقى السبيل ٢٤

على النظر في قوانين الطبيعة وقوانين الجاذبية والجوهر الفرد، من غير ان تلفت بنظرها الى الناحية الادبية. لما قام. صرح المدنية، ولأصبح الاجتماع والمجتمع، هيكلا جافاً بعيداً عن أن يبعث في الحياة. من احساس بواجب أو شعور بمسؤولية»(١). فهل ينتج عن ذلك أن المادية «جرثومة الفساد.. وخراب البلاد» (٢) كما يقول الافغاني، ان ذلك غير مايذهب اليه مظهر في رده على شميل، ولذلك ينقد الافغاني ايضاً قائلا: «لم يكن في فلسفتهم شيء من تلك الاباحة التي يحددها في رسالته بتلك الحدود» (٣). ولشميل كلمة حول هذه المسألة يقول فيها «لقد اخطأتم في مازعمتم كأنكم تجهلون طبيعة العمران فالعمران ضروري للبشر وإلا لم تتم لهم الحياة، وهو من حيث انه اجتماع طبيعي في الحيوان، وانما بلغ الغاية القصوى في الانسان لانه أعدله طبعاً وأقومه تكويناً وأبعده فكراً وأقواه روية»(٤). ان نقد مظهر ينطلق من كلمة (لو)، وشميل لايقتصر على العلوم الطبيعية الحيوية في مجالها بل يعممها لتفسير الاجتماع والعمران. ولذا قد يقصر نقد مظهر السابق لولا انه يقول «العقيدة الثابتة في النفس مثلا أثر في نشوء الجماعات وارتقاء النظامات المدنية. ذلك مايبحث فيه النشوء من غير ان ينصرف الى البحث في طبيعة تلك العقيدة وصحتها او خطئها» (٤). ولكن عندمايتجاوز المذهب ذلك فانه يصبح عقيدة أو فلسفة يقول مظهر «لماذا حمل دكتور شميل على الاديان؟ حمل عليها متابعة لرأيه المادي بل جرياً وراء غاية محدودة.. تنحصر تلك الغاية في أن يتبدل الناس بدينهم الاولي ديناً آخر. وماهو ذلك الدين؟ هو عبادة المادة»(٦). ومع مافي كلمة عبادة من معنى أدبي فان شميل لاينكر «ما للديانات من الواقع العظيم في تقدم الامم وتأخرهم» (٧). غير انه يعطي نصاً قد يوحي بالنتيجة السابقة التي يأخذ عليها مظهر، وهذا النص قوله «فكون الانسان

(١) ملقى السبيل ٢٥
(٢) الرد على الدهريين ٢٣
(٣) ملقى السبيل ١١٧
(٤) رسالة الحقيقة ٢٨٥
(٥) ملقى السبيل ٨٨
(٦) ملقى السبيل ٤٣
(٧) فلسفة النشوء والارتقاء ٥٢

يكن قوام شأنه واصلاح حاله بدون الديانات فمما لا يجب أن يكون شك فيه » (١). ذلك أن تقويم شأن الانسان واصلاح حاله يجب أن يكون على أساس طبيعي بالمعنى الذي يعطيه شميل لهذا الاساس . فهو ينادي بالاصلاح والاشتراكية والفضيلة على أساس طبيعي .

فالاشتراكية عند شميل « ليست مذهباً من المذاهب بل هي نتيجة لنظر الانسان في الاجتماع .. وهي لا تعلم اقتسام المال بل العدل في تقسيم المنفعة بين العمل ورأس المال »(٢) . « والاشتراكية كالاجتماع نفسه ذات نواميس طبيعية تدعو اليها » (٣) ، « والناموسان العظيمان اللذان يسوسان الاجتماع هما تكافؤ القوى في العمران وهذا يوجد التنازع ، والثاني تكافل العمران بتوفير قواه وهذا يوجب استخدامها كلها لمنفعته »(٤) . « ولا شك ان الاشتراكية اذا أريد بها الاشتراك بالمنفعة من غير الاشتراك في العمل تكون حلماً بارداً ... ولكن اذا كانت الاشتراك في العمل والاشتراك في المنفعة على نسبة هذا العمل الا تكون حينئذ عدلاً واكبر حاث على الاجتهاد »(٥).

والفضيلة يردها شميل ايضاً الى اساسها الطبيعي يقول « ان الفضيلة ليست الا انطباق اعمال الاجتماع على نواميس الاجتماع، والرذيلة مخالفة هذه النواميس » [٦] .

ويرد الحروب الى تفسير طبيعي، حيوي « فالتنازع بين الانسان ليس سببه المدافعة عن القوت والحروب ليس الدافع اليها الخوف من الجوع . وانما هي المطامع تحمل الانسان على قتل الانسان والمطامع هي جوع النفوس وهو اشد هولاً من جوع الاجسام [٧] .

وهكذا يرد شميل الفكر الى ظاهرة.

(١) المرجع السابق ٥١

(٢) فلسفة النشوء والارتقاء ، ج ٢ ، ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٧) المرجع السابق ، ص ١٩٨ .

طبيعية والفلسفة لم يعد لها مبرر عند شميل . فالعلوم الطبيعية هي ام العلوم الحقيقية ويقتضي ان تكون ام العلوم البشرية كافة»[1] ويقول شميل « ان الفلسفة ان كان لها بعض معنى اليوم فانها ستصبح مبتذلة في مستقبل الأيام »[2] .

٨ ـ الخاتمة :

فمن الملاحظ بعد كل هذا ان ربط التطور بالمذهب المادي أدى عند شميل للقول بفلسفة مادية طبيعية تطورية تفسر كل ظواهر الكون من اجتماعية واخلاقية وحيوية ... الخ. وقد تبين أيضاً كيف يحاول شميل في كل امر ان يبرهن على صحة مزاعمه ، وكيف كانت تنجم الصعوبات في طريقه . ذلك أنه انطلق من مسلمة معينة ومن معطيات علمية معينة ليفسر بها كل الظواهر ، وهذا الطريق قلما يؤدي الى تفسير مقبول ، بل هو تفسير احادي الجانب . وقد حاول الافغاني ان يرد على الماديين من خلال بعض الاعتراضات لم يصح معظمها بنظر مظهر ولكن محاولته كانت دفاعاً أيضاً عن عقيدة يعتقدها وينطلق منها . أما مظهر الذي يقول فيه اسماعيل ادهم « ان عقليته الانسكلوبيدية تمتاز بنزعتها العلمية الصرفة حتى في ساحة الأدب المحضة فهو لم يؤمن الا بالعلم القائم بضروب المرونة العقلية ولا يدلك على مبلغ التفكير عنده مثل كراهيته للنزعات المذهبية في أي متجه اتجهت »[3] ، فقد وقف موقف العالم ، ولكن ليس ذلك الموقف المجرد ، وهل بالامكان التجرد عن موقف في الفلسفة؟ وحتى التجرد نفسه يمكن اعتباره موقفاً . اخذ مظهر بنظرة تأخذ بالتطور لكنها وان كانت لا تحاول ربطه بوجهة نظر اعتقادية عقلية ، فانها لا ترى فيه معارضاً لمثل وجهة النظر تلك ، اذا استطاع اصحابها التلاؤم مع حقائق العلم وهذا خاضع للعقل .

وعلى ذلك قد يحق لمظهر القول بان « الفلسفة اذن اصطلاح يؤدي عند كل مفكر في الفلسفة الى حقيقة يقتنع بها اقتناعا ذاتيا . وتعريفها بحدود ما يؤدي هذا الاصطلاح من المعنى في ذهن كل شخص تصدى للنظر في العالم ابتغاء الوصول الى الحقيقة عن طريق

(١) فلسفة النشوء والارتقاء ، ج ١ ، ص ٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٣) مجلة الحديث ، العدد الممتاز ، ك ٢ ، ١٩٣٨ ، مقال بعنوان : اسماعيل مظهر « عن الالمانية » للدكتور اسماعيل ادهم ، وتعريب الاستاذ أحمد احسان ، ص ٤٥ .

فلسفي(١) ومحاولة شميل رغم تذرعها بالعلمية لا تخرج عن هذا الحكم .

ويبقى اخيراً قول مفيد لمظهر قد يضعنا امام مشكلة تفسير النتائج العلمية ، وهو انه « ماذاع من فكر او مبدأ علمي الاوقسم الناظرين في المعقولات فريقين : فريقايتخذه دليلا على مادية الكون وفريقاً يتخذه دليلا على الالوهية (٢) » .

هكذا برزت مادية شميل في الفكر العربي الحديث فلاقت معارضة ، امـــا كيف استمرت المادية بعد شميل فهذا يحتاج الى بحث ثان .

(١) ملقى السبيل ، ص ٢٩ .

(٢) ملقى السبيل ، ص ١٥٦ .

كمال ناصر

في ثوانيه الأخيرة

علي الجندي

.. طوال عمري الذي ضيّعت نصفه سدى !
طاردني الأمان مثلما طاردني الخطرُ ؛
وكنت من كليهما .. أفرّ !
— كنت أريد دائماً لو متُّ ميتة الرجالْ ،
لكنني كنت أحب أن أعيش ،
أن أنجب أشعاراً ، وأنجب الأطفال ...
و .. هأنا أمام وجه الموت ، لم أنجب ولم أفرّ !!
شاغلني الحب شغلت نفسي بالمغامرة ..
كانت حياتي أبداً مقامره !

وكنت شاعراً وفارساً ،
— هل كنت شاعراً وفارساً ؟!
أم كنت ضائعاً ، مغامراً في السر" !! —
أحزن ، بل أبكي بصمت في فراغي المديد
.. في كل عام كنت إذ تمر سنة من عمري البديد
وكنت أستغيث بالموت من الحياة إذ تلوح ضامره
ومن تمنع الحروف إذ تخاتل الحروف ..
تركت دائماً ورائي السفائن المحترقه ..
والخيل والليل ، ولمعة العيون
— أواه ياسفائن الحنين ! —
لكنني كنت إذا مالاح الشبح المخيف
أهرب للخمرة والجمال والقصائد المعتقه
واستغيث بالجبال والجدران والرفاق
وجه أمي البعيدة المؤرقه ..
أحلم بالغفوة فوق صدرها ،
بعبرة من مقلتيها ،
— آه ياحنان مقلتي أمي ..
وياعيون أصدقائي الذين لايردون على ندائي المديد ...
.. كنت اذا داهمني الأمان أو أحاق بي خطر ،
أشعر أنني في مأمن ؛
تحرسني الجدران والبيوت والجبال والبحر ،
تحيط بي بنادق الرفاق ، أوجه الإخوة ،
عينا « طفلتي » البعيده
لكنني ، اللحظة ، مكشوف ، وعريان ، مباغت
مروع ..
وفي عيني ذعر قاتل .. آه ،
تهاوت كل جدران الحماية القديمة الجديده ...
— ياوطني القديم والجديدا ،
ياتعبي العتيق ..
ماكنت ، ولن تكون آمناً ، سعيدا !!

يا ... —
« لو تطلق الرصاصة — الخلاص ،
.. لو ألمح وجه أمي الفخور ، وجهها الحزين ،
وجهها الحنون ، صدرها التعيبا ،
أوّاه لو يسعفني البكاء ، لارتميت فوق
صدرها أنشج .. لو .. »
و .. انهمر الرصاص مثلما تنهمر الدموع فوق
صدره ..
واخترق الرصاص حاجز الأمن ، وذعر
عينيه ...
ومرّ الجند فوق كفه التي تمسك بالقلمْ
ودهسوا أضلاعه التي تفيض بالألمْ ..
ونهبوا أوراقه المسوّدات بالحروف ،
والفواصل العنيدةْ ،
وصورة الأمّ التي تخضبت بدم
وتركوه فوق الأرض كالمصلوب ..
... ماكان فوق ثغره ولا ظلٌ لبسمة سعيدَةْ !! ..

عبد الكريم الناعم



اللغة والألوان

كان حرفي لغة ترجى فتُقرأ
لغة ترقى ،
ونهراً أتصبى حين أظمأ
رحلة في العالم الملقى على كف من السحر الموشّى
لمعة من خاطف البرق الذي ألقاه في اليمّ
وفي السحب ،
فاعشى

كان شيئاً أسود اللون ،
بلالاً أبيض القلب ،

جسوراً ،
معجزات يقرأ الأنباء فيه
لغة الشمس ،
وحلماً كنت في اليقظة سراً .. أحتويه
صار في اليقظة حرفي امرأة تزني
على قارعة الضوء .. فأرجَمْ

* * *

شاخت الأغصان في شجرة بيت
كنت أرعاه قديماً ،
شاخت الحبةُ في سنبلة القلب ،
وشاخ الصوت في حنجرة الأجراس .. ،
والرؤيا ،
وشخنا ،
واسمنا المنقوش في الريح ،
وما زلنا ندور
غزلتْ من غزّة الصبح الدهور
أمنيات ،
مثلنا شابتْ ،
وشبنا ،
شابت الكلمة فينا ،
كل مارافقنا شاخ .. وشابا
بقي الحزن وحيداً ،
بقي الحزن شبابا

* * *

في « المزارات » ولدت
ومن الباب الشمالي دلفت
كان في كفي قراءه
وعلى كتفي عباءه
نسجتها كف قديس رآني مثله
دون قداسه
ورآني غارقاً في اليم ،
كفي .. وشراعي ...
ظل حرف
سوّدته قبل أن يولد
أدرانُ السياسه
ورآني
لغة العشب .. الهشيم
أحرسُ الدربَ من الريح ،
وأضواء النجوم
جانبا الدرب طريقي ،
ورحيقي وحشةُ الأرض البوار
ورآني
« وَدَعاً » ألقى فافتض مغاليق رؤى الماضي ،
وما يأتي ،
رآني
في اغتراب « الشيح » ضوءاً في لياليه اليتيمه
ناسكاً أشقاه حب الأرض ،
ملقى بين أنياب الهزيمة

فارساً عاد إلى البيت بلا أنف ،
وآني
« خرّز » السرج ،
ولوعات أغان
شاعراً فكّ رموز اللوعة الأولى
بمفتاح القناني
عابراً من ذلك الباب الشمالي أنثت
لغةً ..
من غير صوت .

* * *

قلتُ لما لاح لي برق السرار
وحده السلطان يفنى ،
وحده الشعر سيبقى ،
وأنا العاصفة الكبرى على مدّ المدار

★ ★ ★

وجرى الماء بكل البرق ،
والبرق بكل الماء ،
والنصل بغمد السيف ،
والسيف بغمده
رشَفَ الزغلول ريقي ،
فتواريتُ ببَرْدِه
والحصى بالماء يبرد

ومياه النبع من فوهة الجلمود أبرد
فاحبسيني في الحصى ،
في الماء ،
في عينيك ،
في الرشف ،
فإني أتزود

. . . . .

الكوكب الممتد في ذنابه كلام خطبة ،
ليوم حفلة مناسبة
رأيته ينوس في بوابة المغاربه
سمعته يصيح
« يا خالداً ،
يا ابن يزيد »
أياول عيد

وأنت أنت حامل جوازك .. الجسور
كوفية ،
طوّت في أطرافها مخالب الصقور
لساعة تدب بين لهفة السؤال ،
واستغاثة الجريح .
ألكوكب الممتد بين لحظة البارود والمناسبة
سمعته يصيح
ياخالداً
الكيمياء لحظة الخطاف
والحرب لحظة تمر بين رعشة الفؤاد

والشفاف .

★ ★ ★

ندهتمو فما التفتوا ،
ندهتُ بكل مافي القلب من خوف ، ومن ألم
ألا ياتاركي سلم
لمن أبقيتمُ القلب الذي ترعاه علتُهُ ؟
ندهتمو .. فما التفتوا
وحين جرت دموعي تغسل الغبراء
عرفت بقية الأسماء

★ ★ ★

كان في ثديك علقم
كان في تاريخك الكذاب علقم
كنتِ تسقين افاويه رواقي حين اهزم
كنتِ حرفاً في مُقوق الدور ،
في وجه القناطر
كنتِ نجماً مطفأ الوجنة يبكي
في دجنّات المعابر
وأنا طير هواجر .

★ ★ ★

ياسيدي
إذا رفضتَ أن يكون في قاموسنا « لجوء »
فآخِ بين طلعة الرصاص .. والمنى ،
وأذرعي .. والضوء .

شعر:
محمد عفيفي مطر



نافذة من الزجاج المعشّق

هي الشمس . . . ، سَمّرَها عنكبوت الشظايا .
سفينة نوح على الأرض ،
وجهك ياطفلة الحلم والرعب منقسمٌ مستريب المساحات ؛
أثوابك امتلأت بعطايا التناقض ؛
من تحتها سُرّةٌ تتشقق ،
هذي جيوش السلاطين
هامدةٌ في السكون الملون .

(لاتعبرى النهر يإطفلتي بإغزالة رعبي وحلمي المكشّف ..
يأتي زمانك ، يأتي زماني .. فنعبر في جسد الرقص ،
نخترق الصرخة الحجرية)
هي الأرض .. هذا الدم المتخثّر ،
وجه الحسين ، وعيناه كأسا دم ،
والشهادة بين ذراعيه :
طفلٌ تكسّلسّمُ في جانبيه الفتوق السخية
ودائرة الرمل لقمته البربرية
هي الأرض .. قارورة الظمأ المتجذّر بين التعاشيق .
(هل كان يدري الحسين
بأن المياه الأسيرة ملح أجاج
وأن اشتجار السهام على الأفق فاتحةٌ في كتاب المطر) .
هي الأرض .. نافذة للغيوم الأسيرة ،
لاتعبري النهر يإطفلتي يإغزالة حلمي المكشّف ،
هذا هو الله ينحني ساعديه ،
وهذا هو الشعب يقذفني حجراً في سكون الزجاج الملون
فانتظري ...
جسد الرقص يبدأ رعدته الدافئة .

قصة: عادل أبو شنب



الحرب ..



- ١ -

كانت السيارة اللبنانية [اميركية موديل ١٩٧٢] تدرج مطمئنة على الاسفلت وفيها كهل وطفل وعروس ذاهبة الى عريسها المنتظر في دمشق ، ورجل أعمال مصاب بصداع ، وسائق يغني ليسلي نفسه .

عند أول منعطف خطر [في المنعطفات الخطرة يضع السائقون أقدامهم على الفرامل] كان ثمة أذرع مبرقعة اللون تتحرك في الهواء، فوضع السائق قدمه على الفرامل وامتلأت عدة عيون بدهشة غير منتظرة .

كانوا ثلاثة جنود اسرائيليين [يؤكد السائق انه رأى نجمة داوود أول مارأى] بنادقهم على اكتافهم ، وسجائرهم الرخيصة الثمن .. ممتدة أمام أفواههم .

- ٢ -

« صيدا – من مراسلنا

أوقفت دورية اسرائيلية سيارة لبنانية [لم يذكر النبأ موديلهـا] تسير في طريق مرجعيون [أي داخل الاراضي اللبنانية] وفتشت ركابها واحداً واحداً ، وتمنى الجنود الاسرائيليون لو كان مع الركاب بطحة أو بطحتان من العرق اللبنـاني الذائع الصيت » .

قال ناجي الجالس في مقهى يحتسي فنجانا من القهوة السوداء :

– ماأظن الا أن القيامة قد قامت . الخبر منشور في الصحف.

ولم يرفع أحمد رأسه عن شبكة الكلمات المتقاطعة [هو لايشتري الصحف عادةالا ليحل الالغاز ويسهم في التسليات المنشورة فيها] واكتفى بأن هز رأسه .

وقال ناجي :

– مايغيظ انك ، وانت مواطن عربي مثلي ، لاتنفعل بحادث كهذا .

ورفع احمد رأسه وراح يقهقه [بدت أسنانه الصفراء المكسوة بالقلح وقتئذ]وقال :

– وحياة ربك .. الخبر دعاية للعرق اللبناني .

وجن جنون ناجي . اتسعت حدقتاه وراح يزمجر كحيوان جريح ، وشعر أحمد بخطورة الموقف ، [وهو يعرف حدة مزاج ناجي كأي مواطن عربي من المحيط الى الخليج] فوضع على قسمات وجهه شيئاً من الجد ،وقال:

– ماذا تريد ؟ انها الحرب ياناجي .. الحرب .

- ٣ -

أطل ناجي من نافذته على الساحة فرأى الاطفال الثمانية [الواقع أنهم كانوا اكثر عدداً] يقفون حائرين . كان اليوم .. يوم عطلة ، وكان النقـاش دائراً بينهم حول الكرة [سلواهم أيام العطل] التي سقطت أمس في النهر القريب .

واقترح سامي ، وكان اكبرهم ، ان يلعبوا لعبة الحرب ، قال :

– ليحضر كل منا سلاحه .

ووافقوا جميعاً دون تردد . كانت لعبة الحرب أحب الالعاب الى قلوبهم ، وفي غضون دقائق . كانت الاسلحة المخبأة للمناسبات تحتل مناكبهم .

قال سامي :

– علينا أن نكوّن جيشين .

ورشح أحمد [هو بالطبع أحمد آخر ، جديد ، غير ذاك الفارق في حل شبكات الكلمات المتقاطعة] نفسه لقيادة الجيش الاول . وسأل بنبرة ذات معنى :

– من ينضم إلي ؟

رفع سمير اصبعه ، كأنه في صفه بمدرسة حطين الابتدائية للبنين ، وقال :

– انا ..

قال احمد :

– عينتك مساعدي . .

ودون ان ينتظر جواباً من احمد .. التقى اثنين ، وطلب اليهما أن ينضما الى جيشه الفتي ففعلا دون اعتراض [كانوا جميعاً يعرفون أن الانخراط في الجندية يعني اطاعة الاوامر] وعندئذ هتف في مرح :

– جيشي جاهز للقتال .

واصطف الثلاثة باسلحتهم [بدت في الواقع شبيهة باسلحة حقيقية]أمامقائدهم ذي الجبهة الباذخة والعينين الصارمتين ، وعندما أمروا بالسير كان لوقع أقدامهم على الارض صدى مهيب .

وقال سامي مخاطباً من بقي من الرفاق :

– أنا قائد الجيش الثاني ، وانتم جنودي .

– ٤ –

أمام سمع ناجي وبصره ، في جلسته تلك وراء النافذة المطلة على الساحة ،دارت الحرب بين الجيشين . القوات العربية تواجه القوات الاسرائيلية ، [في الواقع .. لم يعد يغري الاطفال أن يلعبوا لعبة الحرب بين ابطال ولصوص أو بين هنود حمر ومهاجرين اميركيين ، ولهذا اتفقوا على أن ينقسموا الى جيشين ، عربي واسرائيلي] والمعركة طاحنة ، صاخبة ، استخدمت فيها فنون الكر والفر ، [كما تعلم الاطفال في المدرسة عن

حروب الأجداد] وفي غضون ساعات قليلة كان الجيش الاسرائيلي قد ابيد عن بكرة ابيه ، وعلت الفرحة وجوه الاحياء ، ورقصوا رقصة النصر فوق الاجساد والاسلحة الاسرائيلية التي تمددت على الأرض تتصنع الموت .

وهتف احمد هتافاً حاداً :

- انتصرنا .. انتصرنا .

[على هـذا النحو تقريباً انتهت لعبة الحرب وعاد الاطفال الى منازلهم] ، وأغلق ناجي النافذة وذهب لينام .

- ٥ -

انت الآن ياناجي شاب ، شاب حقيقي ، عمرك أقل من ربع قرن بقليـل . هل تظن انك ستعمر طويـلاً ؟ الحيـاة وخزة دبوس ، حلم صغير ، فاغتنم الفرصة . عش ساعات عمرك بكل خلجة من خلجات قلبك . الافكار والقيم والاسر والعلاقات والنظم القائمة لها . فلماذا تسجن نفسك في قمقم التفكير بالوطن والأرض التي احتلت والعـدو المتربص ، والاصدقاء الغدارين ، والسلاح غير المجدي، والناس المكترثين او غيرالمكترثين، والحرب القائمة وغير القائمة في آن واحد ؟ عش لنفسك ياناجي . انس .. أنك منتم الى ارض بعينها ، غص اكثر فأكثر في داخل نفسك .

- ٦ -

عنـدما أفاق ناجي من كابوسه ؛ [كثيراً ما تعرض في السنوات الأخيرة الى كوابيس مماثلة مسموعة ومرئية ..] تذكر أنه رأى مابين اليقظة والحلم شيئـاً شبيهاً بفيلم سينمائي عن معركة حربية دارت فجأة في الأرض والبحر والجو ، وكان هو [شخص ما له مثل ملامحه] يرقبها بمنظار مكبر من خلف نافذته . ولقد ساءه جداً أن ينهض من كابوسه دون أن يعرف من انتصر ومن انهزم .

قصة : فاضل السباعي



الأيدي الكرتونية

كنت سائراً في طريق خلويّ ، أترنّم بأغنية راقت لي .

فجأة ، برز أمامي رجـــل . فكرت ، وأنا أتابع ترنمي : لا بأس ، فليطرب ! ولكنه استوقفني باشارة من يده . فقطعت غنائي ، وأنا أحسبه رجلاً قد ضل طريقه :

– نعم ؟

فسألني عابس النظرة :

ــ من أنت ؟

ولما لم تبدُ لي فيه رقة الرجل « الذي ضل طريقه » ، فقد أدركت أنه أحـــد اولئك الذين سئمت أن يعترضوني اينما سرت وحيثما حللت ، يسألونني ويستجوبونني ، وأحياناً أضطر الى أن ألوذ بالفرار هرباً منهم .

ألوى علي كرة اخرى :

ــ اسألك : من أنت ؟

فنويت ان اتمرد . اجبته :

ــ أنا .. مواطن !

اعلن في حدة :

ــ اعرف ذلك . وإلا كيف تمشي في ارض الوطن مرحاً ؟ قـــل لي : ما اسمك ؟

قلت بتشفٍ :

ــ لن افصح لك عن اسمي !

ــ انك ، بهذا ، تخالف الأنظمة !

ــ ربما . ولكنك ، أنت ، تزعج الناس، عندما تفسد عليهم خلواتهم لتسألهم ما أسماؤهم ؟ انك لتسبب لنا ، نحن المواطنين ، ضيقاً لا مبرر له !

فأعلن متهكماً :

ــ لعلك تتوقع مني أن أذهب الى أرض الأعداء ، فأسألهم من يكونون؟!

أجبته :

ــ لا ، طبعاً ! (وأضفت) والآن ، دعني وشأني .

أمرني ، وقد تجهم وجهه :

ــ أرني بطاقتك الشخصية !

فما ابهت له . واذ سمت بأن اتابع سيري ، رأيته يدفع بيمينه الى جنبه لتعود بمسدس شهره في وجهي صائحاً :

ـ ارفع يديك . اياك ان تتحرك !

كان قد صح عزمي على ان اتمرد ، ان اقاوم . كنت قد سئمت ، حتى مخ العظام، الخضوع، والفرار، والتواري. ولكني اذ نظرت الى المسدس في قبضته، وجدته صغيراً ، صغيراً جداً ! امعنت النظر : ما اشد شبهه بلعب الأطفال ! !

قطفرت الى شفتي بسمة ساخرة . واوليته ظهري ، وبصري ما يزال مشدودا الى مسدسه الصغير .

هدر بأعلى صوته :

ـ مكانك ... والا اطلقت عليك النار !

دفعت الى الطريق بساقي ، غير عابىء به .

صرخ :

ـ خذ !

ضاغطاً الزناد .

ولكن شيئاً ... لم يحدث قط

وانفلتت مني ، هنا ، قهقهة عريضة انبثقت من اعماق اعماقي. احسستني اللحظة ، اسعد مما كنت ساعة كان لساني يترنم بالأغنية الحلوة :

ـ اذن ، فمسدسك ، ياصاحبي ، خابي ، لا يعمل !!

امتدت يده الى ساعدي لتمسك به ، فتوعدته :

ـ دعني ... والا جعلتك كومة من رماد !

ثم ضحكت ، في سري ، من هذا الوعيد السخيف الذي جرى به لساني. الا أن يده تشبثت بساعدي ، فتعين علي أن احرر نفسي من قبضته.

وهنا تشابكت الأيدي .

ولكن بدا لي أن يديه ليستا من لحم ودم . ليس فيها عظام ! كانتا هشتين ! هاهما تتكسران ، تتقصفان ! كان الرجل - يالعجب - ! كرتونياً !!

دفعته دفعة يسيرة ، فاذا هو يتهاوى على الارض كومة من .. ورق ، من قصاصات ورق صغيرة .. سرعان ما أخذت تذروها الريح .

وتابعت سيري في الطريق الخاوي ، وانا اترنم بأغنيتي .

قصة :
زكريا تامر



تعليق :
الدكتور حسام الخطيب

وجه القمر

نشرت القصة مع التعليق في مجلة « الأدب العربي » التي تصدر باللغة الانكليزية عن جامعة كامبريدج ـ العدد ٣ سنة ١٩٧٢ . قامت بترجمة التعليق جهاد دروزة .

القصة

كانت فأس الحطاب تهوي برتابة على جذع شجرة الليمون المنتصبة في باحة البيت، بينما كانت سميحة جالسة قرب النافذة المطلة على الزقاق حيث تتصاعد بين الفينة والفينة صرخات شاب معتوه ، وتمتزج بأصوات الفأس . وكانت رائحة شجرة الليمون تتسلل الى الغرفة وتتغلغل في الهواء وكأنها شحاذة عمياء تطرق الأبواب متوسلة بانكسار .

وتعالت صرخات المعتوه ، وتناهت الى مسمع سميحة متقطعة خشنة ، يكمن فيها حيوان متوحش غاضب ينادي مخلوقاً ما هاجعاً في شرايينها . وكان باستطاعتها رؤية المعتوه وهو يقفز في الزقاق ، وحوله بضعة أولاد يتصايحون ويرمونه بقشور البرتقال . وكانت سميحة واثقة من أن عينيه كنمرين مريضين غافيين على عشب ادغال مظلمة .

وكان والد سميحة رجلاً هرماً يعذبه المرض . وقد ضايقته شجرة الليمون فصمم على التخلص منها . واحضر الحطاب غير مكترث بتوسلات سميحة ، فشجرة الليمون صديقتها منذ ايام الطفولة ، وهي تزداد جمالاً حين يقبل الشتاء وتتلالأ حبات المطر على أوراقها . وعندئذ يبدو اخضرارها مضيئاً وساطعاً وكأنه سيشتعل بعد هنيهات .

وعادت صرخات المعتوه تتعالى وكأنها بكاء شجرة الليمون التي ستهلك بعد قليل ، ونما في لحم سميحة خوف مبهم . وخيل اليها أنها تملك سماء مفعمة بنجوم ذات انوار شاحبة ليست الا احلامها الميتة ، فقد كانت سميحة في تلك اللحظة مجرد امرأة في مقتبل العمر ، طلقها زوجها منذ أشهر . وقد تكون زوجة صالحة ، تطهو الطعام ، وتغسل الثياب ، وتنظف الغرف ، وتستسلم للرجل الزوج متصنعة النشوة والمرح والحرارة . وعندما كان عمرها عشر سنوات صفعها والدها بقسوة لأنه شاهد ثوبها منحسراً عن فخذيها . ولكنها حين اوشكت على الزواج علمتها قريباتها المتزوجات كيف يتحرك جسدها لحظة التقائه بالرجل ، ويصير صوتاً متجاوباً مفعماً بالتآلف والتناغم والشهوة المنتشية التواقة للرجل . وكان زوجها يغضب ويحنق عليها ، ففي الليل وهي متمددة لصقه تهلع وتنكمش حين تلمسها يداه ، وتتحول الى لحم ساكن تستسلم دون حركة لثقل رجل ما . ولم يستطع الزوج العيش معها فقد كان يريد امرأة تتأوه ويرتعد لحمها اذ تستنشق رائحة رجل ناء .

وعادت سميحة الى بيت أهلها لتعيش مخذولة ، تساعد أمها في أعمال البيت ثم تبدد بقية ساعات النهار جالسة قرب النافذة تراقب عابري الزقاق ، وكان الشاب المعتوه لا يفارق الزقاق ، ويظل يصرخ مطارداً الأولاد .

وكانت الفأس في تلك الهنيهات ما زالت تجرح بحدها جذع شجرة الليمون مخترقة جسدها أكثر فاكثر . وكان صوت الفأس يدفع سميحة لأن تحس بأنها تفقد طفولتها شيئاً فشيئاً . ولقد كانت سميحة في الأيام القديمة طفلة تضحك دون سبب ، وكان القمر يرعبها ، ولا تقدر على الاقتناع بأنه مجرد قرص صلب ذي ضياء أبيض .

وسمعت سميحة صيحة حادة غريبة . فادركت حالاً أنها لا بد صادرة عن المعتوه ، فتطلعت من النافذة فاذا بالمعتوه قاعد على الارض ممسك رأسه بيديه بينما الدم ينبثق من بين أصابعه ، وكان الاولاد قد لاذوا بالفرار بعد أن قذفه أحدهم بحجر .

وابتعدت سميحه عن النافذة ، خاضعة لرعب خفي . وارتمت على الاريكة ، وامتزج عطر الليمون وأصوات الفأس بصراخ المعتوه ، واغمضت عينيها مستسلمة لارتعاشة قاسية ، وأحست ان ثمة أصابع تضغط على حنجرتها مانعة عنها الهواء ، وارادت الصراخ مستغيثة قبل ان توشك على الاختناق ، وزحف ثقل مؤلم مجتازاً جسدها كله ثم انزاح تاركاً خلفه سميحه تستعيد الهواء والسكينه ، واخذت سميحه تلهث بسعادة يخالطها بعض الخوف ، وأبصرت بغتة الرجل الغامض الذي اعتاد ان يقتحم أحلامها في الليل . وكان رجلاً طويل القامة ، عارياً تماماً ، وجلده مغطى بطبقة كثيفة من الشعر الأسود الخشن ، ولكم تاقت لأن تلمسه غير أنها لم تستطع التحرك .

وكانت الفأس مازالت تضرب بحق جذع شجرة الليمون . وابتسم الرجل الغامض ، وهو واقف قرب الباب ، وتألقت عيناه ، وقالت سميحه بصوت متحشرج : ابتعد .

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة ، وبدت اسنانه بيضاء ، وشفتاه كدم قرمزي متجمد ، وودت لويقول أية كلمة ، ورغبت أشد الرغبة في سماع صوته الذي لابد ان يكون كهدير موج يرتطم بصخور شاطىء متناه في البعد .

وحاولت سميحه الهرب حينما ابتدأ يدنو منها ، وقالت ثانية : ابتعد .

فلم يأبه الرجل لها ، وتابع اقترابه منها . ومد يداً لها خمس أصابع ، ولمس شعرها

المتهدل ، وتحركت شفتاه دون ان ينبعث منها أي صوت ، ولكن سميحه كانت متيقنة من أنه قال لها : حبيبتي ..

واشتد صراخ المعتوه ، وامسك الرجل الغامض بيد سميحه ، وجرها فتبعته دون مقاومة بينما هيمنت عليها طمأنينة عذبة ، انها تعرف يده ، تعرفها جيداً ، اين رأتها من قبل ؟ لم تذكر ، حاولت التذكر ، وقادها الرجل واجتازا معاً السهول الشاسعة حيث يتلاقى ثلج الشتاء وشمس الصيف وزهر الربيع ، ووصلا الى منزل متهدم ، سميحه تعرف المنزل ، لقد رأته من قبل . أين أين ؟ وانهزمت العتمة ، وبدأت تتذكر بشكل خاطف ، انه منزل متهدم مهجور كان يقبع كشبح في فم الزقاق أيام كانت صغيرة السن .

وتطلعت الى الرجل فوجدته قد تبدل متخلياً عن فتوته وامسى كهلا ،فعرفته على الفور ، ولقد كان عمرها لايتجاوز الثانية عشرة حين كانت عائدة الى البيت ، وكانت آنئذ عتمة المساء بدأت بالانسياب في الطرقات ، وعندما وصلت قرب المنزل المتهدم المهجور ، اعترض طريقها رجل كهل ، وأمسك يدها بقسوة ، وقال لها بصوت مبحوح :

— سأقتلك اذا صرخت .

وجرها بسرعة الى داخل المنزل ، وعراها من ثيابها وكان نهداها وقتئذ فجين ،ولكن لحمها ناعم مكتنز ، وكان جسد الكهل له رائحة حريق منطفىء . ورمقت سميحه الرجل الكهل بلهفة فقد عاد إليها اثر انتظار مديد ، ورغبت بأن تترع نحوه ، وتلقي رأسها على صدره ، ولكنها سمعته يقول لها ، سأقتلك اذا صرخت ، ولم تقاوم انما كانت مسحورة بالحنو العجيب المنهمر في أعماقها ، وظلت مستلقية على ظهرها منتظرة جسد كهل له رائحة حريق منطفىء .

وتصاعد من جديد صراخ المعتوه ، وحاولت سميحه المستلقية على الأريكة تجاهله ، غير ان الصراخ استمر يتعاظم ويزداد ضراوة فلم تستطع الصمود،فهبت واقفة ، وهرولت نحو النافذة ، وأطلت على الزقاق ، فوجدت المعتوه مازال قاعداً على الأرض، وكان يقاوم الحلاق والبقال اللذين يحاولان تضميد رأسه وربطه بقطعة قماش بيضاء بينما تحول صراخه الى عويل حيواني شرس .

ولم تحاول سميحه الرجوع الى الاستلقاء على الاريكة وكان بمقدورها عندئذ العودة والاختباء في المنزل المهجور حيث عتمة المساء والرجل الكهل .

وحدقت الى المعتوه الذي كان يتمرغ على الأرض محركاً ذراعيه ورجليه . وأحست ان الرجل الكهل رحل وهو يحتضر في مكان ناء . وتمنت لويتحول المعتوه الى طوفان من المدى يجتاح جسدها ممزقاً لحمها على مهل ثم يتركها وجهاً لوجه مع الرعب الهرم .

وعادت سميحه الى التمدد على الأريكة ، وأطبقت جفنيها ، ستكون ذات يوم وحيدة في البيت ، وستغري المعتوه بالدخول ، وستتعرى من ثيابها دون خجل وستعطي نهدها لفم المعتوه ، وستضحك ثمة حين يحاول قضم حلمته ، وستطلب منه بصوت لاهث ان يعض لحمها او يغرس أسنانه فيه حتى ينبثق منه الدم ويلطخ شفتيه، وعندئذ ستلعق بلسانها شفتيه بكثير من الضراوة والحنان .

وتوقف الفأس لحظات عن الانقضاض ، ثم سمع صوت وقوع شجرة الليمون وارتطامها بأرض باحة البيت في ضجة مالبثت أن اضمحلت .

وابتسمت سميحه اذ تذكرت القمر فلن يرعيا مطلقاً بعد أن شاهدت وجهه بلا أقنعة .

التعليق

تحاول القصة ان تلتقط لحظة الوعي الأولى للرغبة الجنسية في اعماق امرأةشابة. ويحق للكاتب ان يعتبر نفسه ناجحاً اذ استطاع أن يصوغ هذه التجربةالنفسية الخالصة في قالب مادي ملموس ما . فالبطلة سميحة لاتمثل ظاهرة عادية مألوفة أومشكلة عامة. بل انها شديدة الوفاء لمنطق تجربتها الخاصة ، الا أننا من خلال تجربتها الفردية نتلمس مشكلة الجنس عموماً في الشرق العربي . وهكذا تمثل سميحة مشكلتها الخاصة ومشكلة

بنات جنسها على حد سواء . لقد كان الجنس بالنسبة للمرأة الشرقية لعصور خلت ، ولايزال ، تجربة غامضة قد لاتنكشف حتى بعد الزواج . ولولا تدخل ظروف من النوع الذي توضحه هذه القصة ، فان المرأة الشرقية قد تتزوج وتنجب دزينات من الاطفال وتحدث بناتها البالغات عن الزواج وترشدهن الى الحد الأدنى من الفنون الجنسية الضرورية لارضاء أزواجهن ، دون ان تكون قد خاضت تجربة جنسية حقيقية ، وذلك كما نستشف من بعض التلميحات في القصة .

في الحالة الخاصة التي بين ايدينا ، تبلغ المرأة لحظة وعيها الجنسي بعد الطلاق فهي تنقاد تدريجياً الى بلوغ هذه اللحظات الحاسمة نتيجة تضافر عوامل داخلية وخارجية على حد سواء . فحتى هذه اللحظة ، كانت رؤياها للرجل تتركب من عناصر الرجال الثلاثة الوحيدين الذين عرفتهم في حياتها ، الأب القاسي الذي يهال عليها ضرباً وهي في العاشرة لأنها كشفت عن ساقيها ، والزوج الذي لم يستطع تحمل برودها الجنسي فطلقها ، والكهل الذي اغتصبها وهي في الثانية عشرة . اننا لانتوقع من فتاة بمثل هذه التجربة أن تشعر برغبة جنسية حقيقية ، هذا إذا شعرت بها أصلا ، ولذا كان على الكاتب أن يستحضر مجموعة من العوامل المختلفة .

أن يقطع الحطاب شجرة الليمون . ان لهذه الحادثة الرمزية المهمة تأثيراً مزدوجاً . فهي من جهة ترمز الى الانعتاق من أسار الماضي ، الى انتهاء مرحلة الطفولة عند المرأة الشابة حيث أن هذه الشجرة كانت رفيق طفولتها واستمرار وجودها يمثل علاقة الطفولة المتأخرة .

ومن جهة ثانية ، فان الأب هو الذي أمر بقطع رمز الطفولة هذا ، وبقطعه تتحرر الفتاة من ارتباطها بأبيها عدو الجنس والنموذج الحي للأب الشرقي المستبد الذي يقمع فرديتها .

على ان هذا العامل لا يأخذ هذا الشكل المنطقي المكشوف اذ أن كاتباً موهوباً مثل « زكريا تامر » لا يعتمد على المنطق المكشوف في مشكلة نفسية . انه يستفيد من كل العوامل الحسية الممكنة ليس فقط عن طريق التنويه بأمر الأب بقطع الشجرة ، أو وصف التأثير النفسي لقطعها على المرأة الشابة كما قد يفعل كاتب أقل موهبة منه . فهو يستخدم ضربات الفأس التي تواكب القصة كايقاع يذكر المرأة بأن عهد الطفولة قد انقضى وان والدها نفسه هو الذي يغتال هذه الرابطة بينها . ان هذه الضربات

انما تجتث في الحقيقة الولاء المتأصل الذي كان يخضع الفتاة لعبودية أبيها ويعيق بالتالي استكمال نضجها .

الى جانب هذا العامل السلبي نوعاً ما ، هناك العامل الايجابي الاساسي وهو صرخات الرجل المعتوه الهستيرية . فهي عميقة متواترة لاتخضع للعقل ، مما يثير الغرائز البدائية في أعماق الفتاة . فالمعتوه ليس انسانا عاقلا يتعذب ، لانه لن يثير في هذه الحالة ردود فعل غريزية وانما مشاعر محددة واضحة ترتبط بالقيم الاجتماعية كالشفقة . فضلا عن ان المرأة تشعر نفسها حرة من القيود الاجتماعية عندما تتجاوب مع الصرخات الذكرية للرجل المعتوه باعتبار أنه ليس نموذجاً للرجل الاجتماعي الذي تساورها الظنون بشأنه . بل انه على العكس يعاني التعذيب على ايدي اطفال من مجتمع العقلاء . فصرخاته صرخات ذكر خالصة ، بمعنى انها لاتخضع للعقل او المجتمع ، اي لكوابح الجنس .

ويستفيد الكاتب من هذا العامل الى اقصى حد .

٣ — هناك ايضاً مشهد الدم يتدفق من اصابع الرجل المعتوه وانحاء اخرى من جسده . هذا المشهد يوحي الشابة بدم ينبثق من لحمها بعد ان يفضها الرجل بقوة. ان للدم تأثيراً حسياً حاسما بعد ان تهيأت المرأة تماماً بفعل العاملين السابقين .

٤ — ومع ذلك فان أياً من العوامل السابقة قد لايؤدي بالضرورة الى التغيير النهائي القاطع لو ان المرأة كانت في حالة وعي كامل ، ولذلك يجعلها الكاتب تستسلم لاحلام اليقظة ، فحواسها مشغولة باستمرار : الاذنان بضربات الفأس على شجرة الليمون وصرخات الرجل المعتوه ، الانف بالرائحة النفاذة لشجرة الليمون ، والعينان بمشهد الدم ينبثق من جروح الرجل المعتوه او يتجمد على شفاه رجل الحلم .

في احلام اليقظة تلك ، تشاهد المرأة الجسد العاري القوي المذكر القوي الذي اعتادت رؤيته في احلام الليل ، وينساب الحلم يرافقه الايقاع ، غير انها لاتبلغ على اية حال نهاية مرضية . فليس سهلاً على امرأة من هذا النوع ان تدفع بالحلم الى نهاية مرضية بينما يطوف شبح طفولتها حراً في لاوعيها . (وجهة نظر فرويدية) . وهكذا تنمحي صورة الرجل القوي ليحل محلها الرجل الكهل الذي يعاود اغتصابها من جديد . ويشتد الايقاع في الخارج ويقوى ، فتستيقظ الفتاة وتطل من النافذة تحدق في الرجل المعتوه

وفي الدم المنبثق من جسده ، وتستمع الى بكائه الذي بدأ يتحول الى عويل وحشي شرس . في هذه اللحظة الحاسمة ينفصل الرجل الكهل (رمز الأب والمغتصب) عن لاوعيها ليموت في مكان قصي . يتحرر جسدها ويغلي دمها بالرغبة . في اللحظة ذاتها تصبح الشابة مهيأة لتقبل الجنس بلا حرج . لقد بلغت القصة ذروتها . وتحلم سميحة بهجوم جنسي عنيف يقوم به الرجل المعتوه في الوقت الذي تسقط فيه شجرة الليمون. لقد تحررت سميحة الآن من هواجس الطفولة وانقضى خوفها من الجنس الى الأبد .

ليس من السهل ان نقف على فكرة القصة بقراءة سريعة . غير ان المرء يميل الى الشعور بعد القراءة الاولى بأن ما يمكن تسميته بالغموض في القصة هو من النوع الذي يثير فضول القارىء ويدفعه الى قراءتها مجدداً بعناية . ويشعر المرء منذ البداية ان لدى القصة ما تقوله: ان ما تنقله القصة عن الحواس مثير الا انه يهتم بالعالم الداخلي للشخصية. فالغموض اذن ليس خللاً في القصة ولكنه انعكاس لغموض العالم الداخلي الذي لايمكن شرحه بمفردات محددة واضحة . وليس امام الكاتب في الحقيقة خيار الا بالالتجاء الى المعادل الموضوعي للتعبير عن الحركة الداخلية للنفس . وليس بامكاننا ضمن حدود هذه الدراسة أن نتروى في جميع الصور المستعملة في القصة كمعادلات لمشاعر البطلة ، لأن هذا يفضي بنا الى بحث القصة بأكملها مقطعاً مقطعاً . لكن خاتمة القصة حيث يصف الكاتب التغير الاساسي في موقف المرأة النفسي من الجنس ، مثال حسن . تبدأ هذه الخاتمة عندما تتحرر سميحة من حادثة الاغتصاب التي كانت تستخدم حتى ذلك الوقت كبديل مزيف عن الجنس الحقيقي . وسرعان ماتنتقل سميحة الى مرحلة ثانية يكتنفها الغموض . ان دمها يغلي وجسدها يموج برغبة خفية عميقة لاتستطيع تبين كنهها في هذه المرحلة .. ان المعادل الموضوعي هو الوسيلة الوحيدة لربط هذه الاحساسات الداخلية العميقة الغامضة وتوصيلها الينا : « وتمنت لو يتحول المعتوه الى طوفان من المدى يجتاح جسدها ممزقاً لحمها على مهل ثم يتركها وجهاً لوجه مع الرعب الهرم » . إنها قادرة على مواجهة توجسها القديم من الجنس والانتصار عليه .

انها تحتاج الى حلم آخر لكي تقضي على خوفها نهائياً . فحسب التعليمات الفرويدية عليها ان تسترخي على مقعد مريح وترتاح . وهذا ما تفعله سميحة بالضبط . بل انها تغمض عينيها أيضاً: «ستكون ذات يوم وحيدة في البيت ، وستغري المعتوه بالدخول، وستتعرى من ثيابها دون خجل وستعطي نهدها لفم المعتوه ، وستضحك ثمة حين يحاول.

قتتم حلمته ، وستطلب منه بصوت لاهث ان يعض لحمها أو يغرس اسنانه فيه حتى ينبثق منه الدم ويلطخ شفتيه ، وعندئذ ستلعق بلسانها شفتيه بكثير من الضراوة والحنان » .

انها الآن قادرة على فهم ابعاد دوافعها . ومن خلال وصف مادي مفصل ، نتبين انها الآن حرة في ان تتخيل مفاتيح المتعة ، وان تستخلص اللذة الخاصة التي يفجرها كل مفتاح للذة في جسدها .

عند هذا الحد ينتهي بالطبع دور العوامل التي استحضرها الكاتب . تتوقف صرخات المعتوه في الخارج . انها الآن في مكان ما من العالم الداخلي للبطلة . ولم يعد الكاتب بالتالي يرى حاجة لتذكير القارىء بها ، وانما يؤكد له في النهاية سقوط شجرة الليمون بضجة سرعان ماتتلاشى . لقد تمت العملية النفسية بنجاح ، وتمت السيطرة على رواسب الطفولة ، وغدت صيحة الآن نفسها . أول مافعله صيحة بعد التحرر هو أنها تتذكر القمر (الشاهد الابدي في عالم زكريا تامر) . انها الآن قادرة على الابتسام له ، وهذا يعني أنها الآن مهيأة للاستمتاع بالجنس كامرأة طبيعية . وصار بامكان القارىء الآن ان يتركها لقدرها ، وبذلك تحقق الشعور بالنهاية .

ليس من السهل في مثل هذه القصة ان نميز بين المضمون والاسلوب بالمعنى الكلاسيكي . اذ تشكل القصة وحدة متماسكة . فنحن لا نستطيع ان نتكلم عن الصور على سبيل المثال بمصطلحات البلاغة ، اذ يتحتم علينا ان نفهم هذه الصور كبدائل لمشاعر معينة يتعذر صوغها بلغة عادية مباشرة . وتكمن قيمة هذه الصور في ايحائيتها . وهي إن لم ترق جمالياً القارىء احياناً ، إلا انها قادرة في معظم الحالات ان توصل الينا الحالة النفسية المطلوبة . فنحن نفاجأ منذ البداية بصور مثل : « وكانت رائحة شجرة الليمون تتسلل الى الغرفة وتتغلغل في الهواء وكأنها شحاذة عمياء تطرق الابواب متوسلة بانكسار . »

ان هذه الصورة قد تبدو ببساطة عبثاً محضاً اذا اخذت بمعزل عن النص . فالمقارنة غير واردة ، وليس ثمة وجهة نظر جمالية عند مقارنة رائحة شجرة الليمون بامرأة متسولة عجوز . غير ان موقفنا يتبدل نهائياً حين نعلم ان القصة انما تروى من خلال سياق تجربة البطلة التي تستمع الى ضربات الفأس على جذور شجرة الليمون وتشعر بالشجرة تنهار . ان رائحتها استجداء للنجدة . ولكن لماذا هي متسولة عمياء ؟ اننا نفهم هذا فيما بعد عندما نعلم ان شجرة الليمون كانت تستخدم كرمز لطفولة المرأة . ان رائحتها تشبه الطفولة الكامنة في زاوية مظلمة من اعماق نفسها .

والجمل أيضاً تعكس حركة القصة . فهي في البداية عادية الطول والسرعة تنساب بيسر وسهولة ، ثم تقصر وتتواتر مسرعة مع تطور الحركة الشعورية في اعماق سميحة. ويعتمد الكاتب كلية على الجمل الفعليـة القصيرة التي تبدأ بفعل ماض ثم تندرج بايقاع متسارع . هذه الجمل وان كانت تعتمد الزمن الماضي ، فذلك من زاوية نحوية لا أكثر ، اذ ان لها في القصة القوة الحية الفعالة للزمن الحاضر ، وهذا ما يقتضيه بالضبط أسلوب القصة القصيرة .

تعتبر هذه القصة قمة في تطور القصة الحديثة في سوريا . فهي بالاضافة الى بعض القصص القصيرة التي نشرت في الستينات ، تثبت ان القصة القصيرة السورية تدخل الآن ما يمكن تسميته « بمرحلة النضج » ، وذلك بعد عقود ثلاثة من التجربة والخطأ .

معنى الشكل في العمل الأدبي

خلدون الشمعة

إذا لم يكن الشكل في العمل الأدبي غاية في حد ذاته ، من أجل أن يكون وسيلة ناجعة لغاية أخرى ، فمن العسير أن نتصور ما هو . ذلك ان شكل القصة أو القصيدة مرتبط أصلاً بالوظيفة التي تشكل من أجلها ، ما دام قد كتب لقارىء في مجتمع قائم الآن أو سيقوم في المستقبل . وهذا التواشج بين الشكل وبين الوظيفة ، يؤكد على ان الاهتمام بالشكل ليس مجانياً ، وإنما هو تعبير عن الاهتمام بمـدى قدرة المبدعات على تحقيق أغراضها .

وعلى ذلك فمن الضروري التمييز بين ثلاثة أنواع من النقد :

١ ـ **النقد الشكلي** Formal Criticism أي النقد الذي يدرس العمل الأدبي من خلال شروط النوع او الجنس الأدبي الذي ينتمي اليه .

٢ ـ **النقد الشكلي الافتعالي** اي النقد الذي يحتفي بالشكل بمعزل عن وظيفته إلى حد تكريس ظاهرة الشكلية الافتعالية Mannerism

٣ ـ **نقد الموضوع** Thematic Criticism اي النقد الذي كثيراً ما يرى في مجرد وجود موضوع Theme يحبذه الناقد ، قيمة فنية في حد ذاتها ، فيبدأ بدراسة الفكرة بمعزل عن تحققها الفني .

وقد شهدنا ونشهد في النقد العربي الحديث ، نماذج كثيرة من هذا النوع الاخير من النقد ، الذي يعتبر ان توفر موضوع معين ينطوي على قيمة خاصة ، حتى في الحالات التي يكون الشكل الفني فيها رديئاً الى الحد الذي يسيء فيه الى هذا الموضوع .

كما سيطر على النقد العربي الحديث مفهوم ساذج عن الشكل ، يؤكد على معناه الوعائي المجرد بدلاً من معناه التعبيري والبنياني . فالشكل ـ حسب هذا المفهوم ـ وعاء يفرغ ويمتليء ، وليس بنياناً تعبيرياً ينطوي على فرادة تميزه عن الأشكال الاخرى ، كما تميز عملاً فنياً عن الأعمال الفنية الأخرى .

إن القصيدة ، أو القصة ، شكل بنياني له سقف وجدران ونوافذ وأبواب ودهاليز داخلية وحديقة ، واذا ما خيل لبعض النقاد انه يمكن دراسة القصيدة عن طريق دراسة المخطط الهندسي لهذه القصيدة ، فانهم بذلك يغفلون حقيقة ان الشكل في العمل الادبي هو التعبير البنائي وليس المخطط الهندسي .

فالشكل ليس الرموز ، وانما هو التعبير الكلي بالرموز . واذا كان بوسع الناقد ان يتخيل ، فيما هو يبسط امامه المخطط الهندسي لقصيدة متميزة ، ان بوسعه الانتقال من الحديقة الى السطح المشرف على الحديقة دون صعود الدرج ، فانه بذلك يهمل معنى الشكل من حيث ارتباطه بالوظيفة .

* * *

ان الاستجابة النقدية للقصيدة، لايمكن ان تتحقق تحققاً نموذجياً الا من خلال الاستجابة لعناصر :

أ ـ التوازن

ب ـ الوحدة

جـ ـ الاستمرار

وذلك كما يفرض هذه العناصر شكل القصيدة الشعري . وهذا يعني ان في القصيدة (ممرات اجبارية) على الناقد أن يجتازها لكي يستجيب للقصيدة الاستجابة النموذجية التي تعتبر شرطاً قبلياً من شروط العملية التقويمية .

ذلك ان شكل القصيدة هو ـ بمعنى من المعاني ـ طريقة قراءتها . واكتشاف طريقة قراءة القصيدة هو اشبه شيء بمحاولة العثور على قطار ذي اتجاه واحد . ان القارىء حر في أن يركب القطار ، او ألا يفعل ذلك ، انه قادر على ممارسة حريته في أن يقرأ القصيدة ، او يعدل عن الأمر . الا انه لا يعود حراً عندما يختار الصعود الى القطار . فثمة سكة حديد خاصة بكل قطار شعري ، والشكل الشعري لقصيدة ما ، هو منطقها الخاص ، بناؤها العضوي الذي يستسلم القارىء المثالي له دون أن يعي ذلك مباشرة :

فنحن نبدأ من القصيدة ، الا اننا ننتقل دون وعي ـ ونحن أسرى لمدارها البنياني الخاص ـ الى مفهوم محدد للشعر ، كما تبلور في تقاليد الامة الشعرية .

وهكذا فان الناقد سرعان مايمد جسراً بين الشكل الشعري وبين الاشكال الشعرية الاخرى التي اصبحت جزءاً من نظرية النقد الخاصة بأدب الأمة .

وكثيراً مايؤدي ارتفاع هذا الشكل الشعري ، او عمقه ، او اتساعه ، الى تعذر مد جسر يصله بالأشكال الشعرية في التراث .

وهنا تتجلى صعوبة التوصيل التي تعاني منها الاعمال الطليعية في الادب .

غير ان الناقد لا بد أن يحاول مد جسر آخر يصل الشكل البنياني للقصيدة ، بالجنس الادبي الذي ينتمي اليه . ذلك ان الشكل هو القصيدة في العمل الأدبي . فاذا كان الادب تعبيراً فان الشكل هو التعبير مجسداً ببناء متكامل من الكلمات والصور والرموز . وليس امامنا من حقيقة موضوعية تتعلق بالقصيدة او القصة غير تشكلها العضوي .

وقد جرت العادة لدى بعض النقاد العرب على اعتبـــار الشكل مظهراً خارجياً . فكأنه قشرة الموز التي تغلف الثمرة من الخارج ، غير ان مشكلة العمل الأدبي هي ان مظهره هو جوهره .

إذ ليس لدينا من حقيقة حسية تتصل بالقصيدة أو القصة ، إلا الحقيقـــة المعبر أو المفصح عنها ، فالأدب بيان. والمضمر في الأدب يظل مضمراً ما لم يتجسد في شكل معلن . تماماً كما ان الصامت لا يصبح موجوداً إلا عندما يصبح صاتتاً .

وما دام الشكل نظاماً للعلاقة بين الكلمات وبين الرموز ، فان كلماتــه ورموزه لاتكتسب معانيها المتفجرة إلا من خلال موقعها في منظومة الشكل البنياني . ولهذا فان الكثير من نماذج الشعر المعاصر ينطبق عليه الافتراض النقدي القائل بأن القصيدة تعين (Determine) ولا تشير (Refer) . أي أنها تعين حقيقة فنية من صنعها ، حقيقة ممكنة ، ولا تشير الى حقيقة عينية في الطبيعة .

يقول الشاعر « عبد الوهاب البياتي » في قصيدته : « عيـــن الشمس أو تحولات محيي الدين بن عربي في ترجمان الأشواق » :

« أحمل قاسيون
غزالة تعدو وراء القمر الأخضر في الديجور ..
ووردة أرشق فيها فرس المحبوب .. » (١) .

ان ذكر الشاعر للقمر الأخضر معرفاً لايعني أنه يشير إلى قمر أخضر موجود في السماء ، وانما هو يعين ويحدد وجود قمر أخضر سرعان ما يجعله معرفاً ، لأنه القمر الأخضر في قصيدة « عين الشمس » بالذات . وهو حين يخضعنا لسيطرة الشكل الشعري الآسر لقصيدته الرائعة ، فانه بذلك يلزمنا باستكناه منطق ونسق ونظام ما أن نضع أيدينا على مفاتيحه حتى نصبح تحت سقف عالم جديد .

إن استقصاء ، وسبر ، وتحليل ، وتقويم المبدعات من خـــلال شروط الشكل

(١) من ديوان « قصائد حب على بوابات العالم السبع » — للشاعر عبد الوهاب البياتي ص ١١ .

والجنس الفني الذي تنتمي اليه ، هو أساس الحركة النقدية التي أطلق عليها اسم « النقد الجديد » . وقد ظهرت هذه الحركة في فترة الثلاثينات على أيدي كل من« ر.ب.بلاكمور » و « جون كرو رانسوم » و « روبرت بن وارن » و « كلينث بروكس » الذي طبق آراءه النقدية على عدد من أبرز القصائد في الأدب الانكليزي بدءاً من العصر الاليزابيثي حتى الوقت الحاضر ، وذلك في كتابه الشهير : « الآنية المتقنة الصنع ، دراسات في بنيان الشعر » (١) .

إن « بروكس » يحاول في هذا الكتاب الهام ، أن يكتشف قراءة للشعـــر غير القراءة التاريخية ، أي أنه يبحث عن منهج غير المنهج النسبي الذي يعيد القصيدة الشعرية الى رحمها التاريخي . وهو يحذر قائلاً من أن محاولته لاتعني الاستهـــانة بمنجزات المنهج التاريخي في النقد ، وانما هو يتوق الى بلورة منهج يسعى الى فهم القصيدة كقصيدة .

ولهذا فان حركة « النقد الجديد » كانت توصف أحياناً بأنها حركة نصية ، تعتبر العمل الأدبي كلاً مستقلاً بمجرد أن يتم إنجازه . وبذلك فهي تستخدم النظرية الموضوعية في الفن بهدف اكتشاف القيمة الداخلية والصميمية والجوهرية للأدب ، والتأكيد على قيمة القارىء الجاد وقدرته على إدراك سلسلة العلاقات الداخلية للشكل البنياني في العمل الادبي دون الاتكاء على عناصر غير أدبية

والواقع ان المنهجين التاريخي والنفسي في النقد ، قد بالغا في عملية دراسة العوامل المحيطة بظاهرة الابداع ، وأهملا في أحيان كثيرة ، العمل الأدبي نفسه . وبالمقابل فان مايسمى بالنقد البلاغي لم يتناول المبدعات الادبية من خلال خصائص الاجناس الادبية التي يمكن إرجاعها إليها . بل إنه كثيراً ما أهمل وظيفة الجنس الادبي والشكل الذي ينتمي اليه . « فعلى الرغم من أنه أصبح واضحاً للجميع أن القصيدة لم تكتب كما اتفق ، فان دراسة الشكل قد عانت الكثير من الاهمال . ومع ذلك فان دراسة عابرة لقصيـــدة أو قصيدتين ، قمينة أن تقنع بأن ثمة تصميماً منظماً ، وتنسيقاً ينطوي على دلالة ، للأفكار والصور ، وأساليب التعبير ، بحيث ان موضوعاً قد تحقق وتكامـــل ، وبحيث ان كل

Brooks , cleanth , The well wrought Urn : (١)
Studies in the structure of poetry , 1948

سطر في القصيدة يعمل من أجل نتيجة ذات أثر . . » . (١)

إن القصيدة بهذا الاعتبار ، هي القصد أو الغاية ، من أجل ان تكون وسيلة ناجعة لغاية اخرى . ومن هنا فان دراسة القصيدة كغاية ، هي بمعنى من المعاني ، سبر لمدى ما تنطوي عليه من امكانات الوسيلة الناجعة .

فالقصيدة مضمون متجسد في شكل ، وليس امام الناقد الأدبي غير المضمون المعلن ، أي الشكل ، ذلك انه لا يوجد في الفن من فكرة يمكن فصلها عن الشكل ، باعتبار اننا لا نتحسس من الفكرة سوى بيانها ، أي تجليها ، أي شكلها البياني .

وبالطبع فان هذا التحسس لا يعني الفصل بين الشكل والمضمون ،وإنما يؤكد على ان الشكل هو الغاية مادام سيكون الوسيلة لغاية أخرى تتصل بالمجتمع. وقديماً ألح أرسطو على ان كل غرض في الطبيعة يتألف من المادة والشكل أو الصورة . وهكذا ففي التمثال :

« قد تكون المادة صلصالاً والشكل لزيوس . المادة هي التي تجعل التمثال شيئاً مكانياً وزمانياً خاصاً . والشكل هو الذي يمنحه خصائصه. ولكن في الوقت الذي يمكن أن نميز فيه بين المادة والشكل على نحو منطقي ، فانها لايوجدان منفصلين .

الصلصال لايمكن أن يكون كذلك ، دون شكل ما .. و (زيوس) لايمكن أن يقال انه موجود ما لم يكن مجسداً مادياً . وهكذا فالشكل (القانون ، العلاقة، النوعية) ، يمكن أن يوجد كشكل لشيء .. »(٢) .

---

(١) للتوسع في هذه النقطة انظر :
Gurrey, The Apreciation of Poetry, 1935, P . 97

(٢) انظر : Randall and Buchlen,
Philosophy : An Introduction, 1942 , P . 196

ومن الطبيعي ان ثمة أعمالاً فنية يحتل فيها المستوى الشكلي البنياني حيزاً يخل بالعلاقة بين الشكل والمضمون . غير ان هـذا الخلل لا يجعـل العمل شكلياً وإنما يخل بأحد عناصر الشكل وهو الانسجام . وبالتالي فان هذا الخلل هو دليلنا الحسي على اضطراب المضمون ، وبهـذا الاعتبار يصبح مضمون عمل فني ما هو شكله نفسه .

وقد اعتقد شعراء حركة الشعر الصوري (الايماجيزم) ، وعلى رأسهم الشاعر (عزرا باوند) ان ثمة مضامين مائعة ، ومضامين صلبة ، وان بعض القصائد قد يكون لها شكل ، كما ان الشجرة شكلاً ، وبعضها كالماء الذي يسكب داخل آنية للزهور .. » .

وكان (باوند) يردد دائماً قول Everets بأنه ليس ثمة في العمل الفني من فكرة يمكن فصلها عن الشكل .

ولكن ما هو الشكل الجيد في الفن ..؟.

ان بلورة نظرية في القيمة من خلال وظيفة الشكل ، لاتكفي للاجابة عن هـذا السؤال . بل ان مد جسر يصل بين شكل عمل ما وبين أشكال اخرى اصبحت جزءاً من التراث المحلي أو العالمي انما يسهل مهمة التقويم ويضع امامنا نماذج للقياس . ومن المؤكد انه مهما كان الناقد حذراً في اصدار أحكام القيمة ، فانه بهذا يقوم بعمل انطباعي أولاً ، ثم يتبعه بالاجراءات النقدية التي قد تسلك منهجاً علمياً في التحليل والتعليل . غير ان وجود مستويات متعددة لقراءة أي عمل فني متميز ، هو الذي يجعل الناقد فناناً يستخدم المنهج العلمي ، ويجعل النقد فناً يستخدم العلم . فنحن نتأثر أولا ثم نبحث عن التعليل المنهجي على نحو علمي .

ويبدو ان من المتعذر تقريباً ، القول بأفضلية شكل على شكل آخر ، اذا لم نجد أساساً للمفاضلة بينهما . ويرى (هربرت ريد) في كتابه (التربية عن طريق الفن) ان أساس المفاضلة هذا هو توفر شروط يمكن القول عنها انها :

« بوجه عام ، تلك الشروط التي تعطي المتعة لحواسنا ، ونعني بذلك تلك الشروط التي تمنح المتعة لا لحاسة واحدة فقط بل لحاستين أو أكثر تعملان معاً ، كما تمنحها للعقل وهو المركز الذي تتجمع فيه كافة حواسنا . ومنا

تبدأ المشكلة . اذ ان مايمتع شخصاً من الاشخاص لا يمتع بالضرورة شخصاً آخر ، بل اننا نذهب الى حد القول بأن غذاء شخص من الأشخاص قد يكون سماً لشخص آخر ، ومن ثم فعلينا أن نجد مقياساً بعيداً عن النزوات البشرية ، والمقياس الوحيد لذلك كائن في الطبيعة . ونقصد بكلمة الطبيعة عملية الحياة ، والحركة العضوية بأ كملها التي تسير في الكون ، وهي عملية تشمل الانسان ، ولكنها لاتكترث بنزواته ، أو تأثراته الذاتية ، أو تغيراته المزاجية .

« غير ان الطبيعة من الضخامة والتنوع بحيث يبـــدو لأول وهلة انه من المستحيل تمــاماً اختيار معالم عامة يمكن اتخاذها مقياساً لشكل الاشياء التي نصنعها . وفي واقع الأمر لم يبحث الفنانون عن مثل هذا المقياس وانمــا أحسوه ووجدوه بالفطرة . واني اذهب الى ان الاشكال الأولية التي يعطيها البشر لأعمالهم الفنية هي نفس الأشكال الاولية الكائنة في الطبيعة .. »(١) .

ومن الناحية العملية تبدو محاولة (ريد) في اتخاذ الأشكال الطبيعية أساساً تقويمياً للاشكال الفنية ، قائمة على الافتراض بأن الفن محاكاة . غير ان الخلق الفني لاينسجم في بعض نماذجه مع هذا الافتراض . فبعد أن كان الفن العظيم هو الذي يقترب من الطبيعة الى الحد الذي لايشعر المرء معه بكونه اصطناعياً ، أصبح الفن الحديث يؤكد على الجانب غير الطبيعي .

ولعل في الشكل البنياني لرواية « يوليسيس » لجيمس جويس ، الذي قيل أنه محاولة لترجمة شكل الآلة الى الأدب ، مايؤكد على نهج الأدب الحديث نهجــاً مضاداً للطبيعة ، وعلى هذا فان تقويم الشكل لابد أن يرتبط بوظيفته ، أي بقدرة هذا الشكل على التأثير . واذا كان المنظرون من النقاد قد انقسموا منذ القديم الى فريق اهتم بطبيعة الأدب فاتجه نحو النظرية الشكلية ، وآخر احتفى بوظيفة الأدب فاتجه نحو النظرية الأخلاقية ، فان التراث الأدبي يفصح ، خلافاً لذلك ، عن حالات كثيرة يتجلى فيها التواشج بـين طبيعة الأدب وبين وظيفته الاجتماعية . ذلك ان الشكل الفني بعلاقاته الداخلية المحكمة ، وحسن توزيع الاضاءة فيه ، وتجلي عناصر الانسجام والاتساق والوحدة ، إنما يسهم

---

(١) انظر فصل « تعريف الفن » من كتاب (هربرت ريد) ـ ترجمة د. ابراهيم إمام و مصطفى الارنؤوطي ، ١٩٦٢ ، ص ١٢ .

في ايصال المضمون الاخلاقي على نحو أفضل مما يفعله شكل آخر أقل تحقيقاً لهذه العناصر .

يقول « كولردج » : « ليس ثمة مايمكن أن يمتع باستمرار ، اذا لم يكن يحتوي بذاته على السبب . . »

وبهذا فهو يربط بين وظيفة الأدب وبين طبيعته . وإن سبر الشكل الأدبي ولعناصره التكوينية بالمسبار النقدي ، انما يعني في الوقت نفسه التعرض لدوره ومدى تحقيق هذا الدور .

والقصيدة الحديثة تحاول بواسطة تقديم بناء متميز من الصور أن تقوم بهذا الدور التأثيري ، اما عن طريق « الشكل التراكمي » أي حشد الصور وترتيبها على نحو يذكرنا بالمونتاج السينمائي ، أو بواسطة « الشكل التكاملي » أي الشكل الذي يهتم بوجود نوع من المنطق السببي الترابطي في العلاقات بين مختلف عناصر العمل الفني .

غير أنه لايوجد شكل يماثل شكلاً آخر . وقد حاول بعض النقاد التأكيد على أننا اذا سلمنا بأن الأسلوب هو الرجل ، فان الشكل هو مجرد علاقات محايدة تشكل منطق العمل الفني . ولكن الحديث هنا لايميز بين مفهوم الشكل كشيء مجرد وبين شكل معين هو التجسيد البنياني لمضمون معين ، فمن الواضح ان مفهوم الشكل شيء مختلف تماماً عن شكل قصيدة معينة . وبهذا الاعتبار فان كل شكل يعبر عن مستوى متفرد من العلاقات والنسب ، وحدة وانسجاماً واتساقاً واستمراراً .

واكتشاف هذا المستوى المتفرد يؤدي مراعاةً الى وضع اليد على مفاتيح القصيدة ، وبالتالي الى تحطيم مغاليقها ، واذا كان النقد التقويمي — على حد تعبير أحد النقاد — يعتمد على « المشعل والصولجان » أي يقوم على وظيفة الاضاءة والتفسير التي يرمز لها بـ « المشعل » و وظيفة الحكم والتقويم التي يرمز لها بـ « الصولجان » فان القدرة على اضاءة وتفسير نسب العلاقات الداخلية وتدرجاتها في الشكل الأدبي ، هي السبيل الى الحكم التقويمي .

لقد كان تحويل أحكام القيمة « الوصفية » الى أحكام « معيارية » من المعضلات الرئيسية التي واجهت النقد الأدبي الحديث زمناً غير قصير . وكان على النقاد ان يبحثوا بحثاً نظرياً عن الأساس الذي يمكن ان تتم بموجبه عملية التحويل هذه . ولكن أي تناول

نقدي جاد لأبرز المُبتدَعات الأدبية في التراث المحلي والعالمي ، لابد أن يكشف بجلاء ، اننا حتى في الشكل الجمالي المجرد [وهو شكل لاوجود له على الصعيد العملي] فان الوظيفة الاجتماعية للشكل تبدو ماثلة للعيان .

وإذا كان ما يفهم من الشكل، المخطط الهندسي لبناء ما ، فلا شك ان هذه النظرة الى الشكل تجانب الحقيقة الى حد كبير. ذلك ان وضع هذا المخطط أمام الناقد — كما سبق أن أسلفت — لا يوضح طبيعة العلاقات بين مختلف عناصر العمل الفني وإنما يرسم مخططاً تبسيطياً لهذه العلاقات .

والاستجابة النموذجية للمبدعات الأدبية تشترط أولاً إدراكاً حسياً للشكل ، أي القدرة على الإذعان لنسق تطوره ، ونظامه الداخلي ، وبنائه ، وطريقة تعبيره . وبهذا الإذعان الذي يبدأ طوعــاً ثم يستحيل إلزاماً ، تنتظم تجاربنا ، وتصقل ، وتنسق ، وتحشد على قنوات مختلفة من الوعي ، وتوزع على نحو هارموني متسق ، ومن ثم تتم الاستجابة التقويمية لكلية العمل الفني .

إن الشكل هو جماع التقنية والأسلوب .

وبالتالي فانه يتألف من العناصر الواقعية المتواشجة التي يتحقق بها العمل الفني .

وإذا كان الشكل مظهراً يعبر عن جوهر ، فليس ثمة من مادة يتناولها الناقد غير هذا المظهر الذي يبدو في التحليل الأخير، الجوهر نفسه . ذلك ان الأدب بيان وإفصاح وتعبير عن المضمر . وبهذا الاعتبار فان أدب عصر الانحطاط لم يكن أدباً شكلياً وإنما كان أدباً نمطياً أقرب ما يكون الى (المانرزم) أو الشكلية الافتعالية .

ولم يكن الشكل آنذاك اكتشافاً شخصياً في كل عمــل ابداعي ، وإنما كان وعاء مشتركاً يتكرر على نحو مقطوع الصلة بالوظيفة الاجتماعية .

وفي ادراك الشكل باعتباره غاية حتى يتمكن من أن يكون الوسيلة الأفضل لتحقيق غاية أخرى ، يكمن معناه التعبيري الصائت والمنبثق من طبيعته الإنسانية .

ظواهر

في تغير الحساسيات الأدبية في السبعينات

محيي الدين صبحي

الاعتراض الذي قد يثور في الذهن للوهلة الأولى هو ان المرء لايعالج حقبة زمانية الا عند منتهاها كي يتسنى له أن يشرف على امتداد الفترة بأكملها لاسيما وان الناقد يظل على خشبة السلامة طالما ظل متمسكاً بالنصوص لايغادرها الى لج النبوءة .. فكيف يتحدث عن السبعينات ولما ينصرم عنها غير عامين يكادان لايشيان بملامحها ؟ في الواقع ان أية فترة في تاريخ الأدب يمكن أن تحدد تحديداً أدبياً بحسب نسق من الضوابط والمقاييس والأعراف الأدبية التي يمكن تقصي دخولها وانتشارها وتنوعها وتكاملها وتلاشيها —

أو تحدد تحديداً تاريخياً بحسب وقائع اجتماعية أو سياسية لاتستطيع الا فئة من عمر معين أن تجرب خلالها حوادث هامة كحرب حزيران أو التحويل الاشتراكي أو قيام الوحدة. ومن المؤكد ان المقياس الأخير يحمل كل معايب المقاييس السياسية في تاريخ الأدب . ولكن ما حيلتنا ونحن في مرحلة يصنعنا فيها تاريخنا ولا نصنعه ؟ اذ لو أن باحثاً تقصى الانواع الادبية السائدة فيما تتضمنه من صور وأفكار وانفعالات ومواقف لوجد أنها جميعها تدور حول مصير الانسان العربي والواجبات المترتبة عليه تجاه العصر والمرحلة والحياة المتقدمة المنشودة . فنحن الادباء العرب لانتمتع بحق فهم الزمان كجريان ، ولا بترف النظر الى الحياة الأدبية كتوسان بين الاعراف الأدبية . لقد حددت الأقدار السياسية مراحل حياتنا الأدبية تحديداً قاسياً ، فكان أدب النهضة أدب المناداة بالتحرر من الاستعمار التركي ، وكان الأدب الوطني أدب التحرر من الاستعمار الاوروبي ، وكان أدب ما بعد الاستقلال في المشرق العربي محدداً فيما بين النكبة والنكسة من سنوات : أفلا يمكن تحديد أدب النكسة بحدود السبعينات ، على أمل أن ينجلي الصراع بين الحق العربي والبغي الصهيوني عن قدرة العرب على توحيد صفوفهم وانتزاع المبادرة من القوى الدولية لتقرير مصيرهم في القرن الواحد والعشرين بأيديهم ؟ غير أني لن أقرع اسماعكم بما تعرفونه من أدب يعالج النكسة ندباً أو ندبة ، اذ يمكن أن نلحق ذلك بأدب النكبة على الرغم من امكان تميزه عنه بميزة كأظهر ما تكون ظاهرة أدبية ، هي ميزة الشمول. فاذا كان أدب النكبة يتخذ محوراً له قضية فلسطين واسترجاع الأرض الموعودة فان أدب النكسة يتصدى للحياة العربية من مختلف جوانبها وفي شتى ظواهرها ، فهو يعالج الحياة السياسية مثلما يتعرض للاوضاع الاجتماعية ، وهو يلتفت الى التاريخ بالنقد القاسي ذاته الذي يوجهه للمذاهب والافكار التي تسود نشاطنا العقلي . لقد نشأت في الادب حساسية لاتقتصر على الرفض العنيف للماضي وانما تشمل أيضاً تقليب امور الحاضر على سقود الهجاء حيناً والتهكم المرير تارات اخرى . ومن المؤكد ان الادباء الذين يعرفون مالا يريدون ولا يعرفون ما يريدون هم جيل نشأ في اوائل الخمسينات ولا يزال مستمراً ، الا ان التنويعات على هذا الصنف الرئيسي تتكاثر في السبعينات بحسب تمايز الوعي والاصول الاجتماعية والانتماء الايديولوجي دون ان يؤدي ذلك كله الى نمو نوع من الانواع الادبية نمواً يدل على اقبال احدى الطبقات الاجتماعية عليه وتشجيعه باعتباره تعبيراً عنها ، وهذا كله يجعل موضوع الحساسية أمراً شديد الحرج ، مادامت الحساسية رجراجة من جهة ، وما دام ، من جهة أخرى ، لايمكن تتبع ظواهرها الا من جانب واحد ، هو

جانب الادباء فقط . أما الجمهور فهو اما أنه في قسم منه مثقف واما أنه في القسم الآخر منه جاهل لا أحد يعرف ماذا يريد . صحيح ان الناس في كل مكان من الوطن العربي تناقلوا قصيدة نزار قباني « هوامش على دفتر النكسة» كأول رد فعل من شاعر شهير على الهزيمة القومية غير ان المجال الحق لتأثير القباني في الحساسية الاجتماعية هو مجال العواطف الفردية ، وهنا نقرأ لهذا الشاعر في حقل الانفعالات الخاصة بيتين ربما كانا غريبين في نتاجه المعروف . فهو يقول :

ان كان لا يمكنك الحضور ياحبيبتي
لأي عذر طارىء ...
سأكتفي بالرائحة ..
ان كان لا يمكن أن تأتي غدا
لموعدي ..
اذن تعالي البارحة ..

ليست المفاجأة ونضارة التعبير وحدهما يستوقفاننا ،وإنما تستوقفنا أيضاً تلك الروح المتسامحة وذلك الأفق الرحب في محبة تغمر أبعاداً لا يتسع لها قلب نزق كالذي نعرفه من قلب نزار الدموي المتنقل . وإذن فكيف جرى ذلك القول على لسانه ؟ من المعروف ان قراء الشاعر يتراوحون بين ان يكونوا من الرأسمالية العربية الكبيرة إلى البورجوازية بكل تدرجاتها . لقد عبر الشاعر عن تفتح هذه الطبقات وقاد تطلعاتها نحو التحرر والفرح ،وابلغ ظني انه بهذين البيتين لايعبر عن نضجه الشخصي فقط بقدرما يعبر عن بلوغ بعض صنوف هذه الطبقات درجة من النضج العاطفي والتسامح الخلقي في السلوك والتفكير الاجتماعي؛ طبعاً نحن لا نؤمن بأن الفن تعبير عفوي عن انفعالات الفنان مثلما إننا لا نؤمن أيضاً بأن الفنان وسيلة مباشرة للتعبير عن المحيط وعن المجتمع الذي يعيش فيه ، أو الطبقة ، غير ان الفن يظل تعبيراً عن المحيط فاعلاً ومنفعلاً به ، ويظل من الواجب في أي تاريخ للحساسية الأدبية ان ندرس اتجاهات الكتاب حسب صلاتهم بمشكلات مجتمعهم وعصرهم ومواقفهم المتغايرة منها ، مثلما ندرس الطريقة التي تدخل بها الأفكار الى الأدب ، منعاً للخلط المألوف بين الفكرة والتجربة ، وبين وظيفة الفلسفة ومهمة الفن في المجتمع . ونحن في حكمنا على ان البيتين السالفين يعبران عن نضج اجتماعي أكثر منه نضجاً فردياً انما نؤسس حكماً على الحساسية دون أن نتخلى عن الاستنتاج،فقلما استطاعت الحساسية أن تبلغ القوة النقدية المعروفة الا بتقبل مقدار معتبر من التقرير النظري التعميمي . كذلك فان حكماً معللاً في شؤون الأدب ليس له أن يصاغ الا على أساس شيء من الحساسية الفورية أو المولدة . غير أننا لابد أن نستند في حكمنا على ضوابط ومعايير تمنع ارسال الاحكام جزافا باسم الحساسية ، وان كانت هذه المعايير يجب ان تقوم بالضرورة

على نظرة شاملة للمرحلة وروح العصر بغية استكشاف الخطوط العامة التي يسير عليها النتاج الأدبي مع التحفظ الرئيسي بان الشواهد التي نوردها هي امثلة وليست براهين .

قلنا ان مسألة التاريخ العربي والرجوع الى احداثه تشكل احد الخطوط الرئيسية في ملامح أدب السبعينات . وقد كان الشاعر سليمان العيسى في أواسط الخمسينات قد بعث من التاريخ العربي شخصية أبي ذر الغفاري كواحد من اوائل المناضلين العرب في سبيل العدالة الاجتماعية غير ان الشعراء الآن يعودون من التاريخ العربي الى أكثر زواياه اشكالاً في الصراع الداخلي والطبقي والمذهبي: انهم يقفون عند علي وبنيه، ويقبلون مواقفهم على وجوهها، ويحملونها ماتحتمل ومالا تحتمل. غير أن من اطرف القصائد التي تصدت لهذا الموضوع قصيدة بعنوان «اعترافات الحسين بن علي» لشاعر سوري يشق طريقه باصرار، هو فايز خضور . من الاعترافات التي يضعها الشاعر على لسان البطل لن نقتبس غير اعترافين منها يوضحان رؤية الشاعر للحادثة كتاريخ وتطلع الى المستقبل ايضاً . يقول الشاعر :

ظلمتني عائشة
حين ظنت أنني اومن بالغيب وادعو
للامامه
كنت ادعو لمصير عربي
يمنح الكون سلامه
لا لعرش دموي

هذه رؤية تاريخية قومية لجوهر الصراع في فجر الدولة العربية الناشئة ، لاتشبه فيما أعلم كثيراً من الرؤى الاخرى التي تعرضت لمعالجة ذاك الصراع الذي ترك أثره على تاريخ العرب كله . ثم يقول:

كنت اداوي حزني ، مرضي ،
بالصحراء
لم احلم يوما بالبرده ..
لكن ينمو غضبي ، رفضي، فرحي،
آن يقال :
اضطرمت حرب الرده ..
لأقوم بالسيف العربي
الرأس المنحور العلوي مع الراس
الأموي
ولأصلب في ليل السجناء

فالحسين يقف ضد شيعته وضد خصومه في رؤيا تاريخية ـ مستقبلية تتطلع الى زعيم قومي لايقوم فقط بتصحيح الاخطاء القديمة وانما يقترح ايضاً بداية جديدة لأمة تستغرقها التناقضات ـ فتغرق فيها دون أن تلتفت الى ماحولها وما وراءها من خطر محدق مهلك.

فاذا وسعنا قليلا من حقل الرؤية التاريخية ودققنا فيها من خلال منظور حضاري أكثر

شمولاً من المواقف السياسية والمذهبية المباشرة، طالعتنا الاقاصيص التاريخية التي يكتبها القصاص زكريا تامر بتهكم جارح وسخرية مريرة. ان زكريا تامر لا يهتم بالتحقق التاريخي للشخصية المنتخبة لأنه لايهتم ببعث الماضي ولا تمجيده، لكنه يحاكم الماضي على ضوء المفهومات العربية المعاصرة فيتهاوى الماضي العربي المجيد بين يدي هذه المفهومات، ولا يسترد هذا الماضي المجيد اعتباره الا حين ينتصب ليحاكم الحاضر.. فبأية مهارة يستطيع هذا القصاص أن يحقق سلسلة المفارقات تلك؟.

في قصة « الذي احرق السفن » يساق طارق بن زياد الى المخفر حيث يبدأ الشرطي باستجوابه في الحوار التالي :

— طارق بن زياد .. انت متهم بتبديد اموال الدولة .

— مخطئون . انا لم ابدد اية اموال.

— الست انت الذي احرق السفن ؟

— حرق السفن كان لابد منه لكسب النصر .

— لا نريد سماع اعذار . اجب على سؤالنا : هل احرقت السفن ام لم تحرقها ؟

— انا احرقت السفن ..

— هل حصلت على اذن من رؤسائك بحرق السفن ؟

— اذن ؟ الحرب تختلف عن الكلام في المقاهي والشوارع .

ولا يلبث ان يتعالى الصياح :

— انت خائن .. حرق السفن كان ضربة لقوة الوطن .

وفي قصة ثانية تساق رفات عمر الخيام الى المحاكمة بتهمة كتابة شعر يمجد الخمرة ويدعو الى شربها ... قد تقولون إن التهمة قديمة، لكن حيثيات الحكم جديدة فالدعوة الى الخمرة حسب مايقول القاضي في حكمه على المتهم « دعوة سافرة الى استيراد البضائع الاجنبية وتنفيذ لخطط مشبوه يهدف الى اثارة الشعب » .

وفي قصة نشرها الكاتب مؤخراً نرى أن تمثال يوسف العظمة قد تحرك ويوسف العظمة هو وزير دفاع الحكومة الفيصلية التي أسست في دمشق عام ١٩١٨، وقاد الجيش العربي في معركة ميسلون التي استشهد فيها أمام جيوش الاستعمار الفرنسي المندفعة إلى دمشق .

يسمع التمثال صوت استغاثة فوق سماء دمشق فيتحرك، ولكن الحارس الليلي يستوقفه مستغرباً كونه يحمل سيفاً في يمينه، فيخبره الرجل بأنه وزير دفاع وإن حمل السلاح مهنته . لكن الحارس يسخف كلام الرجل، وحجته بأن « الوزير لايمشي في آخر الليل كالشحاذ بل يركب سيارة طويلة

عريضة ، والوزير لا يحمل سلاحاً بل يرافقه دائماً شرطي مسلح بمسدس » وأخيراً يساق الرجل إلى مخفر وأثناء الاستجواب يعود الى ذاكرته المشهد التالي :

«وانفجرت قنبلة فوق ارض ميسلون، واصابت شظاياها ساعد يوسف العظمة فهرع اليه طبيب وشرع يضمد جرحه وهو يقول له بلهجة متوسطة :

— وقوفك هنا يعرض حياتك للخطر

— مهمتي اليوم ان احارب العدو واهلك لا ان اهرب وانجو.

— ولكن قوات العدو تفوقنا سلاحاً وعدداً

— ماذا تقترح ؟

— الانسحاب سيحافظ على ارواح رجالنا .

— اذن انت تقترح الهرب

اني اقترح الانسحاب لا الهرب .

— الانسحاب والهرب امراً واحداً لان الوطن في حال الانسحاب او الهرب سيترك للعدو ليستولي عليه .»

ماذا يريد القصاص أن يقول ؟ انه يريد أن يظهر ان الاطر والمفهومات التي تحكم حياتنا الراهنة لو تحكمت بحياة من قبلنا من مفكرين وشعراء وقواد عظام لسحقتهم وأهانتهم ومنعتهم من أن يكونوا مـا كانوا عليه من الرفعة وحرية الضمير والمبادرة في الازمات. ويريد بالتالي أن يقول إن الأنظمة والمناهج التي تسير الحياة العربية الحاضرة هي قيود تمنع الابداع والمبادرة والفداء . بطبيعة الحال انه لا يقول ذلك مباشرة ، انـه يضع بطل الماضي ضمن قيود الحاضر بلا شفقة ، وبطريقة تجريبية تماماً فيظهر البطل ليس بطلاً وإنما يمسخ الى قزم مدان . ولايبقى للقاريء أمام هـذا المـأزق سوى طريقين إما أن ينكر بطولة الماضي وروعته دفاعاً عن المؤسسات القائمة أو أن ينبذ المؤسسات القائمة دفاعاً عن الحرية الداخلية للانسان العربي ودفعـاً له في طريق التفتح والانطلاق .

هذه الحساسية تجاه المؤسسات القائمة لجم الحياة العربية لاتقتصر على الجيل الذي تجاوز الاربعين من عمره ، بل نجدها أشد ارهافاً لدى الجيل الجديد ممن لم يبلـغ الخامسة والعشرين . اقرؤوا الصفحات الأدبية التي يحررها هؤلاء الشبان ؛ قد تجدون عشوائية في التعبير والتواء في الصور ، غير ان ذلك كله يتكشف عن رؤيا مريرة لواقع متعـثر مقيد وأعماق تطفح بالتحدي . ومن هـذا التوازن بين مجد الطموح الرافض وهوان الواقع المجهض يحاول الادب الشاب أن يخلق توتراً فنياً لاتعوزه المفارقة .ولاينقصه

المدهش والمفاجيء . أمامي الآن ديوان صغير لشاعر شاب هو أيمن ابو شعر. الديوان كابوس التجه وعي غض أكب على التدقيق في شؤون الحياة قبل الأوان ، لذلك لاتـل عن صور التشويه وقطع اليد أو اللسان وصور السجون والمنافي والخيانة . والبيع والوقيعة . عنوان الديوان يأخذ اسم أطول قصيدة فيه « صندوق الدنيا » . في هـذا الصندوق يعرض الشاعر استبصاراته عن الحياة العربية المعاصرة من زاويتي الانسان والسلطان. تنتهي القصيدة بهذا المشهد المحدد :

اقسى رسم في صندوق الفرجة .

جسمي يتأرجح .. وسط المرجة

فاذا عرفنا أن (المرجه) هي ساحة المدينة التي يشنق فيها المحكومون بالاعدام في دمشق أدركنا هول الرؤية التي يطلع بها شاب على العالم. انه يريد أن يقول الصدق ويدعو اليه ، وهو يعلم مسبقاً بشكل حدسي مصير كل صادق. كأن الصدق أصبح من المحرمات في الحياة العربية ، بحيث لابد لمن ينظر في صندوق الدنيا نظرة حق أن يلاقي المصير المحتوم الذي لقيه كل من حدقوا في المحرمات منذ أوديب إلى اليوم . ان هـذه الحساسية المتفشية في أدب الشبان الطالعين هي الـتي تجعل صورهم مقززة حيناً ومرعبة أو ساخرة أو مريرة في أحيان أخرى. ان هذه الحساسية تجاه محرمات الحياة العربية : نقد الدولة ، معـالجة شؤون الجنس أو العقائد ، الحوار الديمقراطي والقيم غير المزيفة ، تخلق لدينا جيلا ، صوره الشعرية تسابق ملكة التعبير لديه لأن الوجدان الحساس يطبع الانفعال بأسرع ماتمكن الموهبة من بلورته . فاذا كنـا نشكو من فجاجة صور الأدباء الشبان ورطانة لغتهم فلأنهم يدفعون ضريبة المراحل التي تقلبت على وعيهم . انه جيل وعيه أكثر من ممارسته ولم يتوفر له الوقت لتجويد العبارة بعد أن كوت شمس حزيران والوعي الطبقي أحاسيسه . لقد سقطت بلاغة القعقعة بسقوط الخطب والبيانات النارية ، وبدأ عصر تعرية الحقائـق . . وتلك بشارة ، قصائد الشباب حبلى بها .

هذا لايعني اننا نتوصل الى نظرة جيلية تنكر وجود معيار جمالي ينطبق على معظم الأدب ، كما اننا لانقر النظرة الانفصالية التي تقطع كل مرحلة عما عداها وكأنها بداية لتاريخ جديد لانسانية جديدة ؛ لأن محاولات بعث الحاضر ضمن اطار نقدي للمؤسسات القائمة هي أمر من صميم مهمات الأدب ، مادام الأدب في جوهره احتجاجاً على الحياة وتطلعاً الى عالم أفضل . هذا وليست ركاكة الاسلوب وعدم استعمال اللغة استعمالا صحيحاً وقفاً على الجيل الجديد ، فقد كنا نسمع ذلك عنا من متقدمينا . ومع ذلك تظل هـذه الظواهر — في رأيي — من أهم الخصائص التي تميز هذه المرحلة لان حساسيات الادباء اكثر استجابة لها وانصرافاً عما عداها . على أن مجرد تغير الوضع الأدبي في زمن معين ،

بالمقارنة مع ما كان عليه قبل عقد أو عقدين من السنين يظل أساساً غير كاف لتثبيت عملية تطور تاريخي فعلي. ولهذا كان حكم الحساسية حكم تلمس واستشراف آفاق ومحاولة لشرح الظواهر الجديدة وربطها بعضها بالبعض الآخر لتكوين صورة عامة عن المشهد الأدبي وتفاعله مع مختلف الجوانب الفكرية والسياسية في الحياة العربية، إذ ان الناقد يحتاج دائماً الى معرفة كيفية تغلغل الافكار في نسيج العمل الفني، بحيث تغدو مكونة، اي أنها تكف عن ان تكون افكاراً بالمعنى المألوف للمفهومات وتصبح رموزاً اوحتى نوعاً من الخرافة، وعندما يحدث ان تتم المطابقة بين الفكر والفن تمسي الصورة مفهوماً والمفهوم صورة، وقصيدة الشاعر عبد الوهاب البياتي «الرحيل الى مدن العشق» نموذج من نماذج هذا التحول. فقد كتبت هذه القصيدة مابين تونس وبيروت وبغداد، وجاء ثلثها الاول عمودياً على بحر «السريع» وجاءت بقيتها على الوزن الحر لبحر «المتدارك». فاذا دققنا في القصيدة وجدنا أن القسم الاول منها يسرد تأملات ذاتية في الثورة والمصير الشعري، أما القسم الثاني فيدور حول الرحيل والاستلاب. القسم الاول يحمل لوعة شاعر عربي فجاء شعراً عمودياً:

الله والقيثـــار في لهفتي
اليهما اوقدت نار الدليـــل
برح بي العشق، وها انني
اموت في بوابة المستحيل
ادرج بالأكفان، لكنني
اقوم بعد الموت في كل جيل

والقسم الثاني يحمل معاني النفي والتمزق في حياة الشاعر والوطن العربي فجاء شعراً حراً:

رحلت عين الشمس
رحلت مولاتي
رحل البحر الأبيض
رحلت بيروت
رحل الشارع والمقهى
رحل الغجري ـ المطر ـ السحب ـ
الكلمات ـ الضحك ـ النور ـ النار.
عادوا للوطن ـ المنفى
كي يولد طفل الأرق ـ الحزن ـ
الوحشة ـ راقصة العاصفة ـ الشعر ـ
القيثار.
رحلت مولاتي
فلنرحل يا ديك الجن ـ امير المنفى
وصديق الشعراء ـ الفقراء.

ان القصيدة غامضة، كثيرة الاعتماد على الموسيقى، وعلى الومضات الشعرية السريالية

الخاطفة ، وعلى الكشوف الصوفية الداخلية. لكن اذا صح تحليلنا ظفرنا بمثل محسوس قريب العهد على شدة تداخل العناصر البنيوية والمضمونية في العمل الفني الرفيع وثقل وطأتها على ملكات الخلق لدى الفنان المبدع. قريب من هذا المثال قصة للقصاص سليمان فياض بعنوان « في زماننا ». القصة مشتتة من حيث البناء ، فكل بطل يتم تقديمه وتقديم وجوده العائلي على حدة ولا تلتحم خطوط القصة في نهايتها . وبالتالي فليس في القصة بطل بل أن كل ابطالها متساوون في نصيبهم من اهتمام القصاص . وحتى الحادثة المركزية في « القصة » وهي حادثة سيارة تصدم احد شخصيات القصة« تمر بأسرع مما تمر أية حادثة أخرى ، مما يخلق جواً من التسوية بين الاحداث يعادل جو التسوية بين الابطال . وهنا تظهر العناصر الشكلية وقد تدخلت في صلب المضمون وطغت عليه بحيث تفقد القصة كامل مغزاها اذا نظرنا اليها كأحداث تدل على مضمون فقط. ان الكاتب يريد ان يقول ـ كما ورد على لسان أحد شخصيات القصة ـ «ان الحياة تسير كما لو كان الناس مضربين: اضراب يعني لا عمل ولو كان هناك عمل فبغير رغبة. ليس هناك أخذ أو عطاء. لا أحد يفهم عن أحد» . ولاظهار مثل هذه الحال من العطالة يحمل القصاص كاميرا يتجول بها في بيت موظف وسائق تاكسي ومهندس ترك اختصاصه العلمي ليعمل كاتباً فانتهى الى صحافي محترف « يكتب حسب الطلب ، بالمقاس، والمواصفات. تاجر بالكلمة لينجح، ليرتزق . أضاع نفسه، ويضيع الناس معه» . ولكي يضيء القصاص دخائل شخصياته يركز على ناحيتين ، علاقات الشخصيات مع زوجاتهم ، هذه العلاقات التي ان لم تكن مقطوعة فهي فاترة تفتقد الى اللهفة الحقيقية واللذة الحقيقية وتشوهها دائماً شدة الحاجة الى المال بين كل الطبقات ؛ والناحية الثانية تصور رد فعل الناس تجاه الجثة التي صدمتها السيارة . فالناس يمرون بها غير مبالين « لا يكترثون لشيء غير أنفسهم» كما يقول الصحافي. هذا التوزيع لمراكز الاضاءة والحركة في القصة يؤدي الى ضغوط متساوية عند المحور تنتهي بالعطالة ، وهي عطالة متفشية في النفوس والاعمال على السواء . عطالة مستوحاة من « الأيام الخامدة » في حالة اللاسلم واللاحرب . ففي زماننا يحس المثقف ان شيئاً قد مات في روحه ، يدرك الكارثة الراهنة ، يرى مظاهرها من حوله « لكنه لا يستطيع ان يفعل شيئا ازاءها لأن الناس غارقون في هذا الاضراب بلا صوت . هذه الحركة بلا حياة...» وتنتهي القصة بالصحافي — وهو نموذج الوعي والضمير المشلولين — لأن يطلب من سائق التاكسي بذعر ان يعود به الى البيت . لم يعد يهمه فشله ككاتب ،ولا موت الابداع في نفسه . هو الآخر يريد ان يعود الى زوجته وأولاده بعد أن عاش زمانا

دون ان يجد لديه وقتاً يكرسه من أجلهم .

ان هذه العودة لاتعني أي شيء ايجابي في موقفه من نفسه ومن أسرته ، فهو ضائع الى درجة أنه لم يجد لنفسه مكاناً في الصحيفة أو المقهى فارتد الى البيت منسحباً من هذا العالم. وشبيه بهذا الانسحاب ، وأبعد منه ، بمعنى أنه أكثر جوانية وفردية ـ انسحاب بطل قصة جورج سالم « كما في الاحلام » . ففي هذه القصة يستيقظ البطل من نومه في الليل على صوت حركة داخل البيت وخارجه: في الطريق وفي السماء فيشغل نفسه بالتفكير في الحبوب المنومة التي تناولها . غير أن أزيز الطائرة يتحول الى انفجار في السماء ، يتلاشى أثره من نفسه بعد أن يغفو ، يستيقظ مرة أخرى ليشرب ويشاهد طفليه نائمين . بعد ذلك ينكر غرفته ومظهر الباب فيها ، ينكر الصوت الداخلي الذي يحدثه ، ينكر اصوات الرجال خارج غرفته وهم يصيحون به إثر تكرر الانفجار في الجو : « دافع عن أطفالك » يستصرخ النائم أجداده فلا يصرخونه من العذاب والرعب . يحس بالدموع تتساقط على وجنتيه وهو يسمع أنين أطفاله دون ان يستطيع حراكاً . يصرخ به صوت « تعلم كيف تموت » فيجيبه النائم « انني ميت منذ زمن طويل» ولا يلبث ان يغوص في « دوامة نهر عميق الغور » . وفي آخر رمق منه يصرخ « لا .. لا » . وفي الختام : «تتحرك أصابعك المنحيلة . كأس الماء جاهزة . وكذلك الزجاجة الصغيرة تتناول حبة أخرى وتفقد الوعي » .

القصة ممعنة في عرض الغربة والاستلاب. وهذا العرض الوصفي لا يغني البتة عن نصها الادبي الحاد ، المجرد ، الدقيق ، ولا عن دراسة طريقة الكاتب في التلاعب بالضمائر والانتقال بين المشاهد دون تمهيد ولا روابط بحيث ينجح التخييل في خلق الاحساس بالواقع ونسفه اثر كل كابوس . ومرة أخرى نشهد الشكل يوغل في اخفاء المضمون بحيث يصعب تحديده ، لان الاثارة الفنية التي تخلقها القصة يرافقها انحراف لغوي عن التعبير العادي . فليس هناك صور بالمعنى الادبي ، بل اشكال تتوالى في مشاهد هي كوابيس ورموز ومضمونات في وقت واحد .

قد يخطر الذهن المتسرع أن يجري مقارنات بين أساليب جورج سالم وكافكا ، زكريا تامر وكافكا أو دوستويفسكي ، سليمان فياض وهمنغواي ، لاسيما وأن لهمنغواي قصة بالعنوان ذاته، أو بين اتجاهات بعض الشعراء العرب وهذا الاتجاه أو ذاك في الادب العالمي ، ولكن حذار . فحدود المقارنة لاتتعدى أول الطريق ، في اقتباس مطور لبعض الاساليب والصنعات التقنية ، بما يقف عند حدود المشروع الادبي في خلق شرك للايقاع بالقارىء في موقف محتمل وبعيد عن الحدوث، لكنه يمتلك « امانة للواقع » اكثر عمقاً مما يحويه

المعنى الظرفي . ان الواقع العربي يفيض أو يتداخل مع التقنية التي يصطنعها الكتاب بحيث يظل هذا العالم العربي قائماً بذاته ومفهوماً لذاته من ضمن الحساسية المتزايدة التي يبديها هؤلاء الكتاب تجاه واقع امتهم . صحيح ان كتابا من أمثال ديكنز ودوستويفسكي وبروست هم الذين يبسطون عالمهم المطبوع بطابعهم على مجالات تجربتنا ، في حين ان كتابنا لم يبلغوا الى اكثر من محاذاة الواقع العربي . ولكن لنذكر أيضاً ان تجربة امتنا مع الحضارة الغربية هي تجربة تبلغ من المرارة والخطر الداهم والدائم مالا يستطيع جيل من الاجيال أن يستوعبه بمفرده استيعاباً يتيح لأحد افراده ان يعبر عنه . ومع ذلك فان امتنا تجابه الخطر بالصمود ، والتحدي بالتطور ، والاستعباد بالثورة ، ومحاولات طمس قوميتها بمزيد من التحسس ضد النواحي التي تؤدي الى الضياع القومي . وما دام أدبنا يقوم على نقد الحياة العربية والصدام مع المؤسسات الجامدة فيها فان لنا كل المبررات لكي نؤمن بحاضر الادب العربي ومستقبله مثلما نؤمن بماضيه . ان الفنان هو النقطة التي يظهر عندها نمو العقل البشري والضمير القومي . وان حساسيته هي التي تبديه الى عرض التجارب التي يتعرض لها مواطنوه ، بحيث يبدو نتاجه تنسيقاً لما هو مضطرب في أذهان ابناء قومه وافئدتهم . وبما ان الانسان بعد أن يمر بتجربة من التجارب لايظل كما كان قبل مروره بها ، مما يجعل الفنون أقوى الوسائل التي يمكن عن طريقها « توسيع مجال الحساسية الانسانية » فان مظاهر الحساسية الأدبية المتغيرة التي عرضنا بعض جوانبها في هذا المقام ، سوف تؤدي الى المزيد من الوعي القومي والتفتح السياسي وتحرر الضمير العربي من كل الاغلال والمواضعات التي تحجب عنه صفاء الرؤية القومية لأبعاد معركتنا في سبيل وحدة أمتنا وبقائها حية فاعلة في تاريخ البشر وحضارتهم .

* * *

مراجع البحث

١ ـ رينيه ويليك ، اوستن وارين: « نظرية الادب » ترجمة محيي الدين صبحي. من منشورات المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدمشق .

٢ ـ ريتشاردز : « مبادىء النقد الادبي » ترجمة : مصطفى بدوي . منشورات المؤسسة المصرية العامة . القاهرة .

٣ ـ مقطوعتا الشاعرين نزار قباني وفايز خضور مخطوطتان .

٤ ـ زكريا تامر : « الرعد » منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق . « الاستغاثة » قصة منشورة في مجلة « الموقف الادبي » العدد ٥ لعام ١٩٧٢ ،

٥ ـ أيمن ابو شعر «صندوق الدنيا »من منشورات وزارة الثقافة والارشادالقومي بدمشق١٩٧٢.

٦ ـ عبد الوهاب البياتي : « الرحيل الى مدن العشق » قصيدة منشورة في مجلة « المعرفة » العدد ١٢٧ . دمشق . ١٩٧٢ .

٧ ـ سليمان فياض : (في زماننا) « مجلة الآداب » العدد ١١ عام ١٩٧٢ بيروت

٨ - جورج سالم : « كما في الاحلام» مجلة«المعرفة» العدد١٣١.سنة ١٩٧٢ دمشق.

قدم هـذا البحث ضمن ابحاث الوفـد السوري الى المؤتمر التاسع للأدباء العرب المنعقد في تونس بين ١٨ ـ ٢٥ آذار ١٩٧٣

بيكاسو... الأسطورة

طارق الشريف

يوم الاحد في الثامن من نيسان عام ١٩٧٣ ، أعلن رسمياً وفاة الفنان الشهير « بابلو بيكاسو » ، وفي هذا التاريخ اختتمت حياة حافلة ، تمثل القرن العشرين فنياً بكل مافي هذا القرن من تطور ، وكل إنسان بعد وفاة هذا العبقري ، لا بد له أن يتساءل : ماذا يعني بيكاسو بالنسبة العصر ، وما هي حقيقة هذا الفنان .. ولو أردنا أن نعطي القارىء صفة ما تمثله لقلنا بأنه « اسطورة » بكل ماتعني الكلمة من معنى ..

اسطورة تمتزج فيها الحقيقة بالخيال ، بحيث يصعب على الناقد والمتذوق أن يعرف ماهو حقيقي في شهرته ،اوفي أعماله وماهو مختلق ؛ لأن الحكايا والاساطير التي رويت عنه ، قد طغت حتى على النتاجه الفني ، وطغت على كثيرين من الفنانين في القرن العشرين .

لهذا نستطيع أن نقول بأن كل انسان يعيش القرن العشرين قد سمع باسم« بيكاسو» ولكن ندر ان نرى من يستطيع ان يدلنا على الحقيقة الكامنة خلف أعماله .

قهر الرأي العام

وماهي اسباب الشهرة ، لاشك في أن (بيكاسو) يملك شيئاً لايملكه أي رسام آخر ، انه قدر على أن يقهر « الرأي العام» بأسرع مما استطاع أي فنان آخر ، وليس هذا شيئاً سهلاً في هذا العصر وفي بلدمتطور، واذا عرفنا أنه اقنع الناس بأن الفن عالم خاص مستقل عن عالم الواقع ، وان أداته في اقناع الناس هي مقدرته على قهرخصومه بقوة رسمه التي لاتجارى ، كأنه المصارع الاسباني الذي استطاع أن يروض الثور ، ويفرض عليه عظمته ومهارته ، خلال دقائق معدودة .

يقول عنه « هربرت ريد »(١)

— ان بيكاسو يستطيع ان يرسم باسرع مما يستطيع أن يتكلم ، ولقد كان في العاشرة من عمره واستطاع ان يرسم نموذجاً من الجص ، كما يرسمه أي موهوب كبير من الفنانين .

وسواء كان هذا الحديث صحيحاً أو لم يكن ، لكنه استطاع ان يقنع الناس بهذه الحقيقة ، لكن ذلك لاينفي شيئاً وهووجود الموهبة التي تندر أن توجد عند فنان آخر ، وهكذا يكفي ليؤكد لنا حقيقة موهبته النادرة التي أصبحت منتشرة لدى كل من كتب عنه ، وهو كثير .

الفنان الاسباني

ولد « بيكاسو » في « مالاقا » ، وهي قرية اندلسية ، عام ١٨٨١ ، ومن هذه القرية نستطيع ان نرى البحر الابيض المتوسط، ونستطيع ان نستنشق رائحة الصحراء الافريقية ، ورحل الى « باريز » ثم اختار « باريز » منفى له ، وفيها تربع على عرش الفن ، فكانت سبب شهرته . ولكنه كان يحمل معه روحاً « اندلسية » وتتجلى هذه الروح الاندلسية في الصراع الدموي الهائل، زي هذه الروح في «مصارعة الثيران » وفي الحرب الدموية . وفي قرعات الطبول

(١) مختصر تاريخ الفن الحديث للناقد (هربرت ريد)

و « الفلامنكو » وغمسها في بؤس الريف الذي ولد فيه ، ولاعجب ان نرى أعماله الاولى حافلة بتصوير « وحدة الانسان » و « شقائه » و « تشرده » . وكانت حياة « باريس » حافلة وقاسية في بدايتها ، وظهرت في مرحلته « الزرقاء » ثم « الوردية » تجارب فنية عديدة تعكس صورة الحياة الباريسية البائسة في مطلع القرن العشرين ، وكان مولعاً برسم « المهرجين في السيرك » ونقــل مآسيهم وآلامهم ، وكانت دراما هؤلاء تعكس بؤس الريف الاسباني الذي ترعرع فيه ، وظــل عميقاً في نفسه يبرز بين فترة وأخرى .

وتعرف على « جورج براك » وعرفت « باريز » في هذه المرحلة أول تجربة فنية « تكعيبية » وعملا معاً ، وقال بيكاسو :

ــ كنا كأخوين يشدنا حبل واحد.

لكن اسبانيا ظلت التيار الأقوى ، الذي يقذف حممه بــين فترة واخرى كلما عانى الفنان أو عانى بلده ، ولقد تفجرت الروح الاسبانية ثانية حين ضربت قرية « الغورنيكا » وعندها استيقظ « بيكاسو » على أهوال الحرب ، ويكتشف « بيكاسو » هنا وجود اسبانيا . واحس بأن على الفنان ان يستخدم فنه ضد الحرب وضد كل مايهدد حرية الانسان ، ولهذا عاد يرسم ويجسد في لوحته « الغورنيكا » صراعاً هائلا بين قوى الشر وقوى الخير ، وان رموزه التي استخدمها في لوحته لتعكس دوماً التراجيديا الهائلة بين الحياة والموت بين الخير والشر ، بين الحب والتعاسة ، وبين الانسان الطيب وقوى الشر المتمثلة بالفاشية .

واذا اضفنا الى « اسبانيته » موهبتــه النادرة في الرسم نستطيع ان نعرف كيف استطاع ان يحقق في لوحته مالم يحقق قبلها في كل أعماله .

الموهوب فطرياً

كان « بيكاسو » عارفاً بموهبته ، ولقد وصفها مرة حين حضر معرضاً لرسوم الاطفال اذ قال (١) :

ــ انني لم أمر بهذه المرحلة ، لأنني قد رسمت وجهاً وأنا في الثانية عشرة من عمري ، وكان هذا الوجه مرسوما بدقة تعادل دقة (رفائيل) ؟!

أما هربرت ريد فيقول عن موهبته :

ــ « اذا دققنا في أعمال (بيكاسو) نجد أن يده تعمل ، وتتحرك كما يتحرك الطير أثناء طيرانه ، وهذه المقــدرة على السيطرة على الرسم ترجــع الى تدريب متواصل ، وترجع ــ في نفس الوقت ــ

(١) بيكاسو بقلم الناقد الافرنسي (بيير ديه) .

الى موهبة فطرية ، إذ يمكن ان نجد فنانين آخرين يتمتعون بنفس الموهبة ولكن ليس الى هذه الدرجة » .

انها موهبة فطرية صقلتها ممارسة دائمة .

ويصل « بيكاسو » الى المبالغة حين يتحدث عن قوة رسمه فيقول :

— « إن قوة الرسم أقوى مني لأنها ترغمني على أن أعمل ماتريد » .

ونراه يزيد مبالغته حين يتحدث في حوار أجري معه :

— « انني أضع الاشياء التي أحبها في اللوحة ، وعلى الأشياء ان تتآلف مع بعضها دون رغبة منها » .

كأن اللوحة عنده مجموعة أشياء يسخرها كما يرغب للتعبير عما يريد، ويملك هومقدرة التحكم الخالقة فيها ، دون ان يعترضه «شيء»، ولقد وصل الى مرحلة حور فيها « سرج دراجة » الى رأس ثور » عام ١٩٤٣ ، واستطاع ان يجبر كل الأشياء على الخضوع لمايريد ، وتتحول — كما يشاء — عمااعتادت ان تكون .

وبراعة (بيكاسو) الرئيسية تكمن في هذه المقدرة على السيطرة على (المادة) ، على (الطين) و (القلم) و (اللون) ليعبروا عما يريد، وكأنه يستطيع أن يتلاعب بالطين والقلم ويتحول كل شيء في يده الى عجينة سلسة ، وحين عمل بالخزف ، احتار الخزاف الذي رآه يعمل من مقدرة التشكيل الهائلة عنده ، وفي أحد الأفلام التي صورت عنه يأخذنا العجب مما نرى ، انه يحور الأشكال والخطوط بين يديه كما يريد ،ودون أن يتردد، فكأنه يملك الأشكال ،ويحرفها حسب رغبته.

واستطاع في مرحلة (العودة الى الكلاسيكية) التي عرفها الفن الأوربي عام ١٩٢٠ ، أن يجاري الكلاسيكيين في أعماله، بل استطاع أن يتصرف بالخط وحده ليوحي لنا بكل أبعاد التصوير دون تظليل أوألوان حتى الألوان لم تعد هامة بالنسبة له ، لأنها مضافة ، لكن الشيء الهام هو ، قوة التعبير بالخط وحده .

ولنتساءل بعد ذلك عن المعركة الأساسية التي كان على (بيكاسو) أن يخوضها في بداية القرن العشرين ، وخلال المرحلة الهامة فيه . حين تطور الفن التشكيلي بعيداً عن مسلمات القرن التاسع عشر .

ضد المحاكاة

وهنا يجدر بنا أن نعرف أن (بيكاسو) كان يناضل باستمرار ضد كل أشكال المحاكاة وتقليد الواقع ، فالفن ليس نقل الواقع أو تسجيله ، بل ان عالم الفن يوازي عالم الواقع ، وله قوانينه الخاصة المستقلة عن هذا الواقع ، ورغم أن الفنان يأخذ من

الواقع (الأشكال) وينطلق منه . لكن الواقع نقطة بداية ، أي أن وجود أي شكل في لوحته يبدو مخالفاً لوجوده في الواقع ، وله دلالة أخرى، ولهذا يتعامل مع (الأشكال) على أنها (أشياء) كما يقول الوجوديون ، ولا يتعامل مع المعاني الرمزية أو الدلالات التي تأخذها هذه الأشكال ، وبالتالي فهو قادر على أن يعطي هذه الأشياء شتى المعاني التي يريد .

يقول (بيكاسو) :

«الفن ليس حقيقة ، الفن كذبة ، تساعدنا على الاقتراب من الحقيقة ، وإن على الفنان أن يكتشف الطريقة لاقناع الناس بأن أكاذيبه هي حقائق» .

ونستطيع أن نضيف بأن الفن في القرن العشرين كله ينطلق من هذه الفكرة التي تميز بوضوح بين (عالم الفن) و(عالم الواقع) والتي تعني أن الفنان يرفض أن يكون مجرد مسجل ، وان ايجاد فن جديد يعبر عن قيم العصر ومسلماته تفترض أن يتجاوز الفنان موقف المسجل .

— ولكن ماهي المسلمات الأساسية التي نادى . القرن العشرين بضرورة تحقيقها ، وماهي الظواهر التي انعكست في كل أشكال التعبير الفني والتي جسدها بيكاسو ؟

لا شك في أن بداية القرن العشرين كانت حافلة بالاكتشافات العلمية والتغييرات الاقتصادية ، وكانت التغييرات عميقة شملت العلوم كلها ، وامتدت الى أشكال التعبير الأدبي والفني ، وبالتالي أصبحت آفاق التعبير المعاصر تختلف كلياً عن الاشكال التي انتشرت في القرن التاسع عشر . فلقد تبدلت (الرواية) مع (بروست)و(جويس) وتطورت الفلسفة مع (برغسون)و(فرويد) ولا ننس تحول الرأسمالية من الشكل الذي تحدث عنه (ماركس) الى الشكل الذي حلله (لينين) حيث أصبحت الراسمالية تعني (الامبريالية) ، ولا ننس تطور المدن والصناعة ، والبؤس الذي خلفه ذلك ، وتطور (الاستعمار) مع (الامبريالية) فاطلع الفنانون على كل نتاج الحضارات المختلفة في كل أصقاع الأرض، وظهرت السينما ، وهذه الحقائق كلها وجدت تعبيراً عنها في أسلوب (بيكاسو) الفني ، لأنه يعكس مسلمات العصر العلمية والفكرية والاجتماعية .

و (بيكاسو) رغم أنه يرفض أن يكون الفن مجرد انعكاس آلي للواقع الخارجي لكنه يرفض أن يكون الفن مجرد تعبير ذاتي عن أزمات الفنان، وبالتالي كان (بيكاسو) يقول :

— لا وجود للتجريد ، لابد من أن تبدأ بشيء ؟!

حركة الواقـــع

وهذا يعني تأكيد وجود العالم الخارجي ، وتأكيد استقلاله عن الشخص المتمثل ، هذا الواقـع له وجود مادي راسـخ ، وله قوام متين ، وبنية هندسية متبدلة حركيــة ، ومهما ابتعد الفنان عن هذا الواقــع فلن يستطيــع الافلات منه — كما يقول — وهذا ما يميزه عن كل الفنانين الكلاسيكيين الذين عرفناهم والذين مجدوا الواقــع ،وأرادوا أن يكون فنهم التقاطاً للحظة ساكنة من لحظات تبدل الواقــع . والتعبير عن الحركة نراه عند (بيكاسـو) يأخذ شكل خط متحرك متجــدد ، أو شكل تحوير للوجه مازجــاً الازمنة في حركة لا متناهية ، مازجــاً الامكنة المختلفة في عمل واحد ، وعلى شكل رؤية متنوعة لمشهد واحد من نقاط مختلفة، محوراً الاشكال ،محوراً الانسان الى حيوان مستخدماًتحولات الاشكال وتبدلاتهاالمستمرة للتعبير عما يريد كأنه يلعب بها ليجعلهاتخضع لرغبته وحدها ولتخدم هدفه .

المضمون الانـــاني

هذا التعبير المتنوع الفني كان دوماً يخدم (المضمون) الذي يريد ، والمضمون يرتبط بالاحساس الذي يصادفه في لحظة معينــة ، وهناك حادثةترويءعن تشويه وجه(زوجته) في لوحةحين اندلعتالحرب الاهليةالاسبانية، لهذا تعكس أعماله كل تأثيرات الحياةفيعصره، كأنه يرصـــدها لحظة لحظة ، تصاغ بشاعرية وحب حين يفرح نتيجة لعلاقته بامرأة مثلاً وتأخذ شكلاً تراجيدياً حين تحدث كارثة أو مأساة أو يموت صديق أو لا يتورع في هذه اللحظات عن استخــدام أي شكل أو رمز أو صورة ، ليعبر عما يعانيه .

لقد استخدم لوحة (غويا) حين أراد التعبير عن مأساة (كوريا) واستخدام لوحة (دولاكروا) حين أراد التعبير عن أحداث (الجزائر) ، وأعاد رسم لوحات فنانيــين كثيرين ، على نحو يحقق هدفه ، ضمن فكرة أساسية وهي أن الفنان المعاصر يملك المقدرة على أن أخذ ما يريد حين يريد ، ان الشيء الهام هو (المضمون) الجديد ، والصياغــة العصرية للفكرة التي تعبر عنها اللوحة ،وهو في جرأته على التحدي لا تجاري ، اذ لم يترك فناً ولا حضارة سابقة لم يأخذ منها ، لكن كل ما أخذه أصبح جزءاً لا يتجزأ من عمله وهو في هذا يشبه (شكسبير) الى حد بعيد، الذي أعاد صياغةقصص معروفة فيمسرحياته بشكل جديد ، ليطرح من خلالها أفــكاراً جديدة ، وهو مافعله (بيكاسـو) في كثير من أعماله .

ولهذا نستطيع أن نقول بأن من عجائب شخصيته مقدرته الهائلة على أن يمد يده الى كل الحضارات ، من كريت الى اسبانيا ،

.ومن اليونان الى الفن الزنجي ، ومن الفن البدائي الى فنون القرن التاسع عشر .

ولكن كل هذه المعاني التي جسدها ،كانت من أجل (الانسان) من أجل سعادته وفرحه وغبطته ،وهو يستخدم كل الوسائل العصرية ليحقق انتصاره ، ليكون ذلك في مصلحة الفن المعاصر ، ولاشيء يمكن أن نختم بـه كلامنا عنه الا كلمات الناقد الفرنسي (بييرديبيه) حين يقول :

« ــ لاشيء أقرب للحياة من أعمال بيكاسو ولاشيء أقرب للحقيقة منها ، ان رسومه تعكس المعاناة ، والسعادة والحب ، لكن هذه الامكانات ليست جامـدة ، بل هي حيـة ، الحب يولد فتقهر الكراهيـة ، والجمال يزهر في الفرح ، ويموت في الحزن » .

الشاذلي القليبي

فيما يلي النص الكامل للكلمة التي افتتح بها السيد الشاذلي القليبي وزير الشؤون الثقافية والأخبار مهرجان الشعر العربي الحادي عشر الذي أقيم عشية يوم الثلاثاء بدار الثقافة ابن رشيق .

مغامرة وجودية

اسمحوا لي ايها السادة ، في مستهل هذه الكلمة ، أن أعبر لكم باسم الحكومة، وباسمي الخاص ، عن عظيم اعتزازنا بانعقاد كل من مؤتمر الأدباء العرب ، ومهرجان الشعر ، على أرض تونس العربية المؤمنة بما تتحمل من مسؤلية في النهوض بالثقافة العربية الاسلامية ، بالاشتراك مع أشقائها في المشرق والمغرب

ولئن كان من معنى لما تسميه بالأمة العربية ، فانما هو متصل ، اولاً وأساساً ، بهذه الرابطة الثقافية ، المتمثلة في الاشتراك في التراث الفكري والأدبي والحضاري ، وفي هذه اللغة الفذة التي طاولت الزمان ، وتحدت كل التقلبات ، صامدة ودوماً في تجدد ، ثابتة رغم انها متطورة بحسب الاوضاع والعصور .

لذلك يحق لنا جميعاً ان نعتز بهذه الرابطة التي قل أن يحظى بمثلها مجموعة شعوب موزعة على قارتين ، ويفصل بينها هذه المسافات الشاسعة من المحيط الى الفرات .

وانتم ، معشر الأدباء ، قد جسمتم هذه الرابطة العتيدة ، إذ أنشأتم هذا الاتحاد ، وجريتم على سنة عقد الاجتماعات الدورية ، للتباحث في شؤونكم ومعالجة المشاكل التي تعترضكم ايماناً بوحدة المصير بينكم ، وبوجوب التضامن وتضافر الجهود للنهوض بالأدب العربي خاصة ، وبالثقافة العربية بوجه أعم .

لذلك نعتقد ان من انفس مكاسبنا في المستوى الثقافي صيانة هذه المنظمة والعمل بكل جد لتنميتها وتعزيز قدرتها على القيام بدورها التاريخي ، في تقريب الشقة وتكتيل الجهود وابراز معالم الأدب العربي الحديث ، في أنصع معانيه وأشمل وجوهه واصدق صوره .

● الأدب العربي لم يتجاوز حدوده السياسية

والواقع الذي لا يمكن التغاضي عنه ، هو ان الادب العربي الحديث لم يبلغ بعد من الانصهار والائتلاف والشمول ما يجعله يتعدى حدود الأوطان السياسية ، فيؤلف وحدة عضوية متماسكة الاطراف ، مندمجة العناصر ، ومرجع ذلك الى قلة الاتصال بين الأدباء . وضعف الاصداء التي تلقاها آثارهم ومنشوراتهم في مختلف البلاد العربية ، وعن ذلك نتج جهل فادح أحياناً في بعض هذه البلاد بما ينشر في غيرها من الأمصار رغم توفر الوسائل العصرية للاتصال والاطلاع .

ونحن نعتقد أننا مقصرون في هذا الصدد ، اذ لم نستخدم بما فيه الكفاية ما لدينا اليوم من وسائل سمعية وبصرية للتغلب على بعد المسافات وعلى سائر الحواجز الموروثة عن عصور قديمة لم نهتد بعد الى اصلاح رواسبها الفاصلة بين الحركات الأدبية ، لا سيما بين المشرق والمغرب .

فمن دور اتحاد الادباء العرب ان يعالج هذه القضية وأن يقترح على الحكومات ما يراه من تدابير كفيلة بتحقيق اللحمة الضرورية بين الأدباء ولم شتاتهم وتوفير وسائل الاتصال بينهم عن طريق الوسائط السمعية البصرية وبتيسير تبادل البضائع الثقافية على اختلاف أنواعها .

ونعتقد أنه كذلك من دور اتحادكم ان يسهر على حماية هذه المبادلات الثقافية وضمان استمرارها ، بمعزل عن الأعراض السياسية وتقلباتها التي لا ينبغي ان تمس في شيء جوهر العلاقات الثقافية بين الشعوب.

وذلك يكلف لا محالة جهداً شاقاً ، إذ يجب ان نميز — حسب العبارة المأثورة عن الرئيس بورقيبة — بين المهم والأهم ، فمهما كانت الاعتبارات السياسية هامة ، فالأهم منها صيانة هذا الكسب العظيم الذي يتمثل في وحدة الفكر ووحدة الجهد من أجل النهوض بشعوبنا باعتبارها مجموعة ثقافية وحضارية متآلفة متضامنة .

لذلك نعتقد ان دوام الاتصال والتعارف والتعاون بين الأدباء من اوكد الواجبات التي علينا جميعاً نحو أمتنا ، باعتبار الكتاب والشعراء والمفكرين في طليعة الشعوب من حيث التعبير عن أحوالها والاهتداء الى آفاق ليس ادراكها دوماً في متناول السواد الاعظم .

● الحفاظ على امكان الحوار الدائم :

وقد يختلف رجال الطليعة في شؤون وقضايا ، من أجل مواقف أدبية أو مذاهب فكرية أو اتجاهات اجتماعية ، ولكن الأهم انما هو الحفاظ على امكان الحوار الدائم ، الذي به يتسنى النقاش الجدي والحجاج المقنع ، وليس بسواه أمل في تقارب وجهات النظر ، وتلاقح الافكار وتفاعل النزعات .

ذلك من شيم الطليعة الفكرية التي تتحمل أوفر قسط من مسؤولية النهوض بشعوبنا ، في مستوى الأمة العربية عامة ، وفي مستوى كل شعب بمفرده .

واسمحوا لي هنا ان اشير الى موقف آخر كثيراً ما يؤخذ به في اوساط الادباء والمفكرين عندنا ، في خصوص علاقاتهم بالمجتمع ، وهو الرفض البات والانطواء على النفس ، واني لاعتقد ان شرف الاديب والمفكر في الرفض أحياناً ، ولكنني اعتقد ايضاً ان ذلك لا يحق له الا بعد ان يحاول الاصلاح بالاقناع والحوار الايجابي البناء :

ذلك ان شعوبنا في طور معركتها في سبيل الخروج من التخلف والنهوض الاقتصادي والاجتماعي الشامل بحيث تحتاج الى كل طاقات ابنائها ، ولا يمكنها الاستغناء بحال عن جهود الطليعة المفكرة التي عليها الارتكاز في كل أعمال الاصلاح والتنمية والتقدم .

لذلك فان من باب جهاد النفس ان تسعى هذه الطليعة الى الانصهار في المجموعة القومية وان تباشر ما تراه من اصلاح من الداخل بالتي هي أحسن والانجع لمصلحة الشعب ولمصلحة الأمة العربية جمعاء . وتلك طريقة شاقة كاداء ولكن لا سبيل الى التقصي منها ازاء الضمير والفكر .

ذلك ان الأدب لم يعد في عصرنا هذا ترفاً ذهنياً ولا يصح ان يكون اعتزالاً ، وانطواء على النفس ؛ بل كل اعمال الفكر — والأدب في مقدمتها — انما هي مسؤولية سواء كانت بالفعل أو بالقوة ، سواء اتصلت بمجال العمل المباشر أو كانت في مجال التوجيه وخلق التيارات الفكرية والاجتماعية الجديدة.

حضرات الاخوان ،

الى مثل هذه القضايا ينبغي ان يتجه اهتمام اتحاد الادباء العرب بالاضافة الى القضايا التي تهمه بالذات مثل مستقبل الثقافة العربية، ومنزلة الادب العربي من الآداب الانسانية المعاصرة واشعاع اللغة العربية في العالم كلغة ثقافة وحضارة .

وهنا استأذنكم في ان اتحدث اليكم حديث الزميل الى زملائه، في صراحة واخلاص،

وأول ما أود ملاحظته هو ما تتسم به الحركة الأدبية والفكرية والفنية عندنا جميعاً، مشرقاً ومغرباً، من فقدان الحوار بين مختلف قطاعات الانتاج ، رغم توسع مفهوم الثقافة منذ أوائل هذا العصر وشموله لمجالات لم تكن تعتبر عندنا من اركان الثقافة :

● الثقافة الشمولية :

فالثقافة في عصرنا الحاضر اصبحت تشمل الى جانب الانتاج الأدبي والذهني كل الفنون التشكيلية والموسيقية والمسرح والسينما. ونحن نلاحظ ان الأدب في غير البلاد العربية على صلة وثيقة بسائر قطاعات الانتاج الثقافي، بينه وبينها حوار مستمر في منتهى الخصب لكل الاطراف المتحاورة وعن هذا الحوار تنعقد اللحمة بين شتى الحركات القطاعية فيتألف من مجموعها ما يسمى بثقافة شعب من الشعوب أو أمة من الأمم . أما اذا بقيت هذه القطاعات منفصلة بعضها عن بعض، مبعثرة، لا يؤلف بينها اتجاه ولا يجمع شتاتها عزم ، فان لفظ « ثقافة » ينطبق عليها مجازاً لا حقيقة .

ذلك ان الثقافة تيار جملي عارم منبثق عن مجموعة بشرية بأسرها، معبر عن كل طاقاتها، الفكرية — والفنية، منصهرة مندمجة متلاحمة.

ومن الجدير بالتأكيد ان كل قطاع ، سواء في صلب انتاجه أو في علاقته بغيره، يقوم بوظيفة الشاهد على سائر الانتاج الثقافي في ظرف ما . وتلك صلة لا غنى عنها، في انطلاق ثقافة متأصلة الجذور متماسكة الفروع :

والى معنى الشهادة هذا ترجع وظيفة النقد الأدبي الذي انطلق عندنا بعض الانطلاق، ولكنه خبت جذوته ولم يقو على التوسع في مهمته حتى يشمل الفنون بسائر أنواعها !

ولا نتردد أن نقول انه لا أدب ولا فنون ولا ثقافة ، ما لم تواكبها حركة نقدية راسخة القدم ، لها من الطاقات الذهنية ما يمكنها من استنباط مناهجها ووضع فلسفتها، في تطور دائم .

● أين هو النقد

فالأدب العربي المعاصر مثلاً ـ والشعر بوجه أخص ـ لا نعرف عنه الا النزر القليل عن طريق الدراسات النقدية الشاملة، لفقدان هـذه الفئة من الأدباء أو المفكرين الذين يتصدون للانتاج الشعري بالنقد أي بالتقييم لما يعبر عنه من مشاعر ونظرات الى الوجود، ولما يعتمد عليه في ذلك التعبير من وسائل لغوية وأساليب فنية .

وليس لدينـا اليوم دراسات تفي بالحاجة عن هـذا التحول الذي نشاهده في الشعر العربي المعاصر من حيث الصيـاغة العروضية ومن حيث المضمون ومن حيث النظرة الى الشعر .

فالقصيد العربي الجديد يبتعد شيئاً فشيئاً عما ألفنـاه من الشعر ، ويتجه الى محاولة انماط من التعبير والسبك والايقاع لا تمت الى الضوابط القديمة الا بصلات بعيدة متضائلة . وتأثير الشعر الغربي الحديث واضح فيما يتعاطاه الشعراء عندنا من تجارب تخص الشكل والمضمون .

فنحن اذن نشهد فترة تقطع بيـن تقاليد عريقـة في القدم وبين ما يأخذ به أغلب شعراء النابتة الجديدة من اجتهادات تفضي الى التحرر من القيود المألوفة وابتكار وسائل لتوقيع النغم اللفظي وتصوير خوالج النفس هي الى الايحاء اقرب منها الى الافصاح.

والخصومة بـين المتعلقين بالنظرة الفنية التقليدية وبين اصحاب المناهج المحدثة على اشدها. سواء في المشرق او في المغرب، كل يعتبر ان الشعر على النحو الذي يراه من الطراز ، أو لا يكون .

وهي في الحقيقـة خصومة القديم والحديث ، التي لم يزل الأدب العربي يواجهها منذ أقـدم عصوره ، حين كان ابو نواس وجماعته يثوران على عمود القصيد الجاهلي ويدعون الشعراء أن يعيشوا عصرهم فيصدقوا التعبير عنـه ، وحين كان ابن قتيبة يجيب أولئك وهؤلاء بأن القديم كان حديثاً أول ظهوره وان الجديد سيصبح قديماً بعد جدته لا محالة .

ولعل هذه النظرة « التاريخية » التى أدخلها ابن قتيبة في النقد الأدبي من أهم ما ينبغي اعتباره في هذه القضية .

فالشعر ، كعامة مظاهر الفكر البشري، لا قيمة له الا بقدر ما يرتبط بجهد انساني أصيل « آت ـــ حسب عبارة المعري ـــ بما لم تستطعه الأوائل . »

● الشعر مغامرة وجودية

ذلك ان الشعر مغامرة وجودية تتنافى مطلقاً والتقليد والاحتذاء .

هي مغامرة تخص علاقة الفرد بالواقع او بغيره أو بالمجتمع ، وهي مفضية أحياناً الى ابعاد روحيـة تخص الانسان سواء في

عالم الشهادة أو في عالم الغيب .

لذلك فان اهم عنصر في الشعر هذا الجهد الذي يعانيه الشاعر – وقد يضطلع به اضطلاعاً – للتغلب على ما يجد في نفسه تجاه هذه الضغوط الخارجية ، ولتجاوزها الى أبعاد شعرية او روحية قد تفتح في وجهه سبل الغيب .

فالشعر اذن ضرب من تنزيل المستحيل منزلة العاجل ، لتغلب على ما يجد الشاعر في الواقع من نقص وفي نفسه من عجز وفي الزمان من قهر .

وهو بهذا الاعتبار تغلب على هذه الانقاض وتجاوز لهذه الضغوط . بواسطة الخلق الفني .

ومن اجل هذا الارتباط المكين بين التجربة الشعرية والعبارة الفنية . اصبحت قضية الشكل رهينة المضمون . كل متوقف على الآخر . متيسر اليه . مستوح منه .

لذلك لا يمكن بحال أن يعتد بالشكل في حد ذاته . وبمعزل عن هذه التجربة الوجودية التي منها المنطلق وهي التي تملي على الشاعر محاولاته التعبيرية .

فالشعر ، اساساً وأصالة ، مغامرة وجودية مقترنة بمغامرة تعبيرية . ولا يصح بتاتاً اعطاء الأولوية للثانية على الاولى ، لأن ارادة التجديد تصبح اذ ذاك تقليداً جامداً واحتذاء كاذباً ، وعنواناً عن نضوب المعين الحي الذي منه تتفجر الأريحية الشعرية

هذه احدى قضايا الشعر المعاصر ، أردت أن أدلي فيها برأي بعيد عن التعصب للقديم باعتباره قديماً ، او الانتصار للجديد، لمجرد كونه جديداً وذلك ايماناً بأن الشعر كل لا يتجزأ فيه التعبير عن المضمون، واحتراماً لحرية كل شاعر في صياغة تجربته بالشكل الذي يلائم قريحته .

• نظرة الشاعر الى شعره :

وأود ان اختم حديثي بالاشارة الى قضية لا أرى سبيلاً الى السكوت عنها ، في سياق الكلام عن الشعر المعاصر : وهي نظرة الشاعر الى شعره . وما يحيط بهذا المعنى من نظريات تحيد بالبعض الى القول بالالتزام وبالبعض الى رومنطيقية قاتمة تلتبس عندهم بجوهر الشعر .

ان كان المقصود بالالتزام ما تفرضه على كل شاعر أو أديب منزلته الانسانية من تأثر باحداث عصره واهتمام بمشاغل معاصريه، فليس ذلك محل نقاش . اما ان قصد من الالتزام وجوب الوقوف عند هذه الاغراض أو حتى تغليبها على ما سواها ، فليس ذلك من فروض الشعر – والأدب عامة – وانما هو من شروط النضال السياسي .

ولعل هذا الغلو في الزام الشاعر ما لا يلزم، انما هو رد فعل على ما تطفح به اشعار الكثيرين عندنا من سلبية عاطفية ، يغلب

عليها التصنع والافتعال ، وهما منهم ان الشعر مأساة أو لا يكون .

وليس اجمل من المأساة، عندما تكون صادقة النبرات ، عميقة الجذور ، وحتماً من احتام القدر .

ومن الشعراء من يظفر بانتصار على المأساة ويجد منفذاً الى النجاة عن طريق التجاوز سواء الى فرحة الحياة وما توحي به من معان غزيرة منعشة ، أو الى طلب ابعاد روحية واستشعار لمغلقات وغيوب يقف عندها صاغراً وللقريحة الشعرية فيها مجال غير محدود :

في كلتا الحالتين ، في حالة الاخفاق وقيام المأساة ، أو في حالة الظفر والتغلب على الاعراض ، فان قيمة الشعر وشرفه وروعته ، في هذا الجهد وفي هذا الصراع، للتغلب على سلطان الزمان الموضوع في الانسان خلسة بالالم والفناء .

بهذا المعنى ، لا يمكن ان نقول ان للشعر مجالاً غزيراً في عصرنا هذا الذي تكتنفه الحضارة المادية من كل جوانبه حتى ان الانسان ليشعر فيه أحياناً بضيق الوجود . لولا السنة الأمل، التي منها الشعر، اذا زكت اريحيته واطلق عنانه وأصبح قصداً مضطرماً، ووجهاً من وجوه الطلب الانساني الوهاج .

لكن الشعر ايها السادة والسيدات يعسر عنه الكلام والافصاح بغير لغته ، فللشعراء فيه الكلمة الفصل أولاً وآخراً .

والسلام عليكم ورحمة الله .

★ ★ ★

عن أوضاع النقد الأدبي في تونس في السنوات الأخيرة

محمد المصمولي

قبل البدء . حديثي عن « مسائل الانتقاد » والنقد في هذا الجزء من العالم العربي أي بتونس التي ساهمت تاريخياً في اثراء الفكر العربي بواسطة علمائها ومفكريها كابن خلدون وابن الجزار وغيرهما وساهمت تاريخياً في اثراء النقد العربي بواسطة ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب « العمدة » الشهير في القرن الخامس عندما بدأت حركة النقد في المشرق تخمل بعض الشيء - وبالإمكان ايضاً ذكر ابن شرف القيرواني صاحب « مسائل الانتقاد » وغيره .

قبل البدء - قلت - حديثي عن مسائل الانتقاد والنقد في تونس سوف يقتصر على اواخر السبعينات لأن في هذه الفترة الأخيرة من السبعينات اتفق المختلفون على مستوى الوعي حول ضرورة تطوير المفاهيم النقدية ليكون النقد على الأقل في مستوى التحركات الثقافية الأخرى .

فأواخر السبعينات كما سنرى مرحلة حاسمة في « نقد النقد » وفي الحديث عن أزمة النقد وفي التشوف الى مفاهيم عصرية للنقد . وقد أضاف الجيل الطلائعي الجديد - كما سنرى - لهذه الفترة الحاسمة في « أزمة النقد » عنصراً قوياً كان وما زال بمثابة التحدي الصارخ للمقاييس النقدية الموروثة - ويتمثل هذا العنصر الجديد في وضع كتابة تجريدية تساندها « كلمات بيانية » بأقلام منتجي تلك الكتابة انفسهم - وقد أحدث هذا الوضع الجديد في اواخر السبعينات ما احدث مما جعل المتفقين بعد الاختلاف يصمتون تارة ويتحركون طوراً - وبعد هذا لنبدأ .

أزمة النقد وآفاق حديثة

١ - بالعمل الأدبي في غرة افريل (١٩٦٦) يقول الدكتور الجنحاني في ساتحته تحت عنوان « أزمة النقد » : « اما النقد الأدبي فلم يستطع ان يواكب حركة ازدهار الانتاج الفكري في الميادين الاخرى وبقي يشكو الهزال والندرة والقليل من الانتاج الادبي النقدي الذي نقرأه أو نسمعه أحياناً تنقصه الموضوعية والدقة وهما الدعامتان الاساسيتان في كل حركة نقدية بناءة » .

وصوت الجنحاني « الجامعي » يتفق مع أصوات مختلفة من الجامعة - وبالطبع الجنحاني ليس صوت الشملي تماماً ولاصوت « الخميري » تماماً ، وليس صوت « الشاذلي أبو يحيى » تماماً ، وليس صوت « بكار » أو صوت صاحب « اللحمة الحية » أو صوت جعفر ماجد تماماً ومع ذلك فكل هذه الأصوات « الجامعية » على اختلاف ذبذباتها الصوتية ، وعلى اختلاف انتماءاتها الفكرية ، وعلى اختلاف حجم حضورها الادبي في صلب الحركة الفكرية ، هي أصوات قد نددت بمستوى النقد الارتسامي وتادت بالتغيير في مسائل الانتقاد باسم الموضوعية .

٢ - بالفكر عدد جانفي (١٩٦٧) يخصص الأستاذ محمد مزالي عدداً كاملاً من المجلة للتحليل لأوضاع النقد فيثبت في « الافتتاحية » نفس الحاجة التي تقتضيها المرحلة ويلح على ضرورة خلق نقد موضوعي بناء وذلك لان جهود « نقادنا » في غالب الاحيان « لا تخرج عن نطاق العلاقات الشخصية والشعور المفرط بالاقتدار فكان النقد عندنا لا يعدو أن يكون خصومات عنيفة تكال فيها الشتائم والسباب أو مجاملات واطراء وكلمات معسولة تحشر حشراً » .

وهذا الاقرار لازمة النقد من طرف صاحب مجلة اسهمت بشكل جذري في اثراء الأدب التونسي وبعد اكثر من عقد من نضال تلك المجلة هو اقرار له وزنه وانعكاساته في التعبير لا سيما اذا علمنا ان نفس الكاتب وفي نفس المجلة وقبل عام من تخصيصه العدد الخاص بالنقد قد حلل واقع الأدب التونسي

الحـديث » (الفكر س ١١ ص ٥٢٦) وركز تحليله على الطبيعة « الانتقالية » في أدبنا الحديث وذلك لانقسام هذا الأدب الى تيار تقليدي وتيار اخر يمثله أدباء « لايرون الأشياء الا بمنظار الثقافة الفرنسية الاوروبية» ثم الى تيار ثالث « اينع على ايدي اصحاب الثقافة المزدوجة من الصادقين بالخصوص ».

وبهذه الاشارة المزدوجة داخل هذه الفقرة ، وبهذا التصنيف المرحلي للادباء ، نكون في غنى تام عن ذكر امثلة في نفس السياق حول موقف الاصوات المتباينة من « أزمة النقد » في تونس .

٣ — في نفس المرحلة وابتداء من ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ تضاف بعنف أصوات تكاد تكون جماعية « بالفكر » و (العمل الثقافي) وبمجلة (الشعب) ، وبمجلة (ثقافة) انه صوت جيل جديد ، جيل السبعينات ، الذي تختلف « اصواته » عن الأصوات السابقة شكلاً ومضموناً ،لان مطالبته بالتجديد قد تجسمت في خلق فنون من القول تتسم « بالتجريب » ، و«البحث» و « المغامرة الفنية » في القصة ، والشعر ، والمسرح — فكان ما يسمى لأول مرة في تاريخ الأدب التونسي بالقصة التجريبية ، والمسرح التجريبي،وكان لأول مرة ما يسمى « بالقصائد المضادة » التي هي تفجير للشعر والنثر معاً ، وكان لأول مرة ما يسمى بشعر غير « العمودي والحر » .

أما الشكل الأول الذي خالف به جيل السبعينات بقية الاجيال في رفض الأساليب الموروثة الجاهزة في النقد ، فهو ما يسمى « بالكلمات البيانية » التي يضعها المتجون انفسهم للأدب الجديد تطلعاً وتشوفاً الى وضع لحظات ابداعهم الفني على « قواعد » نقدية حديثة ذلك لان المنعرج الذي احدثه الكتاب الجدد قد اصبح يقتضي حتماً ايجاد «منظار» نقدي حديث يختلف عن المنظار «الدوغماتيكي» الذي كان ينظر به القدامى الى هـذا الادب الرافض والمرفوض في الآن نفسه، أو المصر على الرفض اصراره عـلى ان يكون غير مستساغ من طرف الاتجاهات الرجعية التي تعتمد مقاييس جاهزة في « الاستملاح » و« الاستقباح » .

وبالطبع ، « البيانات » التي كتبها « الجدد » قد أحدثت جواً نقدياً يقوم على « تصادم الاضداد» ساهم فيه بعض من صنفهم مدير مجلة « الفكر » ضمن تيار التقليديين كما ساهم فيه بعض أساتذة الجامعة من المحافظين ومن المتفتحين بل نتج عن هذه « البيانات» الرافضة وعن الادب الذي يعتمد«التجريب» ندوات تلفزية وجماهيرية في بعض دور الثقافة وفي بعض المراكز الثقافية بالعاصمة وبغيرها .

أما الشكل الثاني الذي خالف به جيل السبعينات بقية الاجيال الاخرى في رفض النقد القديم وفي محاولة خلق نقد حديث فاننا نجده في شكل دراسات قام بها بعض الشبان

وغير الشبان « بالفكر » تارة و « بالعمل الثقافي » ومجلة « ثقافة » طوراً آخر ،وهي دراسات مستقبلية أيضاً ، اعتمد فيها أصحابها أحدث ما بلغته تيارات النقد الحديث في الغرب « كالهيكلية » وغيرها ـ وعلى هامش هـذا التيار ، نجد دراسات حديثة أيضاً ومساندة بشكل صريح أو بشكل غير مباشر الأدب الجديد نذكر منها دراسات الاستاذ البشير بن سلامة التي نشرها في كتاب يحمل عنوان « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » .

ـ تأملات سريعة في «أزمة النقد» وفي الاحساس العام بها ـ

من خلال العرض الخاطف لمواقف المحافظين والمتفتحين في صف واحد من المطالبة بالنقد الموضوعي الصحيح، ومن خلال تصاعد هذا الاحساس بتخلف النقد الى مستوى «البيانات النقدية» والدراسات الحديثة على ايدي الجيل الجديد من الكتاب التونسيين نكون قد رسمنا صورة تقريبية للوضع الراهن ،وهي صورة تبقى في آخر الأمر باعثة على الحيرة، مثيرة للسؤال والتساؤل عن مصير النقد .

ودون تقييم ـ سابق لاوانه ـ للضجة التي أحدثها الجدد والتساؤل الذي تركه المجددون بتحفظ والتقليديون ودون تبرير أيضاً للصمت المفاجيء الثقيل الذي غرق فيه جل عناصر الطليعة الادبية بعد أن كانوا الصوت القوي المكتسح للساحة الادبية ، بامكاننا ابداء الملحوظات التالية :

١ ـ طبيعي ان يكون النقد التونسي الحالي والعربي عموماً والنقد في العالم الثالث « متخلفاً » وذلك لان النقد الحق مظهر حضاري ونتيجة حتمية التقدم العلمي ، والاقتصادي والسياسي ـ واستند في هذه الملحوظة على ان النقد في عصرنا الحاضر لم يعد « فناً ذوقياً » وانما أصبح علماً يتفاعل مع ادوات الحضارة ومناهجها العلمية ، فيأخذ من الفلسفة ومن علم النفس والبيولوجيا كما يأخذ من علم الاقتصاد والاجتماع وبقية فروع المعرفة وبالطبع العالم الثالث ـ بما في ذلك تونس والعالم العربي هو عالم «مستهلك» الحضارة لا منتج لها ولادواتها ، ومن ذلك كان من الطبيعي أن تحيا في « النقد » أزمة حادة هي جزء من ازمتنا الحضارية العامة .

وقد يظن بعضنا أن حديث « سهيل ادريس » عن أزمة النقد في لبنان،وحديث محي الدين صبحي عن أزمة النقد في العالم العربي ، وحديث « مطاع صفدي » عن أزمة النقد في الفكر العربي ، هي « احاديث » اقل حدة في المشرق منها في المغرب ، وشخصياً بالملحوظة التي اسلفنا بيانها ، نرى تخبط النقد مشرقاً ومغرباً مرجعه الاساسي ارتباط النقد بالازمة الحضارية ـ لا اكثر

ولا أقل – وقد كان لنا نقد في التاريخ عندما كانت لنا حضارة .

٢ – طبيعي ان يكون ما يسمى بالخلق الادبي أو بالانتاج الادبي متقدما بالقياس للنقد مع وجود نفس التخلف الحالي عن الحضارة أما السبب فهو ان « الخلق » « وجدان » بل أن يكون « عقلاً » ولذلك، فقد نجد عمالقة في الشعر والقصة والمسرح ولو ازداد العالم الثالث تخلفاً على تخلف ولكن من الصعب – وربما من المستحيل – ان نجد في أوضاع كاوضاعنا ناقداً بامكانه ان يحدث نظريات علمية خاصة به وقابلة «للتصدير» لتضمنها نظرة تكاملية موضوعية شاملة للفن في العالم الثالث أو للفن في البلدان المتقدمة – والاستحالة تكمن في ان احداث النظرية العلمية في الفن يحتاج الى مناخ حضاري معين وما دمنا لا نملك مخترعين حالياً في أي فرع من فروع العلم سوف ننتظر طويلاً قبل الخروج من أزمة النقد .

٣ – طبيعي ان يكون لنا نقاد وان تكون لنا أزمة في النقد في الان نفسه كما هو الحال في العالم العربي وان كانت النقطة الثانية واضحة فان مسألة « النقاد » تصبح من الاصطلاحات التي تقبل على سبيل التجاوز فقط وعلى أساس التفاؤل – ما دمنا في تونس وفي العالم العربي لا نملك نقاداً متخصصين من نوع « شارل بيلا » في الجاحظ ، ومن نوع « بلاشير » في المتنبي، وما دمنا من جهة أخري لا نملك نقاداً يتناغمون بصفة منتظمة مسترسلة مع نوع أو اكثر من الانتاج (وان وجدنا هذا النوع فهو نادر أو أقل من النادر ، لاننا نملك نقاد مناسبات و «ظروف» في الغالب الأعم .

وبعد هذا ماذا ؟

قد تكون الصورة التي رسمناها عن أوضاع النقد في السنوات الأخيرة أقرب الى الاختزال في الرسم منها الى الصورة المكتملة – وهذا ممكن لقرب المسافة التي تفصلنا عن هذه الاوضاع – بل قد يكون حديثنا عن النقد منحصراً في حديث عن « نقد النقد » في السنوات الأخرى والخط التصاعدي في الاحساس الأزمة لا سيما بسبب انبثاق الأدب التجريبي والشعر الرافض للوزن، والبيانات النقدي والدراسات المعتمدة للعلوم الانسانية . وهذا ايضاً صحيح .

أما لماذا لم نتحدث عن المعطيات الموضوعية الأخرى في أوضاع النقد الارتسامي وفي اوضاع النقد الذي يتوخى الطرق الموجودة في العصر الأول للنهضة . في المشرق العربي ، وأوضاع النقد الجامعي الأكاديمي – فقد تعمدنا اغفال كل هذه المظاهر لأنها لم تكن في صلب الصراع الذي تختص به مرحلة دون أخرى ، وهي على كل حال لم نصف شيئاً ولم نغير شيئاً .

– تونس –

رئيس وفد رابطة الأدباء في الكويت يشرح ملابسات انسحاب الوفد اللبناني من مؤتمر الأدباء العرب التاسع

نشرت مجلة « البيان » الكويتية في (العدد ٨٥ – نيسان ١٩٧٣) هذا التصريح . ونحن نعيد نشره من بين عـدة بيانات وتصريحات حول موقف الدكتور سهيل ادريس ووفده وأغراضه !

* * *

نشرت جريدة النهار البيروتية الصـادرة صباح الثلاثاء ٢٧ - ٣ - ١٩٧٣ في صفحتها الاخيرة خبراً مفاده ان وفـد اتحاد الكتاب اللبنانيين قد انسحب من مؤتمـر الأدباء العرب في تونس احتجاجاً على رفض المؤتمرين الرسميين وخاصة وفـود مصر والكويت والسعودية اقتراح الوفد اللبناني إثارة قضيـة حرية الأدباء المضطهدين في بعض البلدان العربية الى آخر ما جاء في هذه الجريدة .

ورغبة منا في أن نضع النقاط على الحروف نرى مناقشة ما جاء بكل هـدوء متذرعين بما عودنا انفسنا عليه في مثل هذه المواقف المفتعلة :

أولاً — ان وفد رابطة الأدباء في الكويت ليس وفداً رسمياً ، والدكتور سـهيل ادريس رئيس وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين يعرف ذلك حق المعرفة ، واذا كان رئيس فد رابطة الأدباء في الكويت لم ينزلق في المنحدر الذي تم إعداده سلفاً للتشهير بجمهورية مصر العربية ولنسف المؤتمر بعد ذلك شأنه في ذلك شأن رؤساء الوفود الاخرى ، فما الجريمة التي اقترفها لتكال له التهم الظالمة ؟ ولقد كان رئيس الوفد وما زال ممن يرفضون بيع مواقفه في المزاد العلني فليفهم الدكتور ادريس ذلك جيداً .

ثانياً — ان رئيس وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين حين اعتلى منصة الخطابة في حفلة الافتتاح دعا الى الاضراب والاعتصام في سفارات مصر في كافة البلدان العربية احتجاجاً على فصل بعض الأدباء من الاتحاد الاشتراكي في جمهورية مصر العربية ، وقد فوجئت جميع الوفود بطرح ذلك الموضوع بذلك الشكل التمثيلي وكان بوسع رئيس وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين ان يناقش الموضوع في جلسات رؤساء الوفود بعيداً عن الاثارة والمزايدات .

ثالثاً — حين عاد الدكتور سهيل ادريس رئيس وفد اتحاد الكتاب اللبنانيين الى طرح الموضوع في جلسة مغلقة لرؤساء الوفود صمم الوفد المصري على الانسحاب من المؤتمر وطعن في الغرض الذي من أجله رفع المذكور الراية ، ومما قاله الاخوان أعضاء الوفد المصري أن مجلة « الآداب » التي يصدرها الدكتور سهيل ادريس ممنوعة من دخول القطر المصري مع بقية الصحف المعادية لمصر ، ورغبة من وفد الكويت في جمع الشمل والتوفيق بين الوفد المصري الذي استعد للانسحاب من المؤتمر وبين رغبة الدكتور سهيل ادريس فقد كان رأينا تعديل الاقتراح ليكون شاملاً بحيث يتم تشكيل وفد بمعرفة الأمانة العامة للكتاب العرب يتكون من اثنين أو ثلاثة لزيارة جميع الأقطار العربية دون استثناء لدراسة أوضاع الأدباء والمفكرين في الاقطار العربية وما يلاقون من صعاب أثناء قيامهم بواجبهم نحو الجماهير العربية مع تقديم تقرير للامانة العامة حول هذا الموضوع على أن يبدأ الوفد بزيارة مصر اولاً ، وكنا مؤمنين ان هذا الاقتراح قد حقق الهدف للدكتور سهيل ادريس ، ولكن الدكتور المذكور لم يوافق ، وانبرى للرد عليه الأستاذ شفيق الكمالي رئيس وفد العراق والاستاذ يوسف الخطيب رئيس وفد فلسطين والأستاذ علي المصراتي رئيس وفد ليبيا والاستاذ جورج صدقني رئيس وفد سورية ، ثم طرحت القضية للتصويت فسقط اقتراح الدكتور سهيل ادريس ، ثم طرح الاقتراح الذي تبناه وفد الكويت والعراق وليبيا وسورية وفلسطين فأقره الجميع ولم يعترض عليه سوى الدكتور سهيل ادريس . وقد طلب رئيس المؤتمر الاستاذ محمد المزالي وزير التربية بتونس من الدكتور سهيل ادريس ان يكون ديمقراطياً ويتقبل النتيجة بروح رياضية ولكنه هدد بأن يثيرها بالجلسة الختامية أمام الجماهير ، وفي الجلسة الختامية المخصصة لقراءة القرارات والتوصيات وقف الدكتور سهيل ادريس ليشرح اقتراحه الذي رفضه المؤتمر فمنعه رئيس المؤتمر وطلب اليه ان يلزم مكانه فخرج مع بقية أعضاء الوفد اللبناني من الجلسة .

ان وفد الكويت حين غادر البلاد ليلتقي بزملائه على صعيد بلد مغربي عزيز كان يدرك أن هـذا المؤتمر سيتعرض للمزايدات المفتعلة من أناس لهم ارتباطات خاصـة ، ولقد صمم الوفد على ان يكون منـسجماً مع نفسه بعيداً عن المعارك الجانبية المفتعلة همه الوحيد القضية المصيرية وما يجب أن يحشد لها في هذه الظروف الحاسمة .

رابعاً — واذا كان اتحاد الكتاب اللبنانيين يدعو اليوم الى مؤتمر خاص به فهذا ما لا نرغب فيـه ولا نقره عليه وكنا وما زلنا ندعو لجمـع الشمل وتوحيد الصفوف بعيداً عن الشعارات الزائفة والمواقف المتلونة والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل .

احمد السقاف

رئيس وفد رابطة الأدباء

في الكويت

★ ★ ★